



2810

ترجمة وتقديم
جلال السعيد الحفناوي

تأليف
أبو الكلام أنزاد

غبار الخاطر

المركز القومي لترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث



- العدد: 2810
- ت غبار خاطر
- أبو الكلام آزاد
- جلال السعيد الحفناوي
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:
غبار خاطر
أبو الكلام آزاد

غبار الخاطر

تأليف : أبو الكلام آزاد

ترجمة وتقديم: جلال السعيد الحفناوى



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

آزاد، أبو الكلام
غبار خاطر/ تأليف: أبو الكلام آزاد، ترجمة وتقديم:
جلال السعيد الحفناوى.
١، القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٦
٣٣٢ ص، ٢٤ سم
١- الإسلام - تراجم
٢- العلماء العرب.
٣- آزاد، أبو الكلام - ١٨٨٨ - ١٩٥٨
(أ) الحفناوى، جلال السعيد (مترجم ومقدم)
(ج) العنوان
٩٢٢،١

رقم الإيداع : ١٧٧٧٥ / ٢٠١٥
الترقيم الدولى : 978-977-92-0404-8

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	تقديم المترجم: أبو الكلام آزاد ابن مكة.. حياته وأعماله
41	تصدير بقلم محمد أجمل خان.....
53	مقدمة المؤلف.....
57	خطاب - ١ (خطاب نواب صدريا رجنج).....
59	خطاب - ٢ (خطاب من مولانا آزاد من سرى نجر: كشمير).....
59	خطاب - ٣ نسيم باغ.....
64	خطاب - ٤ خطاب قبيل الاعتقال.....
73	خطاب - ٥ حكاية مسهبة.....
88	خطاب - ٦ قلعة أحمد نجر.....
101	خطاب - ٧ قلعة أحمد نجر ١٥ أغسطس ١٩٤٢م.....
109	خطاب - ٨ قلعة أحمد نجر ١٩ أغسطس ١٩٤٢م.....
131	خطاب - ٩ قلعة أحمد نجر ٢٩ أغسطس ١٩٤٢م.....
143	خطاب - ١٠ قلعة أحمد نجر ١٢ أكتوبر ١٩٤٢م.....
159	خطاب - ١١ قلعة أحمد نجر ١٧ أكتوبر ١٩٤٢م.....
171	خطاب - ١٢ قلعة أحمد نجر ١٨ أكتوبر ١٩٤٢م.....
180	خطاب - ١٣ قلعة أحمد نجر ٥ ديسمبر ١٩٤٢م.....
196	خطاب - ١٤ قلعة أحمد نجر ١٧ ديسمبر ١٩٤٢م.....
214	خطاب - ١٥ قلعة أحمد نجر ٧ يناير ١٩٤٣م.....
224	خطاب - ١٦ قلعة أحمد نجر ٩ يناير ١٩٤٣م.....
233	خطاب - ١٢ حكاية الغراب والبلبل.....

254 خطاب - ١٨ قصة الطيور
267 خطاب - ١٩ قلعة أحمد نجر ١٨ مارس ١٩٤٣ م
279 خطاب - ٢٠ قلعة أحمد نجر ١١ أبريل ١٩٤٣ م
287 خطاب - ٢١ قلعة أحمد نجر ١٤ يونيو ١٩٤٣ م
291 خطاب - ٢٢ قلعة أحمد نجر ١٥ يونيو ١٩٤٣ م
293 خطاب - ٢٣ قلعة أحمد نجر ١٦ سبتمبر ١٩٤٣ م

تقديم المترجم

أبو الكلام آزاد ابن مكة.. حياته وأعماله

كانت مكة المكرمة - ولا تزال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - محط أنظار المسلمين، وقبلتهم جميعاً في الماضي والحاضر والمستقبل، والملاذ الآمن الذي يلوذون به عندما تضيق بهم السبل وقت الشدائد والحن وتقطع بهم الأسباب، ومكة المكرمة هي محط أنظار علماء الهند، ومنتهى آمالهم أن يشدوا الرحال إليها ليعبوا من فيض علمها الوافر حيث كان الحرم المكي جامعة إسلامية مفتوحة لعلماء العالم الإسلامي بشكل عام، ولعلماء شبه القارة الهندية بشكل خاص، وملاً آمناً لهم فهاجروا إليها وعاشوا في كنفها مجاورين، وهذا ما يؤكد على عالمية مكة المكرمة وأنها عاصمة الثقافة الإسلامية قديماً وحديثاً.

لقد استمدت الحركات التحررية والنهضة العلمية والبعث الإسلامي في الهند العون من العلماء الهنود الذين كانوا يعيشون في مكة، وكان لهم هدفان، هدف ديني يتعلق بتعلم العلوم الشرعية، وهدف تحرري هو استنهاض الهمم لطرد المستعمر الإنجليزي.

ويمكن القول إن كثيراً من حركات الإصلاح الديني والذي قام في شبه القارة الهندية كان متأثراً بما يدور في مكة المكرمة التي ضمت بين أكنافها جماعة كبيرة من العلماء الذين كانوا يتلقون العلوم الشرعية والفقهية في الحرم المكي؛ لنيل الإجازة في العلوم الدينية من علماء مكة التي هي منتهى أمل جميع علماء الهند الذين سعوا إليها سعياً حثيثاً للحصول عليها؛ كي تصبح لهم مكانة مرموقة وبارزة بين أقرانهم من العلماء في الهند بعد عودتهم إليها، ولم يكن يعترف في الهند بعالم في الحديث النبوي أو في تفسير القرآن الكريم ما لم يكن قد قرأ على أحد علماء مكة وأخذ منهم الإجازة بذلك.

ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال: مولانا خير الدين وولده أبو الكلام آزاد، والنهر والي دفين مكة وصاحب كتاب "الإعلام بأعلام بلد الله الحرام" وعبد الحق المحدث الدهلوي، وشاه ولي الله الدهلوي وأسرته شاه رفيع الدين وشاه عبد القادر مفسر القرآن، وشاه عبد العزيز صاحب الفتوى الشهيرة ضد الإنجليز بأن الهند دار حرب، ورحمت الله الهندي مؤسس المدرسة الصوفية بمكة، ومسعود رحمت الله المكي، ومحمد طيب رامبوري المكي، ومحمود الحسن شيخ الهند وأسير مالطة، وإمداد الله المهاجر المكي وغيرهم من العلماء الذين كانت مكة تعج بهم والذين ارتبطت أسماؤهم بالمشاركة في حركة تحرير الهند وإثراء الحياة العلمية بها.

كان أبو الكلام آزاد (١٣٠٥ هـ - ١٨٨٨ م) - (١٣٧٥ هـ - ١٩٥٨ م) ابن مكة ومفسر الهند ومن أبرز علماء الهند الذين صار لهم شأنًا عظيمًا بعد عودته إليها، حيث قضى طفولته الأولى بين أرجاء مكة وتعلم في الحرم المكي، وتركت هذه التربية أثرها فيه وأسهمت في تكوينه الفكري والعلمي. وقد انعكس ذلك على حياته العملية بعد ذلك حتى أطلق عليه صاحب الإمامتين: الإمامة في الدين، والإمامة في السياسة.

لقد كان مولانا أبو الكلام آزاد ابن مكة شخصية ثرية متعددة الجوانب، فهو سياسي محنك ومجاهد في سبيل تحرير الهند، وعالم دين، ومفكر، وفيلسوف، وعالم في علوم الحديث، ومفسر للقرآن، ومؤرخ في تاريخ العرب والعجم، وهو خطيب مفوه وكاتب بارع، وخبير تعليم، وأديب، وصاحب أسلوب مميز في العربية والأردية، وصحفي له مدرسة صحفية متميزة، وثوري ورئيس أكبر حزب سياسي هو حزب "المؤتمر" الهندي الذي ظل يحكم الهند قرابة خمسين عامًا، وساهم في استقلال الهند عام ١٩٤٧ م، وظل وزيرًا للثقافة حتى وفاته عام ١٩٥٨ م.

وسوف أتناول في بحثي عن أبي الكلام آزاد محورين هما:

المحور الأول: البيئة العلمية المكية زمن مولد أبي الكلام آزاد، بنية مكة الاجتماعية من الأشراف والمهاجرين والمجاورين من مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، والحياة الثقافية والدينية في مكة والتي أهلتها لتكون عاصمة الثقافة الإسلامية، ثم نشأة أبي الكلام آزاد في مكة وتربيته المكية وتأثير أمه العربية فيه.

المحور الثاني: أثر تربية أبي الكلام آزاد في مكة ، وتناولت فيه أثر التربية المكية فيه، وانعكاس ذلك على مؤلفاته، وأثر هذه التربية في تكوينه الفكري واللغوي حيث كانت اللغة العربية لغته الأم وتأثيرها في كتاباته وأسلوبه العربي والأردني، ونماذج من كتاباته وأيضًا تأثير اللغة العربية من خلال افتتاحياته العربية لصحفه الأردية كالهلال والبلاغ، وصحفه العربية كالجامعة وثقافة الهند، وأثر اللغة العربية على لغته الأردية في كتابه "غبار خاطر" واستخدامه للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار والحكم والأمثال العربية. كما أن الحياة في مكة قد أهلتها ليكون قائدًا سياسيًا وأثارت اهتمامه بقضايا العالم الإسلامي وعلى رأسها مسألة الخلافة الإسلامية التي كانت تشغل بال المسلمين آنذاك.

المحور الأول

الحياة الاجتماعية والبيئة العلمية في مكة زمن مولد أبي الكلام آزاد

(أ) الحياة الاجتماعية في مكة:

مكة المكرمة هي بلدة قديمة عرفت قبل مجيء إبراهيم عليه السلام إليها ليرفع قواعد البيت العتيق، وعندما وصلها كانت قرية صغيرة تقع في وادي غير ذي زرع تحيط بها الجبال من كل جانب. وتتفق جميع الروايات على أن جرهم كانت بمكة المكرمة في عهد إسماعيل عليه السلام^(١).

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي أو أوائل القرن الرابع الميلادي؛ استولى على مكة جماعة من سكان جنوب الجزيرة العربية وطردها جرهم منها، بيد أن جو مكة المكرمة لم يلائم هؤلاء فغادروها غالبيتهم، وبقي فيها قسم منهم وهم الذين عرفوا باسم خزاعة. وفي منتصف القرن الخامس الميلادي انتقلت الزعامة لقصي بن كلاب أحد أحفاد إسماعيل عليه السلام وقصي هو الجد الرابع للنبي محمد ﷺ^(٢).

(١) عبد الله، عبد الرحمن بن صالح: تاريخ التعليم في مكة المكرمة. الطبعة الثالثة. مؤسسة الرسالة. بيروت.

١٤٢٢م. ٢٠٠١م. ص: ١٠.

(٢) السباعي، أحمد: تاريخ مكة. الجزء الأول. مطابع قریش. مكة المكرمة. ١٣٨٠هـ. ص: ١٣-١٧.

ولمكة المكرمة أسماء كثيرة منها: بيت الله الحرام، ومكة، وأم القرى، والبلد الأمين. قال أبو بكر الأنباري: سميت مكة؛ لأنها تملك الجبارين - أى تذهب نخوتهم، ويقال إنها سميت مكة لازدحام الناس بها من قولهم: قد أمتك الفصيل ضرع أمه إذا مصه مصاً شديداً، وسميت بكة لازدحام الناس بها، ويقال: مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت^(١).

ومع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر؛ كانت تركيبة مكة الاجتماعية تتكون من الأشراف الذين كانوا يحكمون المدينة، ثم الأعيان والتجار إلى جانب جماعة كبيرة من المجاورين وفدوا إلى مكة وجعلوها ملاذاً آمناً لهم قادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي؛ ومن بينهم عدد كبير من المهاجرين الذين وفدوا من شبه القارة الهندية، وجاوة، وبخارى وأفغانستان، وإيران، ومصر، والمغرب، وإفريقيا؛ وذلك لأسباب سياسية ودينية وتعليمية، وقد وفد علماء الهند إلى مكة ليلوذوا ببيت الله الحرام، ويعدوا العدة لإخراج المستعمر الإنجليزي من بلادهم، وكذلك ليتلقوا العلوم الشرعية ويحصلوا على الإجازة من علماء الحرم؛ لكي يواصلوا عملهم في الهند، ومنهم من أنشأ الكتاتيب والمدارس، وكانت الحياة الاجتماعية في مكة تشهد في ذلك الوقت حركة ثقافية وعلمية عظيمة.

وبعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي كثرت هجرة المسلمين إلى مكة المكرمة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولعل الاضطرابات السياسية والحروب الطاحنة في مختلف أرجاء البلاد الإسلامية جعلتا كثيرين منهم يفضلون العيش فيها، ليباعدوا عن تلك المشكلات. ولا يمكن تجاهل الحافز الديني، فالأئمة المؤمنة تهوي إلى العيش في أقدس بقعة على ظهر الأرض وأخذت كل جالية تتجمع في ناحية معينة من نواحي مكة المكرمة؛ ولهذا نجد أسماء تنسب لتلك الجاليات، مثل: زقاق المغاربة، وزقاق البخارية، وحي الملاوي^(٢). ولعل أبرز ما كان يميز الشرائح الاجتماعية في مكة في ذلك العهد المجاورون والمهاجرون.

(١) الحموي، ياقوت: معجم البلدان. المجلد الخامس. دار صادر. بيروت. ص: ١٨١.

(٢) عبد الله، عبد الرحمن بن صالح: تأريخ التعليم في مكة المكرمة. ص: ١٩.

و قد أثرت هذه الهجرات على التركيبة السكانية للمجتمع المكي الذي تميز بالعالمية، وكانت الجالية الهندية من أنجح الجاليات التي تواءمت مع المجتمع المكي وانسجمت معه، وكان خير الدين والد أبي الكلام آزاد من الذين هاجروا إلى مكة عندما صارت الهجرة اختيارًا لكثير من البيوت العلمية في العالم الإسلامي، وأقام في محلة قدوة المتصلة باباب السلام.

كانت تلك الأحداث التي عاصرها خير الدين والد أبو الكلام آزاد، وقد بزغ فيها نجم آل سعود، وفي أمة شتتها القتال، ومزقتها الفرقة وتكالت عليها قوى الشر من الأمراء الطامعين، ومن العثمانيين وأتباعهم، ولكن الإمام عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز قد دان له حكم الرياض سنة ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م^(١) - أي أثناء وجود أبو الكلام آزاد في مكة المكرمة.

(ب) البيئة العلمية المكية:

بدأت الهجرة إلى مكة تفتح أبوابها وبدأت آفاق الإسلام تجد طريقها ميسورًا إلى مكة أكثر من ذي قبل، فكثرت المجاورون وتنوعت أصنافهم، فكان منهم المنقطعون للعبادة والزهد ومنهم العلماء الذين لذهم أن يجاوروا بيت الله الحرام وينشروا علومهم في أرجائه، وقد ساعدوا على نشاط التعليم في أوائل العهد العثماني واستطاعوا بالاشتراك مع العلماء من أهالي مكة القدماء أن يضيفوا إلى قائمة البيوت التي تخصصت للعلم، وبقي التعليم في مكة في هذا العهد على وتيرته التي ورثها من القرون السابقة يتلخص في طلب العلم في حلقات الدروس التي ينظمها العلماء في المسجد الحرام أو في المدارس التي ينشئها المحسنون لإيواء الطلبة أو تدريسهم وفي بعض دور العلماء الذين كانوا يمنحون طلبتهم دروسًا خاصة^(٢).

(١) السباعي، أحمد: تاريخ مكة. الجزء الثاني. الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية. الرياض. ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م. ص: ٥٣١ و ٦٥٣.

في هذه الأثناء هاجر إلى مكة المكرمة علامة من أفذاذ الهند المجاهدين ضد الاستعمار الإنجليزي؛ هو الشيخ رحمت الله العثماني بعد أن شارك في الثورة الهندية سنة ١٨٥٧م ضد الإنجليز، ولما فشلت الثورة رصد الإنجليز مكافأة لمن يدلهم على الشيخ رحمت الله وصادروا أملاكه وحظروا بيع كتبه؛ فاضطر إلى الهجرة من الهند متخفياً حتى وصل إلى مكة سنة ١٢٧٨هـ / ١٨٦٢م. وفي مكة حصل على إجازة التدريس في المسجد الحرام وسجل اسمه في السجل الرسمي لعلماء الحرم، وفي ١٢٨٥هـ أسس أول مدرسة في مكة وسميت في سنة ١٢٩٢هـ باسم المدرسة الصولتية نسبة إلى الأميرة صولت النساء؛ وهى أميرة هندية مسلمة تبرعت ببناؤها، وبقي الشيخ رحمت الله مديراً ومدرساً فيها إلى وفاته في ٢٢ رمضان سنة ١٣٠٨هـ الموافق ١٨٩١م، ودفن في مقبرة مكة^(١). ومن أشهر كتبه: "إظهار الحق" في الدفاع عن الدين الإسلامي وألفه بالعربية سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٤م.

(١) رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني: إظهار الحق. الجزء الأول. دار الوطن للنشر. تحقيق: محمد أحمد ملكاوي. الرياض. ١٤١٢هـ ص: ٢١. وقد ولد الشيخ رحمت الله بحي (دربار كلان) في قرية كيرانة في محافظة مظفر نجر من توابع دهلي في غرة جمادى الأولى سنة ١٢٣٣هـ الموافق ٩ آذار سنة ١٨١٨م وقد اشتهر أفراد أسرته بالعلم والطب والمناصب العالية، وينتهي نسبة عند الجد الرابع والثلاثين إلى ذي النورين عثمان بن عفان، وبدأ تعليمه في بلده على يد والدهوكبار أفراد أسرته المشهورين بالعلم والفضل والدين، ثم رحل للتعليم العالي في دهلي ولكنه رجع إلى كيرانة فتصدر مجالس العلوم الشرعية والإفتاء وأسس مدرسة شرعية في كيرانة، وتنبه لأخطار التنصير المحدقة بمسلمي الهند، ولضخامة الجهود التي يبذلها المنصرون فترك وظيفته في التدريس وتفرغ لمقارعة المنصرين حتى أصبح أستاذاً بلا منازع - في علم مقارنة الأديان والرد على النصاري، ومن أشهر كتبه: إزالة الأوهام عام ١٢٦٩هـ (بالعربية)، وإزالة الشكوك (بالأردية) في جزأين ١٢٨٨هـ إظهار الحق في الرد على القسيس فندروألفه في الأستانة وانتهى منه في سنة ١٨٦٤هـ (بالعربية)، والتنبيهات في إثبات الاحتجاج إلى البعثة والحشر (بالعربية) ١٢٨١هـ وقد أمر السلطان عبد العزيز خان بترجمته إلى اللغة التركية وعدة لغات أوروبية أخرى، وطبع في مصر سنوات ١٣٠٩هـ و١٣١٦هـ و١٣١٧هـ (إظهار الحق: الجزء الأول. ص: ٢٠).

وقامت هذه المدرسة بدور بارز في تعليم الدين والعربية والقرآن، وتقع في حارة الباب بالخنديسة، أقبل الطلبة على المدرسة الصولتية إقبال الظامئين إلى مناهل العلم، كما أقبل بعضهم على دروس الشيخ رحمت الله التي خصصها في المسجد فأنتجت جهوده في حلقة المسجد وفي بيته بحارة الباب إنتاجا خدم البلاد من ناحيتها العلمية خدمة لا تزال آثارها ماثلة إلى اليوم في أشخاص كثر من أجلة العلماء وأصحاب المناصب الدينية والقضائية، من أشهر من أنجبتهم جهود الرجل علماء من آل مرداد والمفتي والعجمي والغمري والطيب والدهان والدهلوي والدحلان وباب صيل والزواوي والكتبي وكمال والقاري، والمشايخ: حسن مشاط وعيسى رواسي ويحيى أمان وغيرهم من علماء مكة، ولا تزال المدرسة باقية إلى اليوم^(١).

٢ - المدرسة الفخرية:

نشط الشيخ عبد الحق قاري أحد الأساتذة في المدرسة الصولتية لتقليد أستاذه؛ أسس في عام ١٢٩٦ هـ المدرسة الفخرية بجوار باب إبراهيم، دعا أثرياء الهند لمساعدته فأجيب طلابته وشرعت مدرسته تؤدي دورها جيدًا في خدمة البلاد.

٣ - مدرسة محمد حسين خياط الخيرية:

نشط الحسين في هذا العهد لخدمة العلم فأسس أول مدرسة حكومية عربية، فقد بني أمام باب السلام مدرسة أسماها الخيرية سنة ١٣٢٦ هـ، وطلب إلى الشيخ محمد خياط أن ينتقل بتلامذة مكتبه إليها، ثم أضاف إليها مدرستين أوليتين إحداها في المعلاة، والثانية في حارة الباب، ثم أنشأ مدرسة أرقى من ابتدائية في قلعة قعيقعان الهندي أسماها (الراقية) ١٣٣٥ هـ، وأخرى تشبه الثانوية في العمارة نفسها أسماها (العالية) ١٣٣٥ هـ، وأسس وكالة للمعارف جعل رياستها لأحد العلماء في مكة وكان أول من تولاهما الشيخ علي مالكي.

(١) السباعي، أحمد: تأريخ مكة. الجزء الثاني. ص: ٦٥٤ - ٦٥٥.

أسس الشيخ عبد الكريم الطرابلسي في سنة ١٣٢٧هـ مدرسة بقاعة الشفاء؛ وهي أول مدرسة عربية عنيت بالتدريس للتلاميذ في مكة جلوسًا على مقاعد الدراسة أمام السبورة. وعندما فاز الدستوريون في انقلابهم الثاني عام ١٣٢٧م شرعوا يؤسسون مدارس في الحجاز فأنشأوا في مكة مدرسة أمام باب الصفا سموها مدرسة (برهان الاتحاد) ثم بنوا لها أمام قصر المالية في أجياد بناية نقلوها إليها.

٤ - مدارس الفلاح:

في عام ١٣٣٠هـ فكر المحسن الكبير الحاج محمد علي زينل في العناية بشئون التعليم، فأسس في كل من مكة وجدة مدرسة كان ينفق عليها من ماله الخاص، كما أنشأ مثلها في بومباي بالهند. وقد تأسست بذور مدرسته في مكة من كتاب الشيخ عبد الله حمدوه السناري الذي قبل أن ينضم هو وطلابه إلى المشروع، وتأسست في حارة الباب ثم انتقلت إلى القشاشية أمام باب علي قبل توسعة المسجد، وقد ظلت فيها إلى أن أسست لها بناية في الشبكة وهي باقية فيها إلى اليوم، وقد فوضت إدارتها في يوم التأسيس إلى السيد محمد حامد ١٢٤٠هـ، ثم أعقبه السيد طاهر الدباغ مدير المعارف فيما بعد. وقد أسهمت مدرسة الفلاح بمكة بأوفى نصيب في خدمة العلم؛ وأنجبت إلى اليوم عددًا عظيمًا من طلبتها الذين شغلوا كثيرًا من مناصب الحكومة، كما أنجبت علماء أسهموا بحلقاتهم في شئون التدريس بالمسجد الحرام^(١).

في أواخر العهد العثماني طرأ تغيير على منح الإجازات التعليمية فأصبح على كل من يرغب في التدريس في المسجد الحرام أن يقدم طلبًا لقاضي القضاة، وفي أوائل العام الهجري، يعقد قاضي القضاة مجلسًا علميًا برئاسة، ويحضره كل من: مفتي الشافعية، ومفتي المالكية، ومفتي الحنابلة، وكان يمتحن الطالب في اليوم الواحد في

(١) المرجع السابق. ص: ٦٥٥-٦٥٦ و٦٩٨.

درس، أو درسين فإذا نجح أعطيت له شهادة التدريس بالمسجد الحرام، ثم يرفع اسمه للحاكم ليعطيه من الخِطة التي كانت ترد لأهل الحرمين الشريفين، ولم تكن الدولة تدفع الرواتب إلا لكبار المدرسين مثل: السيد بكري شطا، والشيخ عمر باجنيد، والشيخ يمانى، كما عين في زمن الدولة العثمانية مراقباً للمسجد الحرام يشرف على سير الدروس، ويمنع من التدريس كل من لا يحمل ترخيصاً بذلك^(١).

و من الملاحظ أن عدداً كبيراً من المدارس التي ظهرت في مكة المكرمة أنشأها مسلمون من خارج مكة المكرمة، ولعل هذا له أسباب عدة، ومنها أن المسلمين رغم انتمائهم لدول متعددة ظلوا يشعرون بانتمائهم إلى كيان واحد، فلا يحتاج المسلم الهندي - على سبيل المثال - إلى إجراء معاملات، أو حمل جواز سفر إن أراد المجيء إلى مكة المكرمة، وهذا هو العامل الذي سهل على العلماء المسلمين الرحلة في طلب العلم.

نشأة أبى الكلام آزاد في مكة وتربيته المكية:

أ- أجداده وأسرته:

وفدت أسرة أبى الكلام آزاد على الهند من "هراة" بأفغانستان أيام الإمبراطور المغولي ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية في الهند سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م، واستقرت الأسرة في مدينة "أكرة" أولاً ثم انتقلت إلى دهلي وحظوا بالقرب من الأباطرة المغول أيام ازدهار دولتهم، فكان أحد أجداده "مولانا منور الدين" يشغل وظيفة ركن الدين وهى وظيفة يشرف منها على التعليم في الدولة. وحين أخذ شأن هذه الدولة في الاضمحلال بعد الإمبراطور "أورنجزيب" واستولى الإنجليز على كل شىء توفي جد مولانا آزاد لأبيه، وترك ابنه "خير الدين" والد آزاد صغيراً فكفله جده لأمه ورباه تربية دينية صوفية، ولكن الجدل لم يطق المقام في دهلي، وهو يرى أشلاء الدولة الإسلامية تتمزق، والإنجليز يتحكمون في كل شىء فيها فاستقر رأيه على

(١) عبد الله، عبد الرحمن بن صالح. تأريخ التعليم في مكة المكرمة. ص: ٣٠.

الهجرة منها بأسرته ومعه حفيده خير الدين إلى مكة ليقضي حياته بجوار المسجد الحرام، ولكنه وهو في بومباي قبل أن يستقل باخرته وافته المنية سنة ١٨٦٠م^(١).

كان مولانا خير الدين والد آزاد في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك، فواصل رحلته مع أسرته إلى مكة حيث استقر فيها، وبنى له داراً فيها وتزوج بنت أحد كبار علماء المدينة المنورة المعروفين وهو الشيخ محمد طاهر الوطري. وقد اضطلع مولانا خير الدين بمهمة جليلة كان القدر قد اختاره لها، وكان لها أثرها الحي على أهل مكة، وعلى حجاج بيت الله، إذ رأى عين زبيدة التي كانت تمد مكة بمياهها منذ أن أنشأتها السيدة زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد قد تهدمت وجف ماؤها وتعلقت قنواتها، فهب لإصلاحها، وأهاب بالمسلمين في الهند والبلاد العربية وتركيا أن يساهموا بأموالهم في هذا المشروع العظيم وجاءت التبرعات من كل مكان، وجمع منها نحو مليوني روبية استطاع بها أن يجدد العين وقنواتها، ويجري الماء إلى مكة وأهلها وقصاها، وكافأه السلطان عبد الحميد الثاني على هذا العمل فمنحه أرفع الأوسمة تقديراً لجهوده، وكان مولانا خير الدين عالماً جليلاً صوفياً متعبداً، له أتباع ومريدون في الهند وغيرها، وقد عاش قرير العين مطمئن البال متنقلاً بين مكة والهند والبلاد العربية وتركيا^(٢).

وكان خير الدين والد مولانا آزاد أديباً وفقهياً ترك مؤلفات بالعربية والفارسية والأردية، ويقول عنه آزاد: "كان والدي معروفاً في ربوع العالم الإسلامي، وطبع كتاباً في مصر باللغة العربية في عشر مجلدات"^(٣).

(١) أبو الكلام آزاد: مذكرات أبي الكلام آزاد (الهند تفوز بحريتها) ص: ٢، وعبد المنعم النمر: أبو الكلام

آزاد. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط ٢. القاهرة. ١٩٩٤م. ص: ٦١-٦٢.

(٢) عبد المنعم النمر: أبو الكلام آزاد. ص: ٦٢.

(٣) خليك أنجم: مولانا أبو الكلام آزاد: شخصيت اور كارنامه. اردو أكاديمي. دلهي. ١٩٨٢. ص: ١٦.

كان مولانا خير الدين عالماً وشاعراً وتخلص بـ "خيوري"، وترك مؤلفات منها: "الستة الضرورية في المعارف الخيورية"، وهو كتاب منظوم في قالب المثنوي، و"درج الدرر البهية في إيمان الآباء والأمهات المصطفوية"، و"أسباب السرور لأصحاب الخيور"، و"عقائد الفريقين" وصدر هذا الكتاب الأخير باللغات العربية والفارسية والأردية.

كانت والدته مولانا آزاد عربية من المدينة المنورة، وأبوه من الهند ولكنه صار عربياً حيث أقام في مكة ثلاثين سنة وقضى هذه الفترة الطويلة في التعبد وفي صقل لغته العربية^(١).

عاد خير الدين والد آزاد إلى كلكتا بأسرته عام ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م واستقر فيها بعد أن كسرت ساقه، وأشار عليه مريديه بالسفر إلى كلكتا للعلاج. يقول آزاد: "عاد والذي مع أسرتي إلى كلكتا في عام ١٨٩٠م وكان سبب عودته إلى الهند أنه عندما كان في جدة في إحدى المرات كسرت عظام ساقه ولم يجد هناك طبيباً يعالجه ويعيد عظامه إلى مكانها؛ فأشار عليه أصدقاؤه أنه يستطيع علاجه في كلكتا؛ لذا سافر الهند بهدف العلاج، وبعد أن تم علاجه أراد العودة ولكن أصدقاءه ومريديه أصروا على بقاءه وأجبروه على البقاء، وفي عام ١٨٩١م توفيت والدتي ووريت الثرى في كلكتا"^(٢).

ب- ميلاده وتربيته المكية:

في مكة وقبل عودته ولد لخير الدين ولد سماه "محيي الدين أحمد"، واسمه التاريخي فيروز بخت وتخلص بآزاد، وتكنى بأبي الكلام وكان يوقع باسم أحمد، وعندما عمت شهرته الآفاق سمي أبو الكلام^(٣).

(١) أبو الكلام آزاد: تذكرة. مرتبة مالك رام. ساهته أكاديمي. نتي طي. دوسري بار ١٩٨١. ص: ٢٨.

(٢) أبو الكلام آزاد: "The India wins freedom" وهي "مذكرات آزاد" ونشرت بالإنجليزية في دلهي في يناير ١٩٥٩م وترجم بعضها ونشر في مجلة ثقافة الهند باللغة العربية في أعداد متفرقة؛ بدأت بعدد سبتمبر ١٩٥٨م وانتهت بعدد يوليو سنة ١٩٦٢م. ص: ٢٠-٢١. أيضاً: مليح آبادي: آزاد كي كهاني خود آزاد كي زباني. حالي بيلشنك هاؤس. دلهي. بار أول. ١٩٥٨. ص: ١٠٩.

(٣) مليح آبادي: المرجع السابق. ص: ١٨٦-١٨٧.

ولد آزاد في ذي الحجة ١٣٠٥ هـ الموافق ١٨٨٨ م في محلة قدوة بباب السلام في مكة المكرمة^(١). يقول مولانا آزاد: "ولد المدعو بأبي الكلام، في ذي الحجة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٨ م من العدم إلى الحياة واتهم بتهمة الحياة، فالناس نيام وإذا ما ماتوا انتبهوا ودلهى موطن آبائي، وطيبة هى وطني الأصلي، ومولدي وطفولتي كانت في واد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام - أي مكة المكرمة زادها الله شرفاً وكرامة في محلة قدوة المتصلة بباب السلام"^(٢).

وقد نشأ آزاد وترعرع في مكة المكرمة، قضى طفولته الأولى بين ربوعها. وقد اختلف المؤرخون حول سنوات طفولته في مكة، لعل أصح الروايات تلك التي صدرت على لسانه، فقد تعلم آزاد العربية في طفولته، وكان يذهب وهو في الرابعة من عمره إلى الحرم المكي لتلقي دروسه الأولى يقول: كان الشيخ يبدأ يومه بقوله "يا فتاح" ثلاث مرات، ويستفتح بقوله "رب يسر ولا تعسر" ثم يبدأ في قراءة ألف باء وتعليمنا الحروف الأبجدية، وأنا أتذكر هذه الأحداث جيداً"^(٣) ومما سبق يتضح أن آزاد عاش في مكة حتى الرابعة من عمره وأن ما يتذكره من أحداث حدثت له في مكة لا يمكن أن يتذكرها طفل رضيع عمره عامان فقط كما أشار عدد من المصادر بذلك. يقول مولانا عبد الرزاق مليح آبادي: يقول مولانا آزاد: "المهمة أنني أتذكر مراراً أحداث الطفولة وحياتي الأولى وما زلت أتذكر جيداً عددًا من الأحداث المهمة وأنا في الرابعة من عمري، وأتذكر جيداً الاحتفال بذلك اليوم الذي بدأت فيه حفظ القرآن في الحرم الشريف، وكنت في الخامسة من العمر في ذلك الوقت عندما بدأ والدي هذا الاحتفال ومعه المرحوم الشيخ عبد الله مرداد، وقد كانت اللغة العربية هى لغة الحديث في بيتنا، ولم تكن نجيد الحديث بالأردية بشكل جيد، وكانت أختاي الكبرى

(١) مليح آبادي: المرجع السابق. ص: ٨٦.

(٢) أبو الكلام آزاد: تذكرة. ص: ٢٨.

(٣) مليح آبادي: المرجع السابق: ١٨٧-١٨٨.

والمتوسطة تحدثان العربية في أغلب الأوقات، وفي بداية طفولتي في مكة المكرمة كانوا يتحدثون الأردية في بيتنا ولكن الوالدة المرحومة كانت لا تحب الحديث بالأردية وقد ساعد ذلك بلا شك - في تعلمي العربية والإحساس بأنها لغتي الأم^(١).

وقد بدأ آزاد تعليمه في البيت وكانت خالته هي أستاذته الأولى التي قرأ عليها دروسه، يقول آزاد: "بدأت التعليم في البيت على يد خالتي وكانت تعرف القراءة والكتابة جيداً وكانت تتلو القرآن بصوت جميل، وقبل مغادرة مكة كنا قد انتهينا من حفظ القرآن وكنت قد بدأت الذهاب لقراءة القرآن في الحرم الشريف، وكان الشيخ حسن أكبر القراء في الحرم في ذلك الوقت، وكنت أتعلم القراءة من أبناء خالي محمد سعيد، ومحمد شفيع ومحمد مكي وكنا نذهب معاً في الصباح"^(٢).

وهكذا تعلم آزاد الفصاحة والبلاغة والخطابة والجميع يعلم أن والدته لم تكن عربية الأصل فحسب، بل وكانت من أسرة تميزت بالعلم والفضل وقد بدأ آزاد يتعلم الخطابة على يديها. يقول آزاد: "كانت الوالدة المرحومة متحدثة وفصيحة البيان، وأتذكر جيداً أنها كانت لديها قوة بيان غير عادية، وكانت نساء الأسر العربية من جميع أنحاء مكة يجتمعن في بيتنا في رمضان بعد أداء التراويح، والوالدة المرحومة تخطب فيهن بصوت مرتفع حتى وقت السحور، وكانت أحياناً تشرح لهن أحد الكتب، أو تقرأ قصة مفيدة، أو تتناول مسألة دينية"^(٣).

وكان المنزل الذي قضى فيه آزاد طفولته في مكة قريباً جداً من الحرم المكي فكان يسمع الأذان بوضوح ويرى أنوار الحرم ساطعة، يقول آزاد: "وفي ذلك الوقت

(١) مليح آبادي: المرجع السابق: ٢٢٢-٢٢٤. وآزاد: غبار خاطر: ١١٤-١١٦.

(٢) مليح آبادي: آزاد كي كهاني. ١٨٨-١٨٩ وشورش كاشميري: أبو الكلام آزاد. إشاعت أول. لاهور. ١٩٨٨ ص: ١٠٩.

(٣) حافظ محمد صديق: مولانا أبو الكلام آزاد. كراجي. ١٩٨٩. ص: ٨٦-٨٧ ومليح آبادي: المرجع السابق: ٣٢٥.

تم تعيين مؤذن على كل مئذنة من مآذن الحرم الشريف، وكان الشيخ حسن هو شيخ المؤذنين؛ وكان صاحب صوت عذب صراح، وكنت أتذكر جيداً أصوات "الترحيم" - (أي التواشيح والابتهالات) والأدعية التي كان يرددها بلحن خاص في النزاع الأخير من الليل؛ وذلك لأن بيتنا كان في الندوة بالقرب من دار السلام فكانت قناديل المآذن تترأى بوضوح من نوافذ الحجرات وأذان الفجر يسمع بصفاء^(١).

وبعد وصوله إلى كلكتا بدأ خير الدين والد آزاد يعلمه بنفسه ولم يرسله إلى المدارس؛ بل كان يستدعي له المدرسين في المنزل ويتولون تعليمه تحت رعايته وكانت تبدو عليه منذ نعومة أظافره علامات الذكاء والنبوغ ما جعله ينتهي من دراسته في وقت مبكر عن أقرانه وهو في السادسة عشرة من عمره - أي نحو سنة ١٩٠٤م.

يقول آزاد في مذكراته عن هذه الحقبة التي تلقي فيها تعليمه في كلكتا: "كان والدي من المؤمنين بالتقاليد القديمة، ولم يقل قط بالتعليم الغربي فلم يخطر بباله أن يدريني تدريباً حديثاً أو يعلمني على نمط جديد، فقد كان يعتقد أن التعليم الجديد سيقضي على العقيدة الدينية، ومن أجل ذلك اهتم بتعليمي وفق الطرق التقليدية المعهودة. وكان منهاج التعليم القديم السائد بين مسلمي الهند أن يتعلم الأطفال أولاً اللغتين العربية والفارسية، وعقب حصولهم على إلمام ما بهاتين اللغتين يتعلمون الفلسفة والحساب والفلك والجبر، وكل هذه العلوم باللغة العربية"^(٢).

وهكذا استقر المقام بآزاد في كلكتا وأكمل تعليمه فيها. وبدأ يطلع على ثقافة عصره واتسعت مداركه، ومنذ ذلك اليوم بدأ آزاد يهتم باليقظة الفكرية لمسلمي الهند ويتجه إلى الأصول الصحيحة للدين الإسلامي بعيداً عن التعصب والمذهبية، وحاول التقريب بين طوائف الهند المختلفة وتقرب من الهندوس من أجل صالح الهند وأبلى

(١) أبو الكلام آزاد. غبار خاطر. دوسري مرتبة. لاهور. ١٩٦٢. ص: ٢٦٥.

(٢) أبو الكلام آزاد: مذكرات آزاد. مجلة ثقافة الهند. عدد سبتمبر ١٩٥٨م. ص: ٢٤-٢٥.

بلاء حسنًا في الحركة الوطنية الهندية، وشارك في الكفاح ضد الإنجليز حتى نالت الهند استقلالها. وبعد الاستقلال ظل مولانا آزاد وزيرًا للتعليم في حكومة الهند من ١٥ يناير ١٩٤٧م، وحتى وفاته في ٢٢ يناير ١٩٥٨م، و ظل آزاد كذلك رئيسًا لحزب المؤتمر الهندي ثلاث دورات متتالية ودفن في الفضاء الممتد بين القلعة الحمراء ومسجد دلهي الجامع.

المحور الثاني - أثر تربية مكة على أبي الكلام آزاد:

كان لميلاد أبي الكلام آزاد في مكة المكرمة لأم عربية من أعرق عائلات مكة وبقائه فيها طفولته الأولى، وحفظه للقرآن في الحرم المكي - تأثير بالغ في تكوين الملكة اللغوية والفكرية لأبي الكلام آزاد فيها بعد؛ فعلى المستوي اللغوي صارت اللغة العربية التي ولد على أرضها وأول ما نطق بها لسانه هي لغته الأم التي تعلم النطق بها وتحدث بها أسرته خاصة أمه - حتى بعد أن عاد إلى الهند - فكان لهذا كله دور كبير في تكوين ملكة اللغة العربية والفصاحة عند مولانا آزاد فصار خطيبًا مفوهًا وكاتبًا بارعًا له لغته الخاصة التي ميزت أسلوبه الأردني عن غيره من أدباء عصره بحكم تأثره بالأساليب العربية في الخطابة والكتابة، وقد أثرى آزاد اللغة الأردية بالكلمات والمعاني والصور والأخيلة العربية التي دأب على استعمالها مرارًا في كتابته حتى أصبحت جزءًا من تكوين اللغة الأردية ومن نسيجها الصرفي والبلاغي.

أسلوب كتابة أبي الكلام آزاد باللغة العربية لا يبدو فيه أثر العجمة ولا تأثير البيئة الهندية والسبك الهندي، فجاءت كتاباته سلسلة رصينة وهذا ما سنراه عند الحديث عن الخطابات التي أرسلها لمحمد رشيد رضا المصري صاحب مجلة "المنار"، وافتتاحية بعض أعداد المجلات التي أصدرها وهي: "الهلال" و"البلاغ" و"الجامعة" التي كانت باللغة العربية، وترجمته لمعاني القرآن في "ترجمان القرآن" التي تعد دليلًا على تضلعه في اللغة العربية واطلاعه على كتب التفاسير العربية المختلفة

حتى صارت ترجمته من أفضل الترجمات الأردنية للقرآن الكريم في شبه القارة الهندية، أما على المستوى الفكري فقد اتسعت مداركه، و طرق قضايا جديدة لم يسبقه إليها أحد وصار في طليعة مفكري الهند المعاصرين.

أولا- مؤلفاته:

ويتجلى أثر تربية مكة في أبي الكلام آزاد من خلال مؤلفاته العلمية التي تأثر فيها بالبيئة العربية في مكة المكرمة من حيث الشكل - أي استعمال أسماء عربية لمؤلفاته الأردنية مثل: "تذكرة" و"غبار خاطر" و"مسئلة خلافت" و"ترجمان القرآن" و"حزب الله"، "اتحاد إسلام"، "هجر ووصال"، "أم الكتاب"، "إعلان حق"، "درس وفا"، "رسول عربي"، "فلسفة"، "الدين والسياسة" و"خطابات آزاد" و"مكاتيب آزاد"، و"أذكار آزاد" و"تصريحات آزاد" و"أفكار آزاد" و"دعوت عمل"، و"ذكري"، و"شهيد أعظم" و"حقيقة الحج" و"حقيقة الصيام" وغيرها.

وقد انعكست هذه التربية المكية على أبي الكلام آزاد؛ من حيث المضمون من خلال استخدامه لصيغ وتراكيب عربية جديدة في كتاباته لم تألفها اللغة الأردنية من قبله، ويفتح رسائله بـ "الصادق المكرم" إلى جانب استخدامه للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار والأقوال المأثورة والأمثال والحكم باللغة العربية.

لو قمنا بتحليل مضمون لكتابات أبي الكلام آزاد وخطاباته يمكن لنا ملاحظة هذا التأثير المكي على تربيته؛ ويمكننا تطبيق ذلك على كتابه "غبار خاطر" بوصفه نموذجاً يبدو فيه هذا الأثر بوضوح من خلال الآتي:

١ - استخدامه للآيات القرآنية والأحاديث النبوية وذكرها باللغة العربية، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات "غبار خاطر" من وجود آية قرآنية أو حديث نبوي ويصعب علينا حصرها في هذا البحث لأنها تحتاج إلى كتاب مستقل.

٢ - استعماله للأقوال المأثورة والأشعار العربية في "غبار خاطر" بكثرة وبشكل ملموس وفيما يلي نماذج منها..

أ - الأقوال المأثورة:

"وضع شيء في غير محله" - (ص: ٣٣)، و"وضع شيء في محله" - (ص: ٣٤)،
"على سبيل التوالي والتعاقب" - (ص: ٣٥)، و"لا تأس على مآفات" - (ص: ٥٥)، "كان
أول عهدي بها" - (ص: ٦٨)، و"لو كشف الغطاء لما ازدت يقيناً" - (ص: ١٢٣)، و"كنت
كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلفت الخلق" - (ص: ١٣٨)، و"من لم يذق لم يدرك" -
(ص: ١٤٢)، و"ولقد أحسن من قال" (ص: ١٤٣) و"يا مقلب القلوب يا محول
الأحوال" - (ص: ١٦١)، و"أخي يوسف صبيح وأنا أملح منه" - (ص: ١٦٨) وغيرها.

ب - الأشعار العربية:

تزول الجبال الراسيات وقلوبهم	عن الحب لا يخلو ولا يتزلزل
لقد لامني عند القبور على البكاء	رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال: أتبكي كل قبر رأيت	لقبر ثوى بين اللوي والدكادك
فقلت له: إن الشجا يبعث الشجا	فدعني فهذا كله قبر مالك

(الشمالي) - (ص: ٩).
(متمم بن نويرة) - (ص: ٢٠).

وعند الحديث عن ذكرياته في مكة؛ وكيف أنها ملكت عليه عقله وقلبه وتمكنت
منه ولم تدع مجالاً آخر لمؤثرات أخرى يقول متمثلاً قول الشعراء:
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
(عمر الخزامي) (ص: ٩٦)
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا
(قيس النجدي) - (ص: ١١٧)

وَاسْتَشْهَد أَبُو الْكَلَامِ بِأَشْعَارٍ عَرَبِيَّةٍ كَثِيرَةٍ فِي "غَبَارِ خَاطِرٍ" مِنْهَا:

وَجِبَالُ لَبْنَانَ وَكَيْفٌ يَقْطَعُهَا وَهِيَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ

(المتنبي) - (ص: ١٨٤)

فَقُلْتُ لَهَا: مَا أَذْنِبْتُ، قَالَتْ مَجِيئَةً: وَجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يَقَاسُ بِهِ ذَنْبٌ

(أوس بن حجر) - (ص: ١٨٩)

أَلَا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ مَا أَنَا فَاعِلٌ عَفَافٌ وَأَقْدَامُ حَزْمُونِائِلَ

(المعري) - (ص: ١٩٠)

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتِكَ الصَّبْرِ أَمَّا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرٌ

(أبو فراس الحمداني) - (ص: ١٩٠)

وَأَنْتَ عَبْدِي يَا زَمَانَ وَأَنْتَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْي أَنْ أَرَى لَكَ سَيِّدًا

(ابن سناء الملك) - (ص: ١٩٠)

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رَوَاةٍ قِصَائِنِي إِذَا قُلْتُ شَعْرًا أَصْبَحَ مَنْشِدًا

(المتنبي) - (ص: ١٩٤)

وَجِبَ فَإِنْ الْحُبَّ دَاعِيَةَ الْحُبِّ وَكَمْ مِنْ بَعِيدِ الدَّارِ مُسْتَوْجِبِ الْقُرْبِ

(عالية بنت المهدي) - (ص: ٢٢٦)

ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بِهِ الدَّهْرُ كُلُّهُ وَمَاهَنْ إِلَّا الْأَمْسُ وَالْيَوْمُ وَالْغَدُ

وَمَا الْقَمَرُ إِلَّا وَاحِدٌ غَيْرُ أَنَّهُ يَغِيبُ وَيَأْتِي بِالضِّيَاءِ الْمَجْدِدِ

(أبو العلاء المعري) - (ص: ٢٥٢)

وَمَتَى يَسَاعِدُنَا الْوَصَالُ وَدَهْرُنَا يَوْمَانِ يَوْمِ نَوَى وَيَوْمِ صَدُودِ

(البحري) - (ص: ٢٥٣)

سَارَتْ مَشْرِقَةً وَسَرَتْ مَغْرِبًا شَتَانِ بَيْنَ مَشْرِقٍ وَمَغْرِبَا

(الصاحب عباد) - (ص: ٢٨٧)

و استخدم آزاد كذلك عددًا كبيرًا من مصارع الشعر العربي؛ ليبين فكره أو يشرح قضية ما يقول:

لا تسأل عن المرء بل عن المصراع الثاني - صاحب بن عباد.

وللأرض من كأس الكرام المصراع الثاني - محمد الغزني. نصيب (نديمة ص: ١٠٩)

فإن ما تحذرين قد وقعا (المصراع الثاني - أوس بن حجر. نصيب ص: ١٩٨).

والأذن تعشق قبل العين - المصراع الثاني - بشار بن برد. أحيانًا (ججج ص: ٢٤٦).

(أحيانًا ص: ٢٦٨).

ثانيًا. إصدار آزاد للصحف العربية، وافتتاحياته العربية في صحفه الأردية:

بتأثير من تربيته المكية العربية اختار أبو الكلام آزاد أسماء عربية لجميع الصحف التي أصدرها، فأنشأ بالأردية مجلة شهرية هي: "المصباح" في مدينة كلكتا سنة ١٩٠١م، ثم أصدر مجلة "الندوة" في مدينة لكهنو، وفي أمرتر أسس صحيفة "الوكيل" نصف أسبوعية، ثم انتقل إلى كلكتا وأنشأ هناك صحيفة الهلال الأسبوعية سنة ١٣٣٠هـ، ثم قام بإنشاء صحيفة "البلاغ" ثم صحيفة "الإقدام"^(١).

كما أصدر آزاد مجلتين باللغة العربية هما: "الجامعة" التي صدرت في كلكتا عام ١٩٢٣م، ومجلة "ثقافة الهند" الصادرة في نيودلهي منذ عام ١٩٥٠م وحتى اليوم.

(أ) الصحف العربية:

أصدر أبو الكلام آزاد مجلتين عربيتين هما: "الجامعة" و "ثقافة الهند"؛ في سبيل توطيد العلاقات بين الهند وبلاد الحجاز وعلى رأسهما مكة المكرمة مسقط رأسه.

(١) انظر: أبو سليمان شاهجهان فوري: صحافة مولانا أبو الكلام آزاد. دلهي. ١٩٧٦م. ص: ٣٣.

أصدر آزاد مجلة "الجامعة" باللغة العربية من كلكتا في أول أبريل ١٩٢٣م وكان آزاد يهدف من إصدار هذه المجلة إلى تعريف العالم العربي بالكفاح الهندي في سبيل الحرية والاستقلال وطلب التأيد منهم، وكذلك تأييد الخلافة الإسلامية وكتب مولانا آزاد على غلاف المجلة: "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون".. "الجامعة" مجلة أذبية علمية اجتماعية تصدر مرتين في الشهر تدعو إلى الجامعة الإسلامية والشرقية تحت رعاية الأستاذ الشيخ أحمد المكني بأبي الكلام، إدارة المجلة مطبعة البلاغ - ٢٥ رين لين كلكتا الهند، المحرر والمدير المسئول: عبد الرازق اللكهنوي^(١).

وقد عزم آزاد على إصدار مجلة "الجامعة" باللغة العربية لتلعب دورًا مهمًا في تغيير الرأي العام ضد حاكم الحجاز آنذاك الشريف حسين بن علي الذي ثار، وتمرد على الخلافة العثمانية عام ١٩١٢ بتشجيع من الإنجليز وتربع على عرش بلاد الحجاز ومكة فازدادت سوءًا، وكان للشريف حسين دور كبير في اضمحلال الحياة في مكة المكرمة خاصة، فانزعج لذلك مسلمو الهند وعلى رأسهم أبو الكلام آزاد ونجحت المجلة قبل أن يغلقها الإنجليز في زلزلة عرش^(٢) الشريف حسين، وكتب آزاد في مجلة "الجامعة" مقالات لاذعة بأسلوب نقدي لحكومة الشريف حسين عندما أساء معاملته حجاج مسلمي الهند بصفة خاصة والحجاج بشكل عام، وكان لهذه الكتابات أثر بالغ في إثارة حمية مسلمي الهند ضد النظام الحاكم في بلاد الحجاز.

(١) مجلة الجامعة. العدد الأول. أبريل. ١٩٢٣م.

(٢) مليح آبادي: ذكر آزاد. بهلا أديشن. كلكتا. ١٩٦٠م. ص: ٢٩٧-٢٩٨.

أيضًا: عبد القوي دستوي: أبو الكلام آزاد. ساهتيه اكادمي. نئي دلي. ١٩٨٧م. ص: ٨٤.

وقد شن الشريف حسين بن علي حاكم الحجاز حملة على مجلة "الجامعة" لنهاضتها له في معظم أعدادها، ونشر الكثير ضدها في مجلته الحكومية "القبلة" وكان يستهزئ بأبي الكلام آزاد ويكتب اسمه "أبا الكلاب" بدلًا من "أبي الكلام". يقول الشيخ عبد الرزاق مليح آبادي مدير تحرير مجلة الجامعة:

"كانت مجلة "الجامعة" مجلة ثورية تتسم بالجرأة والأسلوب النقدي اللاذع لذلك كانت سببًا في هجوم كثير من المسلمين على الشريف حسين بن علي، ما أثار حميته ضد المجلة ونسي منصبه وبدأ يسبها في مجلته الحكومية "القبلة"؛ حيث كتب فيها مستهزئًا بأبي الكلام آزاد "أبو الكلاب" وكانت لغته ركيكة، وكنت قد سمعته يخطب في مكة المكرمة ففهمت من أسلوبه أن الكلمات التي نشرت في مجلة "القبلة" ضد "الجامعة" مما أملاه هو نفسه على كاتبه"^(١).

وقد هدف آزاد بهذه المجلة إلى نشر اللغة العربية وتطويرها في بلاد الهند، لأنها اللغة المقدسة للمسلمين في كل بقاع الأرض، كما أن حياتهم الاجتماعية والأخلاقية والدينية مرتبطة بهذه اللغة. وقامت هذه المجلة بدور كبير في إحياء العلوم الإسلامية وذلك عن طريق نشر المقالات الدينية والعلمية لعلماء ذلك العهد، كما قامت بدور مؤثر في إيقاظ المسلمين وتعريفهم بأمور دينهم، وأدت واجبها في إثارة حمية المسلمين بمسئوليتهم وواجباتهم السياسية على الرغم من أن عمرها لم يطل ولم يمتد الزمان بها كثيرًا؛ إذ توقفت في مارس عام ١٩٢٤ م بسبب سوء أوضاعها الاقتصادية وسقوط حكومة الشريف حسين بن علي في الحجاز؛ والذي كان السبب الأول في تأسيس هذه المجلة. تعتبر هذه المجلة نقطة مضيئة في تاريخ الصحافة العربية في الهند، ومصدرًا مهمًا للمعلومات المتعلقة بالأوضاع السياسية خلال عامي ١٩٢٣-١٩٢٤ م في كل من الهند والحجاز وتركيا^(٢).

(١) مليح آبادي: ذكر آزاد. ٢٩٩.

(٢) محمد أيوب تاج الدين الندوي: مولانا أبو الكلام آزاد وإسهامه في الصحافة العربية في الهند. مجلة ثقافة الهند مجلد: ٥٢. عدد: ٢. نيودلهي ٢٠٠١ م. ص: ٥٨-٦٢.

بعد استقلال الهند عام ١٩٤٧ م عين أبو الكلام آزاد وزيراً للمعارف في حكومة جواهر لال نهرو؛ فأدرك أهمية التبادل الثقافي والفوائد الجمة المترتبة عليه، لذا قام آزاد بتأسيس المجلس الهندي للروابط الثقافية في دلهي؛ كي تتبادل الهند من خلال العلاقات الثقافية والفكرية مع دول العالم الإسلامي خاصة الحجاز ومصر وتركيا وذلك في ٢١ أغسطس عام ١٩٤٩ م. رأس آزاد هذا المجلس وأنشأ مجلة "ثقافة الهند" لتكون مجلة علمية ثقافية تقوم بدور كبير في توطيد العلاقات مع الدول العربية، كما تلعب دوراً بارزاً في نشر اللغة العربية في الهند، وصدرت أربع مرات في السنة وبدأ في إصدارها في مارس عام ١٩٥٠ م. وعندما صدرت مجلة "ثقافة الهند" قال آزاد: "أرى أن المجلس (مجلس الهند للروابط الثقافية) ينبغي له أن ينشئ لنفسه داراً للكتب، ويفتح قاعة للمطالعة، ويستعد لإصدار مجلات ونشر مطبوعات مؤقتة أخرى"^(١).

وتهتم مجلة "ثقافة الهند" بحضارة الهند القديمة كانت أو حديثة، كما تولي الاهتمام بالثقافة التي تمثلها الهند ونشر مقالات في الأدب والسياسية والتاريخ وقد كان لهذه المجلة دور كبير في تثقيف الشعوب العربية والإسلامية بآثار الهند القديمة وفلسفتها ولغاتها وآدابها المتعددة ونفيس كُتُبها. كما أنها خير وسيلة لاطلاع العرب على الصلات الوطيدة بين الهند والجزيرة العربية قديماً وحديثاً^(٢). وعلاوة على الهنود قام بعض الكتاب والمفكرين العرب بكتابة مقالات تتعلق بالحضارة الهندية وبآدابها ولغاتها ونشرت على صفحاتها^(٣).

(١) مجلة ثقافة الهند. المجلد الأول. العدد الأول. ص: ٦-٧.

(٢) محمد أيوب تاج الدين الندوي: مولانا أبو الكلام آزاد وإسهامه في الصحافة العربية في الهند. ص: ٦٧ و٦٩.

(٣) لكتاب هذا البحث عشرة مقالات نشرت في مجلة ثقافة الهند بين أعوام ١٩٩٧ و٢٠٠٠؛ تناولت موضوعات خاصة بالأدب واللغة والحضارة الإسلامية والفكر السياسي الهندي.

ب - افتتاحيات آزاد العربية في صحفه الأردنية :

لقد ملك آزاد ناصية اللغة العربية في الكتابة والخطابة على حد سواء واعترف به الجميع عربًا وعجمًا، وكانت ترجمته الفورية لخطبة رشيد رضا من العربية للأردنية في "ندوة العلماء" في ١٦ أبريل ١٩١٢م؛ دليلًا على تمكنه من اللغة العربية - لغته الأم - التي لم يهجها عندما هاجر إلى كلكتا في الهند قادمًا من مكة. وزار آزاد مصر والشام وفلسطين وليبيا والمغرب والعراق والحجاز وأيد قضاياها؛ وقد أثرت الثقافة واللغة العربية في فكر آزاد وأسلوبه لذا نراه قد أثري اللغة الأردنية بالكثير من الألفاظ والمصطلحات العربية، ولهذا كان يستعمل حرف العطف (واو) بدلًا من حرف العطف الأردني، وتخلص من استعمال أداة التعريف "ال" التي يقع فيها أكثر الهنود، وبذلك كان آزاد أدبياً فذاً بالعربية وصاحب أسلوب مميز بها.

١ - مجلة "الهلal" :

في ١٣ يونيو ١٩١٢م الموافق ١٣٣٠ هـ؛ أصدر أبو الكلام آزاد العدد الأول من مجلته الشهيرة "الهلal" في كلكتا وكانت بداية جديدة لتأريخ الصحافة في الهند؛ لأنها كانت جديدة من حيث الإخراج الفني وطريقة التحرير عن باقي الصحف الأردنية؛ وتشبه مجلته مجلة "الهلal" لجورجي زيدان المصري، و"المنار" لرشيد رضا المصري، و"العروة" لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

يقول آزاد: " صممت أن تكون مجلتي أنيقة الطباعة قوية الدعوة والفكرة، وتطبع على الآلات الطابعة، لا على الطباعة الحجرية التقليدية، ولهذا أسست مطبعة جديدة لطبع الهلal... وصدر العدد الأول منها في شهر يونيو ١٩١٢م، وكان صدورها نقطة تحول في تأريخ الصحافة؛ إذ نالت في أقل وقت إقبالاً لم يسبق له نظير وأعجب بها الشعب أيما إعجاب لا من ناحية طباعتها الراقية، والأوراق الجيدة فحسب، بل وتأثروا بدروسها القوية التي نشرتها على صفحاتها، وخلقت الهلal بين

عامة المسلمين حركة ثورية، وبلغ من تلهفهم عليها أن اضطربنا خلال الأشهر الثلاثة الأولى إلى طبع الأعداد السابقة مرة ثانية، لرغبة كل مشترك في الاحتفاظ بمجلدها الكامل^(١).

ونذكر هنا الكلمة الافتتاحية لآزاد في العدد الأول من مجلة الهلال؛ باعتبارها نموذجاً على أسلوبه العربي وتأثره بتربيته المكية؛ فلا نلمح فيها أي أثر للعجمة، وكيف كان يخاطب آزاد جمهوره من المسلمين:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ الإسراء: ٨٠. وبعد : فقد رأيت رؤيا بعين اليقظة النابهة سنة ١٩٠٦م ومكثت سنين متتالية أبحث عن التعبير العملي لهذه الرؤيا، وكنت في غاية الاشتياق لتحقيق هذه البغية، وما زالت بين الآمال والعزائم: ولطالما هاجمني القنوط مهاجمة عنيفة، للتغلب على عزائمي، والنيل من إرادتي، كي تثبت بعزيمتي المستحكمة معتمداً على عون الله، واثقاً من تأييده إلى أن حان يوم أقول فيه "هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقاً" ولا يخفي على عالم السرائر، وعارف الخفايا، ما يحيط بي من المشاكل المضنية، وما يهددني من الآلام والأحزان، ما يكاد يذهب معه وعيي، ويحرمني طمأنينة البال، بيد أننا لا نجد مبرراً لترك حياتنا تسير معطلة، وتضيع سدى.

وما لنا نشتغل - كعادتنا - بالحديث عن الفشل والحياة وشكوى الدهر؟ ليت شعري... ما دعا الناس إلى الإيمان بأن الحياة لا بد أن تكون مقرونة بالطمأنينة والهدوء؟ وما يمنعنا أن نقوم في وجه النوائب والآلام؟ ألا ترون الغواصين يسبحون البحر إلى شاطئ السلام، بينما يرتعد الخائفون وجلّاً وهم راكبون في السفن، أو وافقون على الشواطئ.

(١) أبو الكلام آزاد: مذكرات حياتي. مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ١٩٥٨م. ص: ٣١.

ألا إن الحياة مقرونة بالشدائد، لا فكاك لها قبل الموت، فهلا روض الشاكون أنفسهم على احتمال المشاق ومكابدة الشدائد فعبروا الأبحر دون خوف أو خشية^(١).
ويقول أبو الكلام آزاد في افتتاحية أخرى لمجلة "الهلال":

﴿يَصْحَحِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَلِيُّ الْقَهَّارُ﴾^(٢)
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَعَتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٣٩ - ٤٠﴾ يا قوم اعلموا وأدركوا بأنه ما قدر أن يكون لا بد أن سيكون، وما من أحد يحول دون حدوثه، وسيأتي اليوم الذي تكون فيه الهند قد اجتازت آخر مراحل التطور السياسي، وسيسجل التاريخ تقدم البلاد وخطواتها في سبيل النهضة أفلا فكرتم فيما سيسجله-للتاريخ عنكم؟".

وقد واجهت مجلة الهلال صعوبات جمة في صدورها وضيق الإنجليز عليها الخناق بسبب مهاجمة آزاد لهموتأليب المسلمين عليهم، وفي النهاية أغلق الإنجليز "الهلال" وصادروا مطبعتها في يونيو ١٩١٥ م.

٢ - مجلة البلاغ:

لم تفتقر عزيزة آزاد ولم تلن قناعاته بإغلاق مجلة الهلال ومطاردة الإنجليز له، وبعد خمسة أشهر من إغلاق الهلال كان آزاد قد أنشأ مطبعة جديدة ليصدر مجلته "البلاغ"؛ كي تواصل مسيرة كفاحه ضد الإنجليز، وصدر العدد الأول من مجلة "البلاغ" في يوم الجمعة من المحرم سنة ١٣٣٤ هـ ١٢ نوفمبر ١٩١٥ م^(٣).

(١) الهلال. العدد الأول. ١٣ يونيو. ١٩١٢ م. (الافتتاحية).

(٢) للمزيد في هذا الموضوع ارجع إلى:

- عابد رضا بيدار: أبو الكلام آزاد. دهلي. ١٩٥٨ م. ص: ٨٤.

- جمشيد قمر: مولانا آزاد كإمام رانجي. أحوال وأثار. مكتبة جامعة ميتد. نئي دهلي. ١٩٩٤. ص: ٩ -

١٤ - عبد المنعم النمر: مولانا أبو الكلام آزاد، ١٠٩ - ١١١.

كتب آزاد مقالا افتتاحيا باللغة العربية في العدد الأول من مجلة "البلاغ" بعنوان "المسلمون بين الاجتهاد والتقليد"؛ يقول: "الحمد لله الذي رضى لنا الإسلام ديناً ونصب لنا الدلالة على صحته برهاناً مبيناً وأمرنا أن نستهديه صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد خاتم أنبيائه ورسله وصفوته من خلقه وحجته على عباده، وأمينه على وحيه الذي بعثه بتوحيد الألوهية ليحرر الخلق من رق العبودية، للعوالم السماوية والأرضية وبتوحيد الربوبية ليعتقهم من رق التقاليد الدينية..."^(١).

وهو مقال طويل ينبئك تمامًا عن مدى ثقافة آزاد وقدرته العلمية الدينية، وبراعته في عرض فكرته، والاستشهاد بالقرآن والحديث في الموضوع المناسب تمامًا، ونلمس فيه التلاقي الكبير بينه وبين السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا في الفكر، ومنهج الدعوة.

وقد لخص مولانا عبد الرزاق المليح آبادي - وهو من ألصق الناس بآزاد طول حياته - دعوة الهلال والبلاغ الاجتماعية والسياسية في عدة نطاق نذكر منها^(٢):

١ - على المسلم الهندي واجبان : واجب إسلامي، وواجب وطني، فالواجب الإسلامي يطالبهم ألا يحصروا نظرهم في حدود أرضهم، فإن جنسية الإسلام لا تتقيد بالوطن أو النسل، فعليهم أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة لإخوانهم المسلمين في العالم كله، أما الواجب الوطني فيطالبهم بالاتحاد مع أبناء وطنهم، وبذل نفوسهم وأموالهم في سبيل الحرية والاستقلال.

(١) البلاغ. العدد الأول. ١٢ نوفمبر ١٩١٥م (الافتتاحية).

(٢) مجلة ثقافة الهند: العدد التذكاري الخاص بأبي الكلام آزاد. مارس ويونيو ١٩٥٨م. وعبد المنعم النمر:

مولانا أبو الكلام آزاد. ص: ١١٢ - ١١٣.

٢ - اللغة العربية هي اللغة المحلية للمسلمين كافة، وأنه من العوامل الأساسية للانحطاط الديني للمسلمين هجران اللغة العربية وشيوع العجمة... فيجب عليكم إحياء اللغة العربية.

ثالثاً. رسائل آزاد العربية إلى السيد رشيد رضا:

التقي آزاد مع السيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) في مصر عام ١٩٠٨ م، وتأثر به وبدعوته الإصلاحية وظلت العلاقات قوية بينهم بعد أن عاد آزاد إلى الهند والتقى ثانية في الهند عام ١٩١٢ م، وحاول السير على نهجه الإصلاحي والسياسي في تحرير الهند من الاستعمار الإنجليزي وهذا ما يبدو جلياً في المراسلات التي ظلت قائمة بينهما حتى وفاة رشيد رضا.

وفيما يلي نذكر نماذج من هذه الرسائل؛ باعتبارها دليلاً على تضلع أبو الكلام آزاد في اللغة العربية وفي الثقافة الإسلامية، واهتمامه بشئون العالم الإسلامي خاصة مسألة الخلافة الإسلامية لذا كان شخصية عالمية.

وآزاد في خطابه الأول يعبر عن انزعاجه، لما ذكرته إحدى الصحف الهندية من رأي للسيد رشيد رضا يتصل بدولة الخلافة. يقول في رسالة للسيد رشيد رضا صادرة من كلكتا في الهند، في المحرم سنة ١٣٣١ هـ/ ديسمبر سنة ١٩١٢ م:

"الفاضل الجليل والشيخ النبيل

سلام عليكم طبتم، ودمتم فوق مارمتم. وبعد:

فإنه غير غارب عنكم ما لحضرتكم من المكانة في فؤادي. وما ذلك إلا لأني أرى أنكم تخدمون الإسلام والمسلمين، خدمة لا تشوبها صوالح الشخصية والجنسية، لأجل ذلك كلما سمعت كلمة سوء فيكم، أجدني مدفوعاً إلى ردها في نحر قائلها، ولقد كتبت بعض الجرائد الهندية، بأن لكم يداً في الحركة اللا مركزية الحديثة (يريد انفصال بعض البلاد العربية عن حكومة الخلافة) وما لبث هذا النبأ أن ذاع في طول

الهند وعرضه، وطفق الناس يتكلمون في هذا الباب، بين مصدق وآخر مكذب وثالث مراتب. أما أنا فمن الحيارى لا أدري ماذا أقول؟ لأنني كلما أذكر نعيكم على محمد على باشا، إنه وإن نفع من وجوه شتى، فإنه فارق المركز (يريد الخلافة)، وأضر بمصر والدولة العثمانية كليهما. لا أرى لهذا النبأ نصيباً من الصحة؛ لأن اللامركزية مما صنع محمد على باشا، وكلما أصرف النظر عن هذا النعي، وأقرأ ما نشرته الجريدة لا أجد سبيلاً لإنكاره.

إنكم نصبتم أنفسكم للإصلاح، ومعلوم أن الإصلاح في أي شأن من شئون الأمة لا يرجى فوزه إلا بالنهاذج، وأن النماذج لا تجدي نفعاً، ما لم تكن الأمة حسنة الظن بها، وقد قال الله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ المائدة: ٢ ومن معاونة البر درء الريب عن البار، فنكتب إليكم الأسئلة الآتية راجين منكم جواباً شافياً، كي ننشرها في الهند، ونبرئ ساحتكم - المخلص أبو الكلام الدهلوي".

ونلاحظ في هذه الرسالة لغة أبو الكلام آزاد الرصينة والفصيحة، ومقارعة الحجة والمنطق وكذلك خوفه على الخلافة واهتمامه بقضايا المسلمين في كل مكان. ولقد نال آزاد في الهند المنزلة نفسها التي نالها سيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده في حركة الإصلاح الديني والاجتماعي في الهند، وكانت زيارة مولانا آزاد لمصر لها تأثير كبير في أفكاره الإصلاحية.

لقد كان آزاد في مقدمة الزعماء والقادة الذين أبلوا بلاء حسناً في خدمة الخلافة العثمانية ومساندتها، ودعوة المسلمين بقلمه ولسانه إلى شد أزرها والوقوف بجانبها وإعلان الثورة على الإنجليز المستعمرين، ما حملها على اضطهاده وإغلاق مجلاته ومصادرة مطبعته وسجنه عدة مرات، وكان آزاد يستعمل موهبته الخطابية وروحه الإسلامية المتأججة ليثير مسلمي الهند ويعبئهم لينهضوا لمديد المساعدة للخليفة، فخرجت المساعدات العينية والمالية إلى طرابلس وإلى تركيا من الهند ولم يكن المسلمون فيها يملكون غير ذلك^(١).

(١) عبد المنعم النمر: أبو الكلام آزاد. ص: ٤٥٣.

وكتب آزاد كتابًا باللغة الأردية عن الخلافة الإسلامية، ذكر فيه رأيه ورأي الإسلام في هذه المسألة، وهذا الكتاب بعنوان "مسئلة خلافت وجزيرة عرب" وقام عبد الرزاق مليح آبادي بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، ونشر في مجلة "المنار" في القاهرة^(١). ويرى شورش كاشميري أن هذا الكتاب كان الخطبة الافتتاحية لمؤتمر الخلافة الذي عقد في بروان شل في البنغال^(٢).

وقد بدأ آزاد بحثه عن الخلافة بتأصيل لمصطلح الخلافة، المصطلح اللغوي والمصطلح العام ورأي القرآن في هذا المصطلح وفكرة الاستخلاف كما جاءت في القرآن والسنة النبوية المطهرة، ثم تحدث عن الخلافة النبوية الخاصة والخلافة الملكية، وعهد الاجتماع والاتلاف ودور التشتت والانتشار واجتماع القوي والمناصب وأهمية طاعة الخليفة والالتزام برأي الجماعة وأولي الأمر، ثم عقد فصلًا عن شروط الإمامة والخلافة، وأيد ذلك بنصوص من السنة وإجماع الصحابة وجمهور الفقهاء وإجماع أهل السنة والشيعة وتحدث عن واقعة الإمام الحسين وفي نهاية بحثه تناول شرط القرشية في الخلافة الإسلامية^(٣).

بعد سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا عام ١٩٢٢ م؛ اتجهت أنظار مسلمي الهند إلى الجزيرة العربية وأيدوا جميعًا وبايعوا الملك عبد العزيز خليفة للمسلمين، وتأسست جمعية الخلافة في الهند وساهم أبو الكلام آزاد في تأسيسها، وحضر وفد جمعية الخلافة برئاسة سيد سليمان الندوي، وقابل الوفد المغفور له الملك عبد العزيز ابن سعود - رحمه الله - في مكة وعرضوا عليه أفكارهم وبايعوه للخلافة^(٤).

(١) جلال السعيد الحفناوي: مولانا أبو الكلام آزاد والعرب في ضوء مسألة الخلافة. مجلة ثقافة الهند. المجلد: ٥. العدد: ٤. ١٩٩٩ م. ص: ٥١-٥٢.

(٢) شورش كاشميري: أبو الكلام آزاد. أشاعت أول. لاهور. ١٩٨٨ م. ص: ٣٦٧.

(٣) أبو الكلام آزاد: وجزيرة عرب. كلكتا. ١٩٢٠ م. ص: ١٠٤/٨٩.

(٤) سيد سردار محمد حسني: سوانح سلطان بن سعود والي حجاز ونجد وملحقاتها. جالندهر. الهند ١٩٣٦. ص: ١٦٨. وقام كاتب البحث بترجمة هذا الكتاب بعنوان: سيرة الملك عبد العزيز بن سعود. تحت النشر. دار الملك عبد العزيز بن سعود. الرياض.

رابعاً: أبو الكلام آزاد الزعيم والقائد السياسي

لقد أهلت - الحياة في مكة أبا الكلام آزاد ليكون زعيماً وقائداً سياسياً، فصار من زعماء حركة تحرير الهند من الاستعمار البريطاني، وله دور بارز في تأريخ الهند السياسي، وهو شخصية نادرة في مسيرة تأريخ المسلمين في الهند، وحين كان يعالج أمراً من أمور السياسة الوطنية كان يعالجه بالعقلية المتحررة البصيرة التي كان يعالج بها قضايا الدين، يساعده على ذلك إلمام واسع بالقضايا الوطنية والحركات التحررية في البلاد الأخرى والأدوار التي مرت بها، حتى أصبح بذلك كله إماماً في الدين، وإماماً في السياسة، أو صاحب الإمامتين، وإن كانت إمامته في الدين سابقة على إمامته في السياسة، ولقد انتهى به الأمر أخيراً إلى أنه هو الذي كان يتولى عن الهند أمر المفاوضات المعقدة في شأن منح الهند استقلالها مع الإنجليزى "كريسموننتاتن"

أبو الكلام آزاد - باعتباره سياسياً - لا يقل شأنًا عن غاندي بل ويفوقه في إدارة الدفة السياسية لبلاده بحكمة ولباقة وفهم لمقتضيات الكفاح، ونهرو يعتبر من تلامذته في السياسة، ومن كانوا يتمنون في مطلع شبابه أن يروه ويجلسوا معه حتى إذا تولى رئاسة الوزارة كان لا يقطع برأي دون استشارته^(١).

ويقول آزاد عن نفسه: "سواء كان المجال مجال الأدب أو الدين، سواء كان الميدان ميدان السياسة أو الأفكار، فقد سافر توحدي في كل المجالات حتى تركت الزمن خلفي، ولما نظرت إلى الوراء لم أر إلا آثار خطواتي وتراب أقدامي" ثم يقول: "فتر عزمي على الاشتغال بالسياسة بعد عودتي للهند. وانتهيت إلى ضرورة تربية الرأي العام بإصدار مجلة"^(٢).

(١) عبد المنعم النمر: أبو الكلام آزاد. ص: ٦٠.

(٢) عبد المنعم النمر: أبو الكلام آزاد. ص: ٩٢.

كان آزاد يعتبر السياسة جزءاً من واجبه الديني نحو أمته ووطنه، ويرى أن الدين والسياسة يكملان بعضهما بعضاً. يقول آزاد ردّاً على بعض المعارضين عليه بأنه يخلط بين السياسة والدين: "إنك تقول إن علينا أن نفرق بين الأفكار السياسية والدين، لكننا إذا فرقنا بينهما فماذا يبقى لنا؟ إننا لم نتعلم السياسة إلا بالدين؛ فالدين هو الذي خلقها فكيف نفرق بينه وبينها ونحن نعتقد أن كل فكرة مأخوذة من غير القرآن كفر صريح، والسياسة إن هي إلا فكرة، ومع الأسف إنك لم تعرف الإسلام في عظمته، وما قدروا الله حق قدره، إنه ليس هناك ما هو أدعى للخرق والمهانة من بأن يحني المسلمون رءوسهم أمام أفكار غيرهم السياسية.. إن الإسلام لا يسمح لهم بأن يكونوا ذليلاً لغيرهم في أفكارهم بل عليهم أن يدعوا غيرهم إلى مشاركتهم واتباعهم"^(١).

لقد صدر هذا الرأي من آزاد عن فهم كامل لحقيقة الإسلام والقيم التي أتى بها وأنه لا يوجد تعارض بين الدين والسياسة. يقول همايون كبير: "كنت أظن أن مولانا آزاد عالم من كبار علماء الدين - كما ظنه كثيرون غيري. ولا يعرف من السياسة وحل المشكلات على المنهج الحديث إلا قليلاً، ولكنني دهشت حينما عرفت أن معالجته للكثير من القضايا السياسية كانت معالجة علمية دقيقة، وأحسن من معالجة كثير من السادة الهنود الذين تلقوا علومًا حديثة"^(٢).

كان آزاد من هؤلاء الزعماء الذين عملوا في صمت من أجل تحرير الهند من المستعمر الإنجليزي، وكان متمسكاً بالبقاء في الهند - على عكس محمد علي جناح رئيس حزب الرابطة الإسلامية - وقد لمع نجم آزاد في السياسة الهندية، وكان صنواً لغاندي وانتخب رئيساً لحزب المؤتمر الوطني الهندي لثلاث دورات منذ عام

(١) مقبول أحمد الهندي: أبو الكلام آزاد وآراؤه الدينية، ورسالة ماجستير مخطوطة. كلية أصول الدين. جامعة الأزهر. القاهرة. ص: ١٥٨.

(٢) همايون كبير: آزاد كما عرفته. مقال نشر في العدد الخاص عن آزاد. ثقافة الهند. مارس ويونيو ١٩٥٨ م.

١٩٣٩ وحتى ١٩٤٥ م وهى الفترة التي شهدت ذروة النضال التي تلاها استقلال الهند عام ١٩٤٧ م، وظل وزيراً للتعليم والثقافة منذ تحرير الهند حتى وفاته في ١٩٥٨ م.

إن الأفكار السياسية مثل: عدم التعاون، أو العصيان المدني والمقاومة السلبية؛ والتي كانت حجر الزاوية في الفكر السياسي لغاندي وأساس حركته لتحرير الهند من الإنجليز، واستمرت منذ عام ١٩٢١ حتى استقلال الهند في عام ١٩٤٧ م، لم تكن جديدة لأنها أفكار سبق أن نادى بها زعماء المسلمين وعلى رأسهم آزاد، ونفذها زعماء المسلمين وعلى هذا فقد ظلم التاريخ الأفكار السياسية لأزاد والمفكرين المسلمين ودورهم في الفكر السياسي الهندي؛ رغم أن فكرة المقاومة السلبية التي أحدثت جلبة كبيرة في الفكر السياسي في آسيا هي فكرة إسلامية^(١).

في الوقت الذي كان فيه غاندي يحبو على مسرح السياسة في الهند ويدعو مواطنيه لمساعدة الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية؛ كان آزاد يدعو إلى مقاطعة الإنجليز وعدم التعاون معهم لأن الدين الإسلامي يدعو إلى عدم التعاون مع العدو. لقد كان آزاد يريد من حركة عدم التعاون طرد الإنجليز من الهند نهائياً والظفر بحرية البلاد كاملة، وأخذ آزاد يدعو الناس في كل مكان وبكل أسلوب وفي كل جماعة أو حزب إلى عدم التعاون مع الإنجليز، ونتيجة لهذا النشاط السياسي المكثف الذي قام به آزاد لنشر فكرته في عدم التعاون مع الإنجليز ألقى القبض عليه في ١٠ ديسمبر ١٩٢١ م؛ وقدم للمحاكمة بتهمة إلقاء الخطب التي تثير المشاعر، وتحريض الشعب على مقاطعة الحكومة وعدم التعاون معها^(٢).

(١) جلال السعيد الحفناوي: المقاومة السلبية: اللا عنف وعدم التعاون بين غاندي وآزاد. مقال في (الأفكار السياسية الآسيوية في القرن العشرين) مركز الدراسات الآسيوية. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. جامعة القاهرة. ٢٠٠١ م. ص: ٢٥٢. أيضاً: مجلة ثقافة الهند. مجلد ٥١. عدد: ١. نيودلهي. ٢٠٠٠ م.

(٢) جلال السعيد الحفناوي: المقاومة السلبية: اللا عنف وعدم التعاون بين غاندي وآزاد. ص: ٢٦٤ و٢٦٦-٢٦٧.

لقد نجح آزاد الزعيم والمفكر السياسي ورئيس حزب المؤتمر الوطني الهندي الذي يضم أغلبية هندوسية في قيادة الحزب في أصعب مراحلها. يقول: "كانت مهمتي بصفتي رئيس الحزب أن أقود الهند إلى المعسكر الديمقراطي، بشرط أن تنال حريتها، ولا مرء في أن قضية الديمقراطية كانت مما يعني بها الهنود ويطمحون إليها، ولم تكن في طريقنا عقبة إلا غاندي فقد نظر إلى القضية غير نظرتنا، وكانت القضية لديه، قضية اللا عنف لا قضية حرية الهند، وأما أنا فقد صرحت علنًا بأن حزب المؤتمر الوطني ليس منظمة مسالمة وإنما هو منظمة مهمتها السعي لنيل الهند لحريتها، ونظرًا إلى هذا، فإنني أرى أن المسالمة التي يثيرها غاندي لا تلائم الحالة الراهنة ولا علاقة لها بالحقيقة الواقعة، كما أنني لم أتمكن من إرغام نفسي على موافقة غاندي.

إذ إن اللا عنف في رأيي مسألة سياسية محضة، لا عقيدة من العقائد الدينية - كما يراها غاندي - ولم أشك لحظة في أن من الجائز للهنود أن يفزعوا للسلاح إن عجزوا عن كل تدبير وتفاهم متبادل"^(١).

برهنت الأحداث على أن آزاد كان بعيد النظر، وتولى المفاوضات باسم الهند حتى ظفرت باستقلالها سنة ١٩٤٧ وظل رئيسًا للحزب بعد الاستقلال حتى سنة ١٩٥٠ م.

(١) جلال السعيد الحفناوي: المرجع السابق. ص: ٢٧١-٢٧٢. أيضًا مذكرات آزاد. ثقافة الهند. عدد يوليو ١٩٥٩ م وعبد المنعم النمر. كفاح المسلمين في تحرير الهند. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٠. ص: ٩٤.

تصدير

بقلم: محمد أجمل خان

سكرتير مولانا أبو الكلام آزاد

لقد ظل تاريخ وقائع الملوك غير مكتوب

والأسطورة التي قالها نظيري صارت كتابًا

كل هذه المجموعة من الخطابات كانت قد كتبت بقلم مولانا أبو الكلام آزاد إلى النواب^(١) (الأمير) صدر يار جنج مولانا حبيب الرحمن خان شيرواني حاكم "بهيكم بور" من أعمال مركز "على جره"، ولأنه لم يكن مسموحًا لمولانا آزاد بمراسلة الأصدقاء في أيام اعتقاله في قلعة أحمد نجر ولم يكن بمقدور مولانا آزاد تسريب أي رسالة خارج السجن؛ لهذا فإن هذه الرسائل كتبت من حين لآخر وجمعها في ملف، وعندما أطلق سراحه في ١٥ يوليو سنة ١٩٤٥ م، عرفت هذه الخطابات طريقها إلى المرسل إليه.

كانت علاقة صداقة مولانا آزاد مع مولانا حبيب الرحمن علاقة موهلة في القدم، وقد أخبرني مولانا آزاد نفسه ذات مرة أنه التقى مع مولانا حبيب الرحمن للمرة الأولى في سنة ١٩٠٦ م، وقد انقضى على هذه العلاقة من المحبة والإخلاص نحو أربعين عامًا، ولم يستطع مرور أكثر من قرن يقلل من نضارة هذه العلاقة ونضجها، وهذه الصداقة ينطبق عليها هذا القول :

نزول الجبال الراسيات وقلوبهم
عن الحب لا يخلو ولا يتزلزل

(الثعلبي)

(١) "نواب" كلمة أردية تعني (أمير) مسلم وتقابلها كلمة (راجا) بمعنى أمير الهندوس عند الهندوس وفي اللغة الهندية. (المترجم)

ولا غرو فإن هذه العلاقة من المحبة والإخلاص مقتصرة على التواؤم العلمي والذوق الأدبي ولا علاقة لها بالعقائد والأعمال السياسية، ولمولانا نهج آخر في ميدان السياسة لا يشاركه فيه السيد النواب.

وحياة مولانا آزاد حياة مختلفة وذات جوانب متشعبة ومتضادة، فهو مؤلف وخطيب، ومفكر، وفيلسوف، وأديب وفي الوقت نفسه منظر وزعيم سياسي ويجتمع لديه التبحر في العلوم الدينية والعلوم العقلية والذوق الفلسفي، وقلما اجتمع الذوقان العلمي والأدبي في عقل واحد، وتقع حياته العلمية والفكرية بعيدة عن النشاط السياسي، ولا تستطيع قدم واحدة أن تطأ كلا الميدانين، ولكن حياة مولانا آزاد جامعة لكل المجالات المختلفة والمتضادة وكأنه جمع أكثر من حياة في حياة واحدة:

لقد ظل تاريخ وقائع الملوك غير مكتوب

والأسطورة التي قالها نظيري صارت كتابًا

هو بذاته هيئة مكتملة .

وفي هذه الحالة نخرج بنتيجة طبيعية مؤداها أن دائرة علاقته ليست لها حدود؛ فقد كان متضلعا في العلوم الدينية، ومواظبا على مجالس الشعر والأدب، ومدركا لدقائق العلوم والفلسفة، وفارسا في ميدان المعركة، وداهية في مجال السياسة وكانت شخصيته المثل الأعلى لهم جميعا، وكان الجميع يستفيد من هذه المجموعة من الفضل والكمال بقدر استعداده وشجاعته.

أنت نخل حلو الثمرة بل أنت الروضة والخميلة

الكل انفصل عن نفسه واتصل بك

(نظيري)

لا شك أن دائرة مردييه واسعة وعالمية إلى هذا القدر، في حين أن حلقة أصدقائه محدودة.

فالشخص الذي ليس سريع الانفصال، هو قديم الانصال

(نظري)

والذين شملتهم صداقة مولانا آزاد هم سعداء الحظ وهم في تصوري قلة، وكانت العلاقة التي تربطه بهم هي اشتراكهم في العلم والذوق واتفاقهم في الميول والطباع، وكان السيد النواب صدريارجنج من بين تلك الشخصيات الفذة .

ويعتبر السيد النواب من مآثر حلقات علماء الهند المسلمين؛ وقد مر على ذلك العهد نحو ثلاثين أو أربعين سنة من اليوم، وكان ذلك الوقت هو بداية الحياة العلمية لمولانا آزاد، وكان في ذلك الوقت يصغر جميع العلماء والأدباء في العمر، ولم يكن عمره يتجاوز السابعة عشرة أو الثامنة عشرة سنة ولكن كان محترما ومجلا في نظر الجميع بسبب جدارته العلمية المحيرة للعقول وذكائه الوقاد، وكان معاصروه يعتبرونه صديقا لهم، وكان من نواب محسن الملك، ونواب وقار الملك، خليفة محمد حسين (بنال)، والسيد الطاف حسين حالي ومولانا شبلي النعماني، والدكتور نذير أحمد، وذكاء الله، وحبیب محمد أجمل خان وغيرهم جميعا تربطهم به علاقة صداقة وصحبة علمية وأدبية وقد تعرف على سيد نواب صدريارجنج في مجالس ذلك العهد .

لقد خيمت أحداث الحياة السياسية مولانا آزاد على جميع الاعتبارات الأخرى، وقد عمل مولانا نفسه على الفصل التام بين علاقته العلمية والأدبية وبين حياته السياسية، وكذلك مع أصدقائه الذين يرتبط بهم بارتباط التذوق العلمي والأدبي، وكان دائما ما يجعل علاقته بمعزل عن حياته السياسية، وهكذا لا تستطيع حياته السياسية أن تحيم على علاقته الأخرى، وعندما كان يلتقي مع هؤلاء الأصدقاء أحيانا أو يرأسلهم فإنه لا يتطرق مطلقا إلى أي أفكار أو أعمال السياسية، ولو استمع رجل غريب إلى أحاديثه؛ في ذلك الوقت يعتقد أن ذلك الشخص ليس له أي علاقة بعالم

السياسية بل إنه بعيد عنها تماما ولا يعرف أي مجالس سوى العلم والأدب، وتعرض مولانا ذات مرة لهذا الأمر وسئل عنه فقال: إني أرغب في تحديد علاقتي بشخص ما من خلال زاوية واحدة فقط، ولا أريد أن ألوئها أو أعكر صفوها؛ ولهذا لم يتوقع قط من هؤلاء الأصدقاء أن يشاركوه أعمال حياته السياسية ومصائبها، ولا أن يتمنى أن يتفق معه في أفكاره وأعماله السياسية ويترك لكل شخص ما يتمناه ويفضله هو نفسه في أمور السياسية، ولهذا فإنه يربط به السنوات في علاقة علمية دينية وأدبية ولا يذكر لك أي شيء عن الأحداث السياسية وكأنه يجهل هذا العالم تماما.

وفي أوقات كثيرة؛ كان طوفان الأحداث يطغى على حياته السياسية فلا يعلم أحد ما يواجهه من أحداث بعد ساعة واحدة أو يوم واحد، وربما يواجه مرحلة الاعتقال، ومن الممكن أن يتعرض للنفي خارج الوطن أو يحدث ما هو أشد خطرا من ذلك، ولكنه فجأة وفي معترك هذه الأحداث يخطر على باله صديق يشاركه ميوله فيتناسى للخطاب كل ما يحدث له، ويتجه إليه بكل جوارحه وينهمك فيه ويتعاشى معه وكأن حياته لم تستغل يوما بأي حادث خطير؛ عندئذ يستبدل مذاق الهم السياسي الرتيب والممل ويثير أي موضوع آخر يبعده آلاف الأميال عن ميادين الحياة السياسية فيتشاغل عن ذلك بالبحث في أي موضوع في العلم والفن، أو يبحث النظر في أي مسألة فلسفية أو أي نظرية جديدة في علم الطبيعية أو أي واردة في النصوص والإشراق، أو الشر والأدب، أو حضور مجالس الشعر والشعراء . خلاصة القول كان عقله يستوعب كل موضوع ما عدا السياسة، فيستطيع أن يتطرق إلى أي موضوع كان، ومن يراه في ذلك الوقت يراه في حالة صفاء ذهن، لسان حاله يردد هذا البيت لحافظ :

وأطرح جانباً شباك "بهرام"، وأرفع جام "جمشيد"^(١)

فإنني طوفت في هذه الصحراء فلم أعثر على بهرام ولم أجد حمر وحشه^(٢)

(١) يقصد به بهرام گور الملك الساساني الذي اشتهر بصيد حمر الوحش، وأما جمشيد فمن الدولة البشندادية وقد اشتهر بالشراب. (المترجم).

(٢) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، طهران ، مهر أنديش ، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص: ٢٠٠ .

كان مولانا يعبر عن هذه الحالة بكلمة (تحميض)، وتطلق هذه الكلمة باللغة العربية بمعنى (تغيير مذاق الفم) فيقولون: (حمضوا مجالسكم) أي (بدلوا مذاق مجالسكم) ويقول مولانا: لو لم تسنح لي الفرصة لهذا (التحميض) من آن لآخر؛ فإن عقلي يتعطل بعد أن تنهك قواه بالأعباء المتواصلة والموضوعات الجافة غير الممتعة ولهذا فإن هذا التحميض يهئ لي أسباب الراحة والنشاط العقلي ويجدد الفكرة مرة أخرى.

ويحدث أحيانا أن يحضر إليه صديق يتفق معه في الرأي في خضم موسم الطوفان السياسي؛ فيغتتم فرصة لتغيير مذاقة أعمالهم بالصحبة والمجالسة بدلا من التأليف والتفكير فيخلق معه خارج الدنيا ويصلان معا بهذا التحول الثوري إلى عالم آخر، وعلى الفور ينادي خادمه الخاص عبد الله ويطلب منه أن يحضر شايًا وكان هذا إيذانا بأن وقت الشاي الخاص بذوقه ومزاجه قد حان، ومن ثم يبدأ مجالس الشعر والمناقشات في العلم والأدب، وتبدأ دوران فنجاين الشاي الصغيرة وفيها أجود أنواع الشاي الصيني والياسمين الأبيض:

إن التاج الحاصل من معمل "الكون والمكان" جميعه ليس شيئاً
فأحضر إلى الخمر ، فمتاع العلم بأجمعه ليس شيئاً^(١)

(حافظ)

وتتغلب عليه انفعالاته الطبيعية فيتغير حاله فجأة من حال إلى حال فيكتسب قدرة غير طبيعية هذا، الأمر في الحقيقة مثير للحيرة ويمكن للذين تتاح لهم الفرصة لرؤية هذا التحول الثوري بأعينهم فقط أن يقدرُوا هذا الأمر ويلتمسوه، وقد سنحت لي الفرصة لرؤية هذا الأمر منذ ثماني سنوات.

وينحدر نواب صدر يار جنج من أسرة حاكمة، ووجهة نظره في الشئون السياسية للبلاد هي نفسها وجهة نظر الطبقة العليا الحاكمة للبلاد عمومًا - أي إن

(١) الشواري، إبراهيم أمين : ديوان حافظ الشيرازي ص: ٤١. (المترجم)

يكون بمعزل عن ميادين الصراع السياسي ويقنع بالراحة والسكون، وكان مولانا آزاد على العكس من هذا فقد كانت حياته بأسرها حروباً سياسية ومناورات سياسية وكفاح ومعارك على هذه العلاقة، ورغم هذا الاختلاف بل والتضاد فإنه لم يلق بأثره على هذه العلاقة الفريدة ولو للحظة واحدة، فلم يحدث قط أن أشدّار مولانا إلى أي أمور سياسية، كما لم يتناول السيد النواب من جانبه أي ذكر لها، ولأن علاقتهما مبنية على المحبة الشخصية والإخلاص، وعلاقة شراكة في تذوق العلم والأدب، ودائما ما تنحصر في هذه الدائرة وحسب؛ ولهذا عندما يكتب خطاباً في قلعة أحمد نجر بتاريخ ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٢م فإنه يشير إلى الأحداث السياسية بقوله : "يجب ألا أثير هذه القصة هنا لأن مجلسنا لم يعقد من أجل سرد هذه القصة .

لا تسألنا إلا عن حكاية الحب والوفاء

(حافظ)

"فالكلام في دكاني ليس كله من جنس واحد، ولكن عندما أستخرج لكم منه شيئاً فإنني أغربله بالغربال على سبيل الاحتياط حتى لا يبقى به أي شائبة سياسية".

وفي ١٥ يونيو سنة ١٩٤٥م أطلق سراح مولانا من السجن بعد ثلاث سنوات، وكان عندما أطلق سراحه قد نقص وزنه أربع وأربعين كيلو جراماً وتدهورت صحته، ولكنه بعد الإفراج وصل إلى شملة على الفور انهمك في أعمال مؤتمر شملة وكان ضيفاً على (ريجل لاج) حاكم شملة بدلا من سجن بانجورا أو قلعة أحمد نجر، لكنه ظل هنا أيضاً منشغلاً بالأعمال الاعتيادية حتى الساعة الرابعة صباحاً، وفي صباح أحد الأيام تذكر السيد النواب فجأة، واستأنف من جديد سلسلة المراسلة وكان قد نظم أحد الأبيات قبل ثلاث سنوات، ثم سافر إلى كشمير للاسترخاء والترىض وأقام ثلاثة أسابيع في (جلمرج) ثم قدم من (جلمرج) إلى سرينجر، حيث مكث في فندق عائم وكان هذا الفندق العائم قد أقيم بجوار حديقة (نسيم باغ)، وكان مولانا آزاد

يقضى وقته كل صباح في غرفة الاستقبال، وقد واصل هنا أيضًا سلسلة الخطابات، وفي ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٥ م آثار مولانا في أحد خطابه حكاية أحوال قلعة أحمد نجر، وكتب بالتفصيل أسباب ودواعي كتابة تلك الخطابات التي ضمتها في تلك المجموعة، حيث إن هذه المجموعة من الخطابات التي كتبها بعد إطلاقه سراحه مرتبطة بتلك الخطابات كذلك، ولهذا استأذنت من مولانا آزاد في أن أضمها في هذه المجموعة أيضًا، فهذه الخطابات التي كتبها بعد إطلاق سراحه تعد بمثابة مقدمة هذه المجموعة.

لقد كتب مولانا الخطابات وأمل على غيره بالكثير منها، ومن الطبيعي أنه لم يستطع الاحتفاظ بنسخ منها، ولكن للأسف لم يسع جاهدًا في الاحتفاظ بنسخ من خطابه العلمية والأدبية الخاصة هكذا أضاع مئات الخطابات.

وفي سنة ١٩٤٠ م طلبت من مولانا خطابات الخاصة التي كتبها الخواص أصدقائه فسمح لي بذلك، وأذن لي مولانا كذلك بأن أنقل أولاً أي خطاب خاص كتبه مولانا وهو في حالة مزاجية خاصة، ثم أرسله بالبريد، أما بالنسبة للخطابات التي كتبها مولانا إلى سيد النواب في أعوام ١٩٤٠ و ١٩٤١ و ١٩٤٢ م؛ فقد احتفظت بنسخ منها عندي جميعاً وهي موجودة لدي. وبناء على هذا فقد أحال إلي مولانا آزاد جميع خطابات قلعة أحمد نجر بعد إطلاق سراحه، لكن احتفظ بنسخ منها كالعادة وأرسل الأصل إلى السيد النواب مرة واحدة، لكنني عندما اطلعت عليها اعتقدت أن تلك الكتابات لو ظلت في شكل خطابات ولم تنشر سوف يحرم منها الأدب الأردني والأدباء وتكون بذلك خسارة لا تعوض، وكان مولانا في شملة في ذلك الوقت، فطلبت منه بإصرار أن يأذن لي بنشر تلك الخطابات على هيئة مجموعة واحدة، وأنا على يقين أن جميع عشاق الأدب والأدباء سوف يشكروني على هذا العمل، وقد منحني مولانا الإذن بالنشر؛ ولهذا فإنني أتشرف بتقديم هذه المجموعة في ضيافة ذوق أهل العلم والأدب.

ففي سنة ١٩٤٢؛ ذهب مولانا إلى لاهور قبل الاعتقال وقد اشتكى من إصابته بالأنفلونزا هناك وعاد إلى كلكتا وهو في هذه الحالة؛ وبعد أن أقام في كلكتا؛ ثلاثة أيام، توجه إلى بومباي في ٢ أغسطس لرئاسة مؤتمر حزب المؤتمر لعموم الهند. وفي أثناء سفره إلى بومباي كتب خطابا باسم السيد النواب واحتفظ به ثم أعطاني إياه بعد أن وصل وقمت حسب العادة بالاحتفاظ بنسخة منه وإرسال الأصل بالبريد، ولكن مولانا آزاد استغرق في مشاغله بعد وصوله إلى بومباي وظل خطاب السفر في حقيبته حتى تم اعتقاله في صباح يوم ٩ أغسطس، ولأنه ذكر أن هذه الرسالة هي أول خطاب كتبه في قلعة أحمد نجر؛ لهذا فإنني رأيت من المناسب أن أضع هذا الكتاب في المقدمة، هكذا ألحق هذا الخطاب .

وكنت قد أردت التجرؤ بإظهار تأثري بأسلوب كتابة مولانا، ولكن عندما تأهبت لتحقيق هذه الإرادة اتضح لي أنه ليس أمامي من حيلة سوى أن ألوذ بصمت، لأنني مهما أكتب فلن أستوعبه هنا، وإنما أستوعبه من كتابة لا تكفي من أجل التعبير عما يحول في بالي من خواطر، وأريد الإشارة هنا فقط إلى أنه في الأدب الفرنسي يوجد أدب يسمى أدب الأعلى من حيث نوعيته، وإذا التمسنا له مثالا في الأدب الأردني لوجدناه فقط في أدب مولانا.

لقد أسس مولانا لهجة مختلفة لأسلوب كتابته؛ لأن كل موضوع يتطلب أسلوباً خاصاً ويستطيع إظهار طابعه في هذا الأسلوب، فأسلوب الكتابة الذي يناسب الأبحاث الدينية لا يناسب بالضرورة الكتابة التاريخية، كما أن أسلوب الكتابة الذي تقتضيه المباحث التاريخية ليس من الضروري أن ينسجم مع أساليب الكتابة الأدبية، وبشكل عام فإن لكل فرد أسلوبه الذي يختاره في الكتابة ويتجلى هذا الأسلوب فيما يكتبه، لكن مولانا يتميز بتنوع أساليب كتاباته التي تأخذ صوراً متعددة تبعاً لتنوع علمه وأدبه، وكان يكتب الموضوعات العلمية والدينية بأسلوب خاص، كما أنه اختار أسلوباً آخر في الكتابة الصحفية، وله أسلوب خاص في الكتابة الأدبية يختلف عن أسلوب الكتابة الصحفية والدينية .

وفي الوقت الذي كان يصدر فيه جريدة "الهلال" كان مولانا يكتب فيها أحيانا موضوعات أدبية خالصة، واجتهد في اختيار أسلوب لا يوجد له مثل آخر أمام الناس، إذا رغبتنا في التعبير عن هذا الأسلوب فإنه ينطبق عليه اسم الشعر (المنثور) - أي نظم الشعر في النثر، فكانت كل كتاباته بأكملها شعراً وإن كان لا يتوافر فيها ركن واحد هو الوزن لهذا فهو يكتب النثر بدلا من الشعر.

وكانت هناك طريقة خاصة لكتابة هذا الأسلوب؛ حيث يتم تنسيق النثر بعد خلطه وربطه بأبيات شعرية وقد ظهر هذا الخلط والارتباط إلى حيز الوجود ليس فقط للملاءمة معاني الشعر، بل وليكون جزءاً من الموضوع نفسه فلو انفصل عنه لكان الموضوع ذاته ضرورياً ومهماً وجزءاً لا يتجزأ عنه، وكانت سلسلة الموضوعات تتسع في أكثر الأحوال لأن موضوع النثر بأكمله مركب من فقرات صغيرة، وكل فقرة تنتهي ببيت من الشعر، هذا البيت الشعري يتطابق تماما ويرتبط بمعنى مضمون النثر، وهكذا تتعلق كل فقرة ببيت شعراً، ويصبح هذا البيت جزءاً ضرورياً لا يتجزأ عن الفقرة. ويورد الناس الأشعار نثراً، وتستعمل هذه الطريقة عموماً عندما يتذكر أحد أبيات الشعر المناسبة وتدرج في موضوع خاص، ولكن الشعر الذي يضمه مولانا آزاد في هذا النوع من الخطابات لم يأت به ليكون مناسباً فحسب، بل يكون جزءاً من الموضوع، وكأنه صيغ خصيصاً لهذا المكان، ونظم الشاعر هذا البيت ليكمل به المعنى، ولا يقدر على هذا الأسلوب في كتابه إلا شخص له موهبة كاملة في الشعر الذي وحافظ لما لا يحصى من أشعار فحول الشعراء، ويستطيع أن يستدعي من الذاكرة الشعر المناسب لكل أنواع الموضوعات وأقسامها، وإلى جانب هذه الصفات يجب أن يكون ذوقه سليماً لا شية فيه؛ بحيث لا تقبل ذاكرته إلا الأشعار الجزلة فقط، ولا يقلل مستوى اختياره لتلك الأشعار عن هذه الدرجة بأي حال من الأحوال. ومن هذا الاعتبار نجد أن ذاكرة مولانا آزاد معروفة للجميع، فقد وهبه الله تعالى مزايا لا

تحصى ولعل دوام نعمة قوة الذاكرة أكبر النعم التي أنعم الله بها عليه، فكم من أشعار عربية وفارسية وأردية لا تحصى تحتفظ ذاكرته! ولا يعرف أحد مقدارها وهو في الغالب لا يحصيها عدداً، لكنه عندما يمسك بقلمه ويبدأ في كتابة الموضوعات المناسبة، يبدأ باب ذاكرته في الانفتاح على مصراعيه، وتتزاحم مئات الأنواع من الشعر في جميع الموضوعات، والشعر الذي يروق له يستدعيه على الفور ويضمّنه في الموضوع مثل الفص في الخاتم.

وقلما كان مولانا يورد أشعاراً في كتاباته وأبحاثه العلمية والدينية بشكل عام، فيكتب العديد من الصفحات ولا يستشهد ببيت شعر واحد، ولكنه يستعمل الأشعار بكثرة في كتاباته الخاصة، وكان من الضروري أن يستشهد ببيت شعر سطرين أو ثلاثة أسطر، ويجسد الموضوع في شكل جديد بديع خلاب.

لقد كُتِبَ أكثر خطابات قلعة أحمد نجر بهذا النوع من الأسلوب، حيث ضمن في كتاباته الثرية، وكان يتفنن في إبداع الأفكار والآراء ويلون خياله الواسع بألوان مختلفة من أجل تحقيق هذا الهدف، وكان الاجتهاد في الفكر والتجديد في الأسلوب من المزايا الخاصة بمولانا آزاد عموماً، ويختلف أسلوبه عن أسلوب العامة، في كل أنواع اللغة و الكتابة، ويتعد عن تقليد العامة في استعماله للألفاظ والتراكيب من أجل تحقيق المعنى المراد من الموضوعات، ونلمح الاختلاف والقوة في أساليبه المبتكرة، وظل دائماً رائداً وصاحب أسلوب منذ أن أمسك بالقلم، ولم يستغ السير على طريقة الآخرين وتقليدهم، ويتجلى أسلوبه المبتكر في جميع خطابات التي كان يكتبها بكل جهد أو باستعداد؛ لأن قوة البيان كانت تنطلق تلقائية دون تصنع، وجهده الفكري يتدفق بلا تكلف .

وبالنسبة للفكاهة والسخرية فقد تطرق إليها مولانا آزاد بلطف وصفاء، ولا يخفي آراءه عن كتابة واقعة ما، ومعايير فكره سامية في كل فقرة، ووجهة نظره

راسخة في كل مكان ، وعندما تلقى نظرة على تلك الخطابات فإن أهم ما نلاحظه هو الخلفية الفكرية لمولانا، وتتجلى جميع أساليبه وأفكاره ويتبوأ مكانها بناء على هذه الخلفية، ففي صباح يوم ٩ أغسطس نهض شخص من فراشه فعلم فجأة أنه معتقل، واقتيد إلى مكان غير معلوم تحت حراسة عسكرية مشددة لا يوجد لها أي سابقة في تاريخ الكفاح السياسي في الهند، ويسجن في أحد أبنية قلعة "أحمد نجر" وتنقطع صلته بالدنيا تمامًا، وفي الصباح التالي - أي بعد ٢٤ ساعة من هذه الواقعة - أمسك بقلمه فبدأ الكتابة - أي إنه بعد اليوم الثاني أو الثالث من الأيام المتغيرة بدأت الأفكار التي تدور في عقله تتحرك وتوجه للكتابة بلا موانع أو عوائق.. وهكذا نرى كيف جاءت الخلفية الرئيسية لفكره في مثل هذه الظروف، وكيف ينظر إلى الأحوال المخالفة للوقت؟ وفي مثل هذه الخلفية العقلية تظهر عظمة كل شخصية عظيمة أمام العالم، وهذا المعيار هو الذي نستطيع أن نحكم به على عظمة كل إنسان من عدمه .

وقد حاول مولانا جاهدا أن يضع لنفسه خلفية في رؤيته للعالم من خلال تلك الخطابات؛ ولهذا لم يكن ضروريًا أن أتحدث عنها وأناقشها؛ ولكنني أرغب فقط في أن أوجه انتباه الجديرين بها في هذا الأمر ولا أقول شيئًا من عندي .

وعندما أعلن عن نشر هذه الرسائل في شهر يونيو الماضي سنة ١٩٤٥م؛ بدأت المطالبة بترجمتها من جميع أنحاء البلاد، وطالبت دور النشر في كلكتا وبومباي ودلهي وإله آباد، و كانبور وبتنة بضرورة الإذن بترجمتها إلى اللغات الإنجليزية والهندية، والكجراتية والبنغالية، والتاميلية وغيرها من اللغات، وقد قدم جميع هذه الطلبات إلى "مولانا" ولكنه لم يوافق على ترجمته، وقال: فيما عدا بضعة خطابات فإن هذه الخطابات مكتوبة بأسلوب لا يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى وإلا فقدت سلامة ذوقها وقيمتها الأدبية، وإذا ترجمت فسوف يضيع جميع خصائص الأصل الأردني؛ لذا لم يسمح لأي دار نشر بالترجمة حتى الآن، لهذا لم يأذن لأحد بترجمة الخطابات حتى ذلك

الوقت. إن رفض مولانا لفكرة الترجمة يؤكد لي أن كل صاحب فكر سيتفق معه؛ لأن هذه الخطابات النثرية تحتوي على أبيات شعرية وأن ترجمة الشعر أمر عسير، وفيما عدا ذلك هناك عدة خطابات كتبت في موضوعات فلسفية وتاريخية يمكن ترجمتها.

وجميع هذه الخطابات تبدأ بكلمات مثل: (صديقي المكرم) و (صديقي)؛ وهى من كلمة (صديق) وليست من كلمة (صديق) بالتشديد كما يرغب البعض في نطقها بدون تشديد، وتطلق كلمة (صداقة) في اللغة العربية على الصديق فالصديق هو الخليل أو الصاحب.

ونقل مولانا آزاد في نهاية خطاب كتبه في ١١ أبريل سنة ١٩٤٣م، عدة أبيات من مرتبة متمم بن نويرة كان قد نظمها وفاء لوفاة أخيه مالك:

لقد لامني عند القبور على البكا	رفيقي لتذارف الدموع السوافك
فقال أبكى كل قبر رأته	لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الشجا يبعث	الشجا فدعني فها كله قبر مالك

خلاصة كل هذه الأبيات هي أن رفيقي في السفر لامني عندما شاهدني أذرف الدموع عند رؤية القبور، حيث قال لي: أبكي على كل قبر تراه بسبب قبر له منزلة خاصة لديك؟ فقلت له: إن أي مشهد للحزن يجدد أحزاني ولهذا فإن بكائي يجعل كل القبور بالنسبة لي هي قبر مالك.

وحكاية (بي ستون وكوه كن) أي حكاية (جبل بلا دعائم)؛ وهى أحد آثار إيران القديمة، وينسبها القاصون إلى (فرهاد كوه كف) - أي جبل فرهاد ولكن اسمه في الأصل ليس "بستون" بل "به ستون" - أي بلا أعمدة، يعني (به ستان أو باغستان) وكلمة (باغ) في اللغة الفارسية القديمة تطلق على الآلهة - أي إن هذا المكان هو مكان الآلهة.

مقدمة المؤلف

رسائل من زمن الاعتقال في قلعة أحمد نجر

من ٩ أغسطس سنة ١٩٤٢م حتى ١٩٤٥م

كان مير عظمة الله بيخير البلجرامى معاصرا المولوي غلام على آزاد البلجرامى ومن موطنه نفسه وذا قرابة له من ناحية الجد، وقد كتب آزاد البلجرامى ترجمة له في العديد من مؤلفاته كما ورد ذكره أيضًا في كتابات سراج الدين على خان آرزو (آند رام مخلص)، وكان قد كتب رسالة مختصرة باسم "غبار خاطر"^(١) وقد استعرت منه هذا الاسم.

لا تسأل ماذا كتب قلمنا العاجز فذكرياتنا هذه ما هى إلا نفحاتي

(بيخير بلجرامى)

(غبار خاطر)

وقد كانت جميع تلك الخطابات شخصية، ولم تكتب كى تنشر بعد ذلك، ولكن بعد إطلاق سراحى علم بها الشيخ محمد أجمل خان وأمر على الفور أن ينشرها، وسلمته جميع الخطابات الموجودة لدى على حالتها للطباعة ولم تسمح لى الفرصة لكى أراجعها مرة ثانية:

إن خيوط التصحيف لا تستوعب كتاب الشوق فاحذر

أن تترك هذا الكتاب ليظل مفككًا !

(نظيري)

أبو الكلام الخطوط الجوية الوطنية

ما بين كراتشي وجوده بور

٢ فبراير سنة ١٩٤٦م

(١) تنبئ لغة الكتاب ومضمونه أنه يحتوى على الشر والشعر كذلك. (المؤلف)

بعض الخطابات التي كتبتها بعد الإفراج عني

باسم السيد النواب صدر يارجنج

في ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٥ م

فيا أيها الغائب عن النظر، يا من أصبحت أنيساً للقلب

إني أدعو لك دائماً أبعث إليك بالشناء^(١)

(حافظ)

يفيض القلب بالحكايات، ولكن اللسان عاجز عن حكيها لأصحابه

وأنا أنتظر الفرصة لكي أحكيها.

أبو الكلام

(١) الشواري، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي ص: ٢٧ و ٦١. (المترجم)

خطاب - ١ خطاب نواب^(١) صدر يار جنج

حبيب جنج (على جرة)

١ يوليو سنة ١٩٤٥ م

صديقي الحبيب

في اليوم الذي بزغ فيه البدر مكتملا من بين السحاب وشعر قلبي بنور عظمة الدنيا وضياؤها، وكما كان ذا شأن عظيم! وفي ٢٧ يونيو انبعثت أمامي ضجة قمم الجبال بشكل جماعي، وكان من بينها صورة محبوبي أيضا فأخذت مقاسها وأبعدتها عن مجمع الأغيار، فترامى إلى مسامعي هاتف من ناحية شيراز قائلا:

النظر الذي يكون إلى غير ضياء وجهك لا يكون مضيئا وضياء

وشكر تراب أعتابك لا تعرفه إلا العين التي على بابك

(حافظ)

وأضيف هنا بيتا آخر من الشعر في هذه القصيدة، ولعله لا يكون في غير موضعه:

وليس من الخير أن يخرج السير من وراء هذه الحجب

وإلا فلا خير يكون في مجالس المعربين

حسنا، فقد كان هذا نشيد "شيراز" وعندما أصغي إليه، تأتي إلى مسامعي أنشودة حب أخرى من قمم جبال شملة.

فيا أيها الغائب عن النظر، يا من أصبحت أنيسا للقلب

إني أدعو لك دائما أبعث إليك بالثناء

(حافظ)

فما استمعت إليه أذني رآته عيني مرسوما على ستار القلب في اليوم الثالث، ولو أذنت لي فإنني أكرر الشطرة الثانية:

(١) "نواب" لقب أردي يعني الأمير عند المسلمين ويقابله (راجا) عند الهنودوس. (المترجم)

إنى أدعو لك دائماً وأرسل إليك بالثناء^(١)

(حافظ)

المحتاج لبركاتك

حبيب الرحمن

رسالة منظومة لنواب

صدر يار جنج

سافر مولانا إلى كشمير في أواخر شهر أغسطس ١٩٤٥م - وأقام في (جلمرج)^(٢)، وقد وصلته هذه الرسالة الشعرية في ذلك الوقت.

حبيب جنج (علي جرة)

٦ رمضان المبارك سنة ١٣٦٤هـ

فمن خياله يعيش قلبى المهموم في جو ربيعى
فأخبره بالشوق الذى يملأ روحى الحزينة
فطأطئ رأسك وقل على لسانى : نعم لى .

(حسرت بهيكم بورى)

وإلا فإن أى نخلة تسقط الثمر تحت أقدامها

أنا مفتون بالنظر إلى مرتفع غلمرغ
فيا نسيم السحر إذا مررت عليه
وإذا سألك هل لديه رسالة شوق لى

إن تذكر البعيدين بالإحسان فهذه عين الهمة

(صائب)

أسير آزاد

حبيب

(١) الآيات الأربعة والشرطة الأخيرة ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٢٧، ٦١.

(٢) يوجد صعيد مرتفع في جبال كشمير، وقد اشتهر هذا المكان باسم "جلمرج"، وربما يكون اسم هذا المكان في الأصل "جلمرغ" كلمة بمعنى حديقة، وعلى هذا تكون "مرغزار" بمعنى الحديقة الخضراء. (المؤلف)

خطاب - ٢

خطاب من مولانا آزاد من سرى نجر (كشمير)

الفندق العائم - سرى نجر

في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٤٥م

تارة أحرم من اليد وتارة من القلب وتارة من القدم

إنك ترحل سريعاً أيها العمر وأخشى أن أتخلف عنك

(أنوري خراساني)

صديقي المكرم

كنت كثيراً ما أبحث عن متاع في سوق الحياة، ولكنني الآن ابتليت بالبحث عن متاع جديد، إنني أبحث عن عافيتي المقصودة، وقد نصحني الأطباء المعالجون بالبحث عنها في حدائق وادي كشمير، لهذا سافرت إلى "جلمرج" في أواخر الشهر المنصرم، وأقمت فيها ثلاثة أسابيع، أعتقد أنني سأجدها هناك، ولكنني بحثت عنها بكل السبل ولم أعر على شيء يدلني على متاعي المفقود.

لقد طويت أميالا من ديار الحرمين من ديار الحرمين

(سودا)

وأنت تعلم أن فيضي عاش في هذا المكان حياة هنيئة:

إن قوافل الشوق الألف تتحرك منذ الصباح الباكر

حتى تنشر خيرات العيش في منطقة كشمير

(فيضي ناجوري)

ولكن كان الغم والمرض نصيبي وقد عدت حاملا هذه الأعباء نفسها على

كاهلي كما جئت بها، فالحياة نفسها عبء ثقل، ولا مفر من أن نعيش نحمل هذا

العبء على رؤوسنا شئنا أو أبينا..

حياتنا في أننا لا نستريح

(كليم همداني)

وقفلت راجعا من (جلمرج) إلى (سرينجر) وأقمت في فندق عائم، وكان البريد قد وصلني عندما عدت من "جلمرج"، وسلمني أجهل خان خطابك الشعري ولا أستطيع أن أعبر عما في رسالة الحب هذه، فبأي عيون يقرأها قلبي العليل، وبأي آذان ينصت لها، وأصبح حالي وحالك كما قال غالب :

بمعاملة شخص مثلك تكون المنة على النفس
فنحن نشكر أنفسنا من شكواك

(غالب)

وهذه الأبيات الثلاثة التي أرسلتها لي على هيئة رسالة، لم تكن رسالة فحسب، بل وكانت كتابا كاملا يفيض بالحب واللطف.

قليل منك يكفيني ولكن قليل لا يقال له قليل !

(الأخطل)

وهذه السطور من مقدمة لجميع خطاباتك المقبلة، والحكاية التي كنت أرغب في قصها عليك بعد الإفراج عني، لم أستطع كتابتها حتى الآن. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أبو الكلام

خطاب - ٣

خطاب نسيم باغ

نسيم باغ - سري نجر

٣ سبتمبر سنة ١٩٤٥ م

لا تسألنا عن ألم قلبنا ففي أحد الأزمنة
أسكتنا أنفسنا بحيلتك السابقة

(صبري الأصفهاني)

صديقي المكرم^(١)

في الساعة الرابعة من صباح ذلك اليوم، هذا وقت منعش للروح، وأنا مقيم في فندق عائم والجانب الأيمن من البحيرة يمتد حتى حديقة (نشاط باغ)، وبقدر اتساع "شالا مار" وفي الجانب الأيسر منها تلوح صفوف أشجار السر وفي حديقة "نسيم باغ" أحسسى الشاي وقد تذكرت ذكراك مجدداً:

ونحن بعيدون عنك، ولكننا نشرب الأقداح على ذكرك
لأن بعد المنازل لا يكون في الأسفار الروحية^(٢)

(حافظ)

كانت الرسالة الأخيرة التي استطعت أن أكتبها لك قبل الاعتقال قد كتبها في صباح يوم ٣ أغسطس سنة ١٩٤٢ م، حين كنت متوجهاً من كلكتا إلى بومباي، وبعد أن كتبت الرسالة في القطار احتفظت بها لأسلمها لأجل خان بمجرد وصولي إلى بومباي، وسوف يرسلها لك بعد أن ينسخها، ولعلك تتذكر أنه مُصر على الاحتفاظ بنسخ من الرسائل ، وقد وافقته على هذه الطريقة، ولكنني شغلت لما وصلت إلى

(١) الشواربي إبراهيم أمين : ديوان حافظ الشيرازي ص: ٣١٠. (المترجم)

(٢) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٣١٠ .

بومباي في غمار انشغالي بالعديد من الأعمال، ونسيت أن أسلم الرسالة إلى سيد أجمل خان، ولكن عندما اعتقلوني في صباح يوم ٩ أغسطس واصطحبوني إلى قلعة أحمد نجر، قمت في الطريق بفتح الحقيبة التي بحوزتي لوضع بعض الأوراق فيها، فظهرت هذه الرسالة فجأة أمامي، انقطعت الآن جميع علاقتي بالدنيا وكان من المستحيل وضع أي رسالة بالبريد، فاستخرجت الصندوق الذي معي؛ ووضعت فيه مجموعة المسودات ثم أغلقت الصندوق. ووصلنا أحمد نجر في الساعة الثانية وتم اعتقالنا في القلعة بعد خمس عشرة دقيقة، ويجول الآن بين العالم داخل القلعة، والعالم خارج القلعة مسافة سنوات.

كيف الوصال إلى سعدى ودونها قلل الجبال وبينهن ختوف

(عدي بن الرقاع)

وفي اليوم الثاني - أي ١٠ أغسطس - استيقظت الساعة الثالثة صباحًا حسب العادة وقمت بإعداد الشاي الذي كان معي في السفر وأضفته إلى أدوات الشاي الموجودة هناك أيضًا، وأعددت الشاي، ووضعت فنجانًا أمامي واستغرقتُ في التفكير، وبدأت الأفكار تظل طريقها من مختلف الميادين، وتذكرت فجأة تلك الرسالة التي كتبتها في القطار في ٣ أغسطس ووضعتها بين الأوراق فرغبت تلقائيًا أن أقضي بعض الوقت في مخاطبتك، وسواء أنت تسمع أو لا تسمع لكنني وجهت الحديث إليك، هكذا فإنني أكتب لك رسالة من هذا العالم، وبعد ذلك أخذت في كتابة الرسائل كل يومين أو ثلاثة، وفيها بعد طافت أمامي ذكرى بعض الأحباب والأعزاء وكنت أحاطبهم أحيانًا في هذه الحالة المتردية، وأنفَس نفسًا طويلاً، والآن كانت جميع علاقتي بالعالم خارج السجن قد قطعت، وكان المستقبل محجوبًا في حجب الغيب، ولم أكن أعلم أي شيء، فهل كانت هذه الرسائل تصل إلى المكتوب إليهم أم لا؟ ومع ذلك كان ذوق التخاطب يخيم هكذا على قلبي، فكنت أتناول القلم ثم أتركه، ولم أكن أرغب في هذا، وكان الناس يتلقون رسائلهم من الرسول أحيانًا، ومن ريش الحمام أحيانًا، وقد جاءت العنقاء من نصيبي:

إن هذه العادات والرسوم الجديدة هى من حرمان عهدنا،
فالعنقاء لم يكن حامل رسائل فى أى عصر

(نظيرى)

ظلت كتابة سلسلة تلك الرسائل مستمرة من ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٢م حتى استمرت ١٩٤٣م ولكن توقفت بعد ذلك، وكنت قد توقفت لاضطراب أحوال بعد حادثة ٩ أبريل سنة ١٩٤٣م؛ وكنت تائها فى تلك الأحداث، ورغم هذا قمت بعد ذلك بأعمالي كالمعتاد فى ترتيب وتنقيح بعض المؤلفات، ظل جميع الأعمال فى قلعة أحمد نجر مستمرا بدون أى تغيير، ومع هذا لا أريد إخفاء هذه الحقيقة وهى أن القرار والسكون اللذين كانا يظهران عليّ كانا على شكل الجسم ولم يكن فى القلب الباطن وكنت قد أنقذت الجسم من الاهتزاز لكن لم أستطع إنقاذ القلب .
لى قلب مجنون وكأنه هائم فى الصحراء

(حافظ)

كُنت بعد ذلك أعمل أحيانا بعد تحريك الأحوال وعندما تنفك عقد رابطة الفكر؛ ولكننى الآن أفقد سرعة وتيرة سلسلة الكتابة التى لازمت طبيعتى منذ أوائل أحوالى، وعندما تم تغيير سجنى فى سنة ١٩٤٥م من أحمد نجر إلى (بانكورا)؛ فإن استعدادات طبيعتى قد منحتنى الجواب الأخير، وأستطيع أن أقوم الآن فقط بمهمة تكميل بعض مؤلفاتى، ولم تكن طبيعتى مستعدة لأى تأليف أو كتابة أى مسودات، وكانت آخر رسالة تلك التى كتبته لأحد الأصدقاء؛ وكانت تتعلق ببعض المسائل السياسية فى ٣ مارس ١٩٤٥م، وأنهيت هذه الرسالة بـ(واستان بى ستون كوه كن) على الرغم من أن قصة الحياة لم تنته حتى الآن.

إن هذه الحكايات التى قد سردوها عن فرهاد وشيرين

هى بعض قصصنا الغرامية المثيرة

(حافظ)

ولو أمنت النظر لوجدت أن حياة الإنسانية ومشاعرها أيضًا وأحوالها عجيبة، فسواء كانت الفترة ثلاث سنوات أو ثلاثة أيام، ولكن عندما نقضيها فإنها تمر، وعندما نفكر فيها قبل أن نقضيها فإننا نصاب بالحيرة والدهشة فكيف نقضي هذه الفترة الثقيلة ؟

وعندما نفكر بعد انقضائها فإننا نتعجب لأن الذي انقضى لم يكن أكثر من لمحات معدودة. وبعد إطلاق سراحي سافرت من كلكتا إلى بومباي في ١٢ يونيو لرئاسة لجنة أعمال حزب المؤتمر وأقيمت في المكان نفسه والغرفة التي أقيمت فيها منذ ثلاث سنوات خلت في أغسطس سنة ١٩٤٢م وعليك أن تتأكد أنني بدأت، أشعر بأن جميع الأحداث التي حدثت في ٩ أغسطس وما بعدها كأنها حدثت أمس ولم تستغرق أكثرها من الصباح حتى المساء، فكنت مندهشاً لأن ما حدث كأنها حلماً، وما يحدث حلم..

إن ما هو كائن الآن حلم، والمستيقظون في حلم أيضاً

(غالب)

عندما تحررت من سجن (بانكورا) في ١٥ يونيو أخرجت جميع الرسائل، وجمعتها في ملف مرتبة حسب تاريخ كتابتها، وفكرت أنني سوف أعطيها لك حسب العادة لتنسخها، ومن ثم أرسل لك الأصل أيضًا، ولكنني لما علمت بوجود مولوى أجمل خان فإنه أصر بشدة عليّ بأنه ينبغي أن أسلمها له كي ينشرها بدون تأخير، لذا استدعى خطاطاً من شملة، وسلم المجموعة كاملة كتّابتها وهو الآن يكتبها، وأمل قريباً أن تسلم للمطبعة لطباعتها، والآن لن أرسل لك تلك الرسائل مخطوطة، وسوف أقدمها لك مطبوعة.

وكان السيد مدير تحرير جريدة "أخبار مدينة بجنور" قد حضر إلى شملة، وأخذ من مولوي أجمل خان أول رسالة في السلسلة كي ينسخها وينشرها في الصحف، ولعلك اطلعت عليها، وسوف تدرك أن المخاطب في (صديقي المكرم) المقصود به حضرتك..

لقد كانت العين نحو الفلك ووجه الكلام نحوك

(غالب)

تنقسم الرسائل إلى قسمين: قسم سياسي وقسم غير سياسي. وهذه المجموعة تحتوي على الرسائل غير السياسية، وقد كتبت جميع تلك الرسائل بلا استثناء باسمكم.

وتوجهت أمس إلى دلهي، وكان قائد الجيش الأمريكي المقيم في دلهي قد أرسل طائرته الخاصة هنا على سبيل الكرم والعناية لهذا سوف أتجنب السفر المرهق بالسيارة، وسوف أصل دلهي في غضون ساعة ونصف الساعة، وأتوجه إلى بومباي بعد صلاة العيد هناك، وسأقيم في بومباي من عشر إلى خمس وعشرين ساعة .

أبو الكلام

خطاب - ٤

خطاب قبيل الاعتقال

خطاب السفر في ٣ أغسطس ١٩٤٢م

(الخطاب الذي لم أستطع إرساله بسبب اعتقالى في ٩ أغسطس والذي ورد

آثاره إليه في الخطاب الأولي من أحمد نجر)

بومباي ميل (طريق نجبور)

٣ أغسطس سنة ١٩٤٢م

صديقي المكرم

كانت شدة الإنفلونزا في دلهي ولاهور قد جعلتني منهكاً أشد الإنهاك ولا يزال أثرها باقياً حتى الآن، ولم يقل ثقل رأسي بأي علاج، وأنا مضطرب، فكيف أتحمّل هذه الآفة الشديدة التي لا تحتمل؟ وأنظر إلى تركيب "وبال دوش" فقد جدد ذكرى .

أنا مضطرب اليد والرأس وهذه الآفة الشديدة لا تحتمل : يا إلهي ! لا يوجد أي جدار في الصحراء (غالب). وقد رجعت إلى كلكتا في ٢٩ يوليو تلازماني هذه الآفة ولم تغادرني لمدة أربعة أيام حتى خرجت أمس ٢ أغسطس في طريقي إلى بومباي، وقد عدت الآن ومعى البلاء نفسه الذي كنت أحضرته معي .

أين رأيت حصان العمر في الوجه
ولم يكن لدى الحمام في اليد ولا ركاب في القدم

(غالب)

ولكن انظر كيف كان حالي في الساعة الرابعة صباحاً؛ حيث تنازعني مؤامرات عجيبة فهل أنا في حالة السفر؟ أو في حالة إقامة؟ هل أنا ساخط أم راضٍ؟ هل هناك إرهاق في القلب والعقل أم ضعف وهزال في الجسم؟ هي حالة ما، لكنني في ذلك الوقت لم أستطع قط التغاضي عن المريدين المنهكين..

وجدت فيضاً عجيباً منذ الصباح ، فانظروا
فإن هذا الطريق المشرق هو طريق الحانة

(حافظ)

وأنا مسافر في مقصورة فيها أربع نوافذ، اثنتان منها مغلفتان، واثنان مفتوحتان، واستيقظت في الصباح وفتحت النافذتين المغلفتين، وكانت هناك حرارة بسبب سير القطار، فتضاعفت البرودة بسبب تيار الهواء وكنت متدثراً في الفراش بسبب آلام المرض^(١)، وقد نهضت وجلست طلباً للعلاج من نسيم الصباح، ولعله يكون صباحاً لهذه الليلة، وعندئذ تخرج هذه الكلمات عفويا على لسان خواجة شيراز:

فلتطب له نسمات الصباح
فقد داوى آلام الساهرين طوال الليل^(٢)

(حافظ)

والقطار في الوقت الحاضر وحسب العادة لا يسير في أوقات محددة، وكانت المحطة التي يتجاوزها في ذلك الوقت لا تلوح لنا حتى الآن؛ وفكرت في هذه الحالة الخاصة فلاحت لي صورة كاملة للحالة العامة:

لا أحد يخبرني عن المنزل الأخير
مرت مئة صحراء وأمامنا أخرى

(فيضي أجبوري)

وقد انتابني هذه الحالة في الليل فلا أستطيع التعبير عن الاضطراب ولا السكون، فيكون السكون عندما تغمض عيني، ويأتي الاضطراب عندما أفتحها، كأني أقضي الليل كله وأنا أشاهد حلمين متضادين، أحدهما يرسخ صورة والثاني يقودها من القواعد ويهدمها :

(١) ليس المقصود هنا بكلمة (ناخوش) هو نفي السعادة، بل المقصود من (ناخوش) هو المعنى الفارسي

حيث يطلقون كلمة "ناخوش" على المرض. (المؤلف)

(٢) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي، ص ٨٢.

إن الحياة ما هي إلا بقضة بين نومين وما هي إلا غبار تخيل سرايين
وهي موضع عديم الروح من تلاطم أي إن الحياة هي طلسم النقش على الماء

كان قد انقضت عدة دقائق بعد الساعة الثالثة، وفتحت عيني، وقد لازمتني عادة شاي الصباح في السفر أيضًا، وفي السفر استمرت هذه العادة حيث يأتي عبد الله في الليل ويعد موقع الإسبرتو وغلاية الماء، حيث تمتلئ بمقدار الماء المطلوب ويضعها على المنضدة، يبقى هناك مكان بجوارها لإبريق شاي ويجب أن يكون قد وضعه في مكان صحيح بحكم وضع شيء في محله، ولكن ليس من الضروري أن يكون الفنجان والسكرية بالقرب منه؛ ولأن هذا يدخل في نطاق وضع شيء في غير محله، فلو وصلت إلى أي محطة فيما بين الثالثة والرابعة صباحًا فإن عبد الله يحضر لي شايًا في أغلب الأحوال، ولو لم يأت فأعده بنفسه حيث تتحرك يدي شوقًا إلى هذا العمل، وفي معظم الأحوال أكون رهن الاعتقال، لهذا يدخل كل هذا في باب الاستثناء، وفي بعض الأحوال كانت السيارة تتوقف في المحطة، ولكن صورة عبد الله لم تلح في الأفق، وعندما يحضر يسوق لي الأعذار فيدق عقلي أن هناك مسألة أخرى واجهته. ومن المعروف أن نسيم الصباح عمل ذو طبيعتين مختلفتين ومتضادتين عندما يأتي ليوقظني بينما يركن عبد الله إلى نوم عميق، بينما تظل ساعة المنبه ملاصقة لوسادته، وتظل النتائج واحدة تقريبًا، ولا أدري هل حضرتك ستقترح حاليًا لهذه المشكلة؟ ولكنني وجدت الحل الذي أخبرني به سعدي الشيرازي واطمأنت له:

المطر الذي لا خلاف في لطف طبعه

به تنبت الشقائق في الروضة وبه أيضًا تنبت الأشواك في الأرض المالحة

(سعدي)

على كل حال؛ فإن لوازم الشاي كانت مرتبة ومهيأة حسب العادة، ولا أعلم إلى اليوم متى تأتي المحطة حتى لو جاءت أيضًا فإن لي الاطمئنان حيالها، لأن القاعدة

الكلية لمجىء عبد الله اليوم ليست واضحة على سبيل الاستثناء، فأشعلت عود الثقاب، وأضأت الموقد، واحتسيتُ الشاي الآن وتجددت ذكراك والهدف من كل هذا النفس العميق وأن يكون لي يد طولى في محفل الكلام لمخاطبتك ولا شيء سوى هذا فقط:

إننى أتذكرك وأتحدث عنك فيا لها من عبارات ويا لها من معاني
(قتيل فريد آبادى)

الشاي لذيد جدا فهو من أنواع الشاي الصيني؛ فلو أنه فاتح إلى حد ما حتى يلتبس عليك وهم وجوده، وكأنه قول أبي نواس^(١):
رقت الزجاجة وراقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر
(الصاحب بن عباد)

والكيف حاد إلى هذه الدرجة حيث تتجدد لدي فكرة رطل وأني الثقيل في كل فنجان بلا مبالغة:

ناولنى أيها الساقى رطلا ثقيلا من تلك الخمر التى تربي الدهقان (قائى)
ولعلك لا تدري أن لي بعض الاختبارات في باب، أنا أحاول أن أولف كيفاً مركبا من لذة الشاي لطفه مع عدة التدخين ومرارته، فإنني أشعل السيجارة مباشرة مع الجرعة الأولى من الشاي، وهكذا استمر بعمله وفق لهذا التركيب الخاصة، وبعد وقفات قصيرة أرتشف، وأسحب نفسا من السجائر متصلاً بها، ويطلقون على هذه الحالة في الاصطلاح العلمي "على سبيل التوالي والتعاقب" .. وهكذا فإن كل حلقة في سلسلة هذا العمل تنساب بالتدرج .. الامتزاج بين جرعة شاي ونفس من السيجارة وتمتد سلسلة العمل وتطول، ولك أن تلاحظ انضباط حسن التناسب، حيث يوجد هنا فنجان خال من الجرعة الأخيرة، وهناك سيجارة وصلت إلى آخر نفس، فماذا أقول

(١) ينسب هذا البيت إلى الصاحب بن عباد وليس إلى أبى نواس. (المؤلف)

عن كيفية تركيب المزاج المعتدل من الكيف والسرور من امتزاج هذين الجزأين القوى الحاد واللطيف؟ وأود أن أستعير كلمات فيضي.

إسألني عن اعتدال المعاني لأنني قد عرفت مزاج الكلام.

(فيض ناجوري)

وستقول الآن إن عادة الشاي - في حد ذاتها - كانت علة، فلماذا تضاف عليه المزيد؟ من الملك سيئة المنبت؟ هكذا يكون استغلال طريقة الامتزاج والتركيب في المعاملات، وتضاف العلل على العلل، وكانت - حكاية الخمر والترياق تتجدد، وأنا سوف أسلم بأن جميع هذه العادات مصطنعة ومزيفة، وتدخل بلا شك ضمن أخطاء الحياة، لكن ماذا أقول عندما أمعن النظر في هذا الجانب من المعاملات أحيانا ولا تستطيع طبيعتي أن تطمئن له لأنها تصنع سرا معصوما من أخطاء الحياة، ويبدو أننا نرغب في شيء ما من الأخطاء الضرورية، وندخرها في بناء الحياة في هذا العهد الفاسد:

ولقد قال شيخنا: "إن قلم الصنيع لم يخطئ مطلقاً"

فبارك الله في نظره الطاهر الذي يخفي الأخطاء^(١)

(حافظ)

عليك أن تمنع النظر فيما تكون تلك الحياة التي لا يستطيع طرفها أن يرتكب أي خطأ؟ وهي خدعة أو حيلة بريئة تماما من تأثر الأقدام.
أنت وقطع المنازل، أنا وتعثر القدم

(سودا)

لو أنك فكرت وتدبرت وتقدمت خطوة للأمام؛ فإن القضية كلها سوف تنتهي في الآخر بنفسها حيث كان يراها عارف شيراز (حافظ) أحيانا:

فتعال، فإن رونق هذا المصنع لن يقل ضياؤه

بزهد زاهد مثلك، أو بفسق فاسق مثلي ضاع حياؤه^(٢)

(حافظ)

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ١٢٠.

(٢) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي، ص ٣٢٤.

لو تسأل مرة أخرى: ما معيار نجاح العمل لو لم نعتبر أن هذه العوائق لا تخل بهذا السلوك؛ فتكون الإجابة هي نفسها الإجابة نفسها التي يجيبها العارفون بالطريق دائماً: كن تاركاً لكل شيء وعارفاً بكل شيء

(حالي)

أي إن خطط العمل تعتمد على الترك والاختيار كليهما، وهكذا فإنه أجلسهما معاً، فبعد أن ترك الذيل الملوث فإنه لا يستطيع الأخذ بطرف ثوبه بحيث لا يخل التعقيد بطرف الأشواق بهذا الطريق فالأخذ بالثوب يكون مغللاً هنا، وليس من الضروري أن تخشى دائماً من جميع أطرافك بحيث تبتل، وإن ابتلت فاتركها تبتل، لكن هذه القوة الضرورية لديك وساعدك. وعندما تريد أن تكون مثل العصير البائت فلا تبقى قطرة واحدة من التلوث ..

لا تمنح الطرف المبلل لشيخنا فلنعتصر الطرف وتتوضأ الملائكة

(درد)

نجاح العمل هنا لا يعتمد على السعي في المكسب والخسارة بل يبقى على المكسب والخسارة في حالة مستمرة فلا تشعر بثقل طرف الثوب المبلل، ولا بدناءة جفاف طرف الثوب ولا تكن مضطرب الحال بسبب تلوث أسفله، ولا بألم طرفه الطاهرة ..

كن سمندر وكن أيضاً السمكة التي تعيش في إقليم العشق

فسطح البحر سلسيل وقعره نار

(عرفي)

وسأقص عليك حكاية؛ ولعل عقدة رابطة الكلام تحيل بسببها: عندما اعتقلت في سنة ١٩٢١م كنت أعلم أنه لا يسمح باستعمال السجائر في السجن، وعندما اقتربنا من المكان كنت أدخن سيجارة على المنضدة، وكنت بتأثير العادة أرفع يدي أولاً وأضعها في جيب، ثم أشعر بحقيقة الأمر فأمتنع منه، ولكن مأمور البوليس الذي كان قد جاء بأمر الاعتقال قال بإصرار: ضعها في الجيب. فوضعتها، وكان في العلبة عشر

سجائر دخنت إحداها إلى مكتب مأمور السجن وأشعلت الثانية في الطريق، وقدمت اثنتين للرفيق، وظلت معي ست سجائر ومع أي وصلت إلى السجن الرئيسي في (على بور) فكرت عندما بدأت الدخول في مكتب السجن فإنه من الأفضل أن لو أنني أخرجت هذا الوبال من جيبي ووضعته تحت قدمي، فأخرجت العلبة وأهديت السجائر لحارس السجن، ومنذ ذلك اليوم لم أتذوق أو أعرف طعم السجائر لمدة عامين، وكان معي عدد كبير من رفاقي لديهم مخزون من السجائر، وكان حراس السجن يتغاضون عنها عمداً، وكان البعض يستعملها على طريقة شرب اليهود^(١).

نصنع شرب اليهود بين النصارى
ولم يكن البعض يستطيع أن يتحمل السجن

(ذوق)

ولا تسقني سرا فقد أمكن الجهر

(أبو نواس)^(٢)

إنني سعيد لأن توبتي قد جعلت الخمر رخيصة

(غالب)

واستمع إلى قصة الواقعة الأصلية، ففي صباح اليوم الذى أطلق فيه سراحى أخرج مأمور مكتب السجن علبة سجائره وقدم لي سيجارة على سبيل التواضع .
وعليك أن تتذكر أنني كنت قد تركت التدخين منذ عامين بعزم وإصرار، لكنني كنت مستعداً لقبول هذا العرض إلى هذا الحد، فلم أتأخر في الامتناع، ولم أتردد أو أنهب في الاختيار، ولم أحزن على الحرمان منها، ولم أنتعش في الحصول عليها وكانت المتعة التي منحتها لي مرارة الامتناع، هي نفسها التي بدأت أشعر بحلاوتها الآن عند القبول..

ليست المسألة الجليس الصافي والمعكر ، فالخطأ هو هذا المكان

(١) كان اليهود يصنعون الخمر سرا في الدولة الإسلامية ويبيعونه، ولهذا راج مصطلح "شرب اليهود"

بمعنى شرب الخمر سرا. (المؤلف)

(٢) والبيت الكامل هو: ألا فاسقني خرا وقل لي هي الخمرُ .. ولا تسقني سرا فقد أمكن الجهر. (المؤلف)

مهما تفرز الجيد من الرديء ، فالبلاء هو هذا المكان

(نظيري)

وبعد سنة ١٩٢١ واجهت مرحلة السجن والاعتقال ثلاث مرات، لكنني بالضرورة لم أواجه الحرمان لأن علب السجائر ذهبت مع أمتعتي، ولقد رأيتها ولكن لم أستبقها، ولو منعت لكنت امتنعت عنها.

والآن بدأ القلم يتعثر في الرد ولهذا أتوقف.

وصل القلم إلى هذا الموضع وانكسر سنه.

(غالب)

أبو الكلام

خطاب - ٥

حكاية مسهبة

قلعة أحمد نجر

١٠ أغسطس سنة ١٩٤٢م

لا تسأل عن أدوات قافلة الحمقى
فإن جرس قافلتنا يسير بلا صلصلة

(واله البدخشي)

صديقي المكرم !

لم تسنح الفرصة لي في بومباي حتى صباح أمس كي أرسل إليك الخطاب المكتوب
في ٣ أغسطس، فسلمته إلى "أجل خان" ليرسله إليك، ولكنني الآن أرغب في أن أكتب
إليك صفحات وصفحات من الرسائل رغم أنني محاصر وسجين في قلعة أحمد نجر:

اتسعى أيتها الصحراء فإن الليلة هي ليلة غمي
وس يخرج جيش آهاتي من قلب الخيمة

(إسلام الإصفهاني)

قبل تسعة أشهر فتحت لي بوابة السجن (نينى) المركزى في ٤ ديسمبر سنة
١٩٤١م، ولكن بالأمس ٩ أغسطس سنة ١٩٤٢ أغلقت خلفي بوابة قلعة أحمد نجر
القديمة في الساعة الثانية والربع، وكم أبواب تفتح في هذه الدنيا العجيبة وتغلق،
وكم من أبواب تغلق وتفتح؟! إن فترة تسعة أشهر على ما يبدو ليست
بالمدة الكافية..

هى كتقلب إنسان وهو نائم في عالم الغفلة من جنب إلى آخر.

ولكنني عندما أتأمل هذا الأمر يتبين لي أنني عشت قصة كاملة من التاريخ..

عندما تتم الصفحة تقلب الورقة .

(الخيام)

وأنا الآن لا أعرف متى سينتهي المستقبل قصتي الجديدة التي ستبدأ.

إن احتيال العالم قصة واضحة
أنظر ماذا يلد الليل الحامل

(حافظ)

وعندما وصلت إلى "بومباي" في ٤ أغسطس أحضرت معي الأنفلونزا ودوار في رأسي، وارتفاع في الحرارة، واضمحلال في الصحة، ورغم ذلك انشغلت بالأعمال بمجرد وصولي، على الرغم من أن صحتي لم تكن على ما يرام فإنني لا أحبذ حدوث أي خلل من نظام المواعيد المقررة، وقد عقدت جلسات عدة في المجلس التنفيذي استمرت من ٤ إلى ٧ أغسطس، وقد بدأ مؤتمر المجلس الهندي من ظهر يوم ٧ أغسطس، ولو لا سرعة العمل لاستغرقت هذه الإجراءات ثلاثة أيام وانتظمت اللجنة المحلية لمدة ثلاثة أيام كذلك ولكنني حاولت ألا يمتد هذا المؤتمر أكثر من يومين، وقد جلست يوم ٨ أغسطس من الساعة الثانية الظهر حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً كي أنجز جميع أعمال المؤتمر.

لقد كان العمل في العشق كثيرًا يامير، وقد انتهينا منه بسرعة.

وصلت إلى محل إقامتي خائر القوى ومنهكًا وجدت صاحب البيت في الانتظار وهو شارد الفكر، كان هذا الرجل مريضًا منذ فترة ويعاني من اضطرابات عقلية؛ لهذا كنت أتحاشى تذكيره بأوقات الأعمال حتى لا يتضاعف اضطرابه العقلي أكثر، وكان قد استقال من عضوية لجنة تنفيذية بعد أن كان عضوًا من أعضاء المجلس التنفيذي ورغم ذلك لم أوافق على استقالته حتى الآن، كما لم أستدعيه للمشاركة في جلسات المجلس التنفيذي؛ لكنه قال لي: إن شخصًا ما حضر في الليل وظل ينتظرني عدة ساعات ثم رحل في التو واللحظة بعد أن ترك لي رسالة مفادها أن شائعات الاعتقال لم تكن خاطئة، وأنه قد علم بذلك من مصادر موثوقة، وأن جميع التدريبات

قد أعدت من قبل الحكومة، وسوف يتم تنفيذ هذا الأمر في أي وقت من مساء اليوم، وكانت شائعات الاعتقال تتردد على ألسنة الناس من دهلي إلى كلكتا وتعبت من كثرة سماعها:

فإما الوفاء، وإما نبأ الوصل واللقاء، وإما موت الرقباء
فيا ليت الفلك يعمل أمرًا من هذين الأمرين أو الثلاثة

(حافظ)

كنت أفكر في هذا الكلام، لكنني لم أخبره حتى لا يتضاعف قلقه واضطرابه، وكانت هذه الشائعات منتشرة في ذلك الوقت انتشارا واسعا؛ لكنه لم يكن لها أي اعتبار عندي وحتى لو حدث الاعتقال بالفعل، فلماذا نحدد الوقت في مثل هذه الأمور؟ دعني أتناول الطعام سريعا وأخلد للنوم حتى منتصف الليل حتى أستريح بضع ساعات:

ليس من الخير أن نتجرع الغموم، بل من الخير أن نحتمي الشراب

(حافظ)

وكعادتي استيقظت في الساعة الرابعة صباحا، ولكن كنت متعبا وأشعر بثقل شديد في الرأس؛ لذا تناولت قرصين من الإسبرين (genesprine)، ثم شربت شايًا وأخذت القلم كي أكتب بعض الرسائل المهمة التي كتبت مسودتها في الليل، وقررت إرسال الخطابات لرئيس روز فيلت وغيره، وكان المدة في البحر قد انحسر أمامي، وكانت حرارة الليل قد انتشرت مع انحسار هذه المدة، والأمواج الآن تصطدم بالساحل، عندئذ تغيرت طبيعتي بسبب برودة الهواء وسريان مفعول الإسبرين، وقد منحني نسيم الصباح أنفاس الشفاء، وبدأت أشعر بالتعافي من ثقل رأسي ثم بالإفاقة، وفجأة بدأت تطرأ على سنة من النوم.

يتضوع نسيم الصبح من رحمتك .

(ذوق)

وضعت القلم تلقائياً واسترحت علي الفراش وغالب النعاس عيني،
وفجأة شعرت بالسيارات تمر في الشارع ثم رايت عدداً من السيارات يدخل إلى
حديقة المنزل وتقدم تجاه الفيلا الواقعة خلف منزلي، وكان يقيم بها (دهيرو) ابن
صاحب المنزل، واعتقدت أنني أحلم وسرعان ما غرقت في نوم عميق ..
فما أجهلها من أحلام هي أحلى من اليقظة^(١) !

وربما مر عليّ وأنا في هذه الحالة عشر أو اثنتا عشرة دقيقة حتى شعرت بشخص
ما يمسك قدمي، وعندما فتحت عيني رأيت "دهيرو" واقفاً وفي يده ورقة ويقول لي
إن رئيس الشرطة حضر ومعه اثنان من الضباط وأحضروا هذه الورقة، وكان هذا
الخبر كافياً بالنسبة لي ولكنني أخذت الورقة منه لأرى ما كتب فيها.

قلت لـ "دهيرو" أن يطلب منهم الانتظار ساعة ونصف الساعة لأجهز نفسي،
وقمت بالاستحمام وارتديت ملابسني وكتبت بعض الرسائل المهمة وخرجت وكانت
الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة.

كان الأمر صعباً وقد يسرناه على أنفسنا .

(نظيري)

وعندما تحركت السيارة كان الصبح يتسم، ورأيت أن البحر يرقص وتتقاذف
أمواجه أمامي، ونسيم الصبح يتنفس في جميع أرجاء المنزل، وتضوع أريج الزهور
ترسل شذاها إلى البحر الذي ينشرها بدوره في الفضاء عن طريق الأمواج؛ وقد
تسللت هذه الأنسام داخل السيارة فتذكرت على الفور غزلية حافظ:
هبت نائم الصبا في وقت السحر بنفحة من طرة الحبيب
فجعلت قلوبنا الضائعة توله بهذا العبير والطيب^(٢).

(١) الشواربي، إبراهيم أمين : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٢٩ .

(٢) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ١١٣ .

وعندما وصلت السيارة إلى محطة قطار (فكيتورياترميس) حاصرتها القوات من كل جانب، وكان هذا الوقت وقت مرور القطارات الداخلية، ولكنهم منعوا دخول المسافرين، وقد تراءى بعض الناس على رصيف واحد حيث كانوا يقطرون جرار القطار مع باقية عربات القطار الأخرى، وقد أُعدت مثل هذه العربات الخاصة للسجناء فقط، وكان جميع عربات القطار (corridor carriage) متصلاً فيما بينها، والأبواب التي بين العربات مفتوحة، فكان المرء يستطيع أن يتجول فيها من بدايتها إلى نهايتها، وعندما دخلت إلى القطار اتضح لي أنه تم إلقاء القبض على كثير من الناس واعتقلهم وكثير منهم جاء وكثير منهم لم يأت..

تقدم الكثير منهم، والباقي يجلس على أهبة الاستعداد

(إنشاء)

كان بعض الأحباب الذين وصلوا قبلي توحى وجوههم أنهم لم يناموا، وقال أحدهم إنه نام الساعة الثانية ليلاً واستيقظ في الساعة الرابعة، وقال آخر: المشكلة أنني لم أُنم إلا ساعة واحدة، قلت: أنا لا أعرف ما أحوال حظ النائم؟ وهل سيوقظ أحد ما أم لا؟

نجوم الليل ويقظني ليس هذا كل شيء أخبرني عن حظي إلى متى سيظل نائماً.

(غالب)

على كل حال لا يمكن أن تحل هذه الشكاوى بسرعة وحماس، وقد تم قطر عربات القطار، وعرض علينا تناول الشاي في القطار فشربت الشاي ولكنني طلبت أن أشرب شاياً مرة ثانية ودعوت من غالبهم النعاس كي يشربوا الشاي حتى تقاوم عيونهم النوم.

فاشرب الخمر فإنك خفيف الروح لطيف على الدوام

وعلى الخصوص ٠٠ متى ثقلت رأسك ولعبت بها الخمر والمدام^(١):

(حافظ)

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٣١٣.

لقد طرأ على لسان القلم أن تركيب القدح والخمر هنا يتناسب مع كأس الصباح ولكن أمعن النظر، فكم يتطابق الحال مع الواقع ؟ فكيف تنقلب الأحوال بين عشية وضحاها ؟ ففي حين كان مساء أمس مزيئاً بالسرور والسعادة الممتدة حتى ثلث الليل، ولكن انظر الآن وقت الصباح ..

النأي يعبر عن السرور والحرقة لا عن الحماس والضجيج

(غالب)

وقد حل الصبح بثقل في الرؤوس بدلاً من النشاط والسرور في الليل والمجلس الذي كان فيه بعض الأصدقاء والمطارحات عندما فتحت عيني عليه؛ وجدت أنه لم يتبق منه سوى التعب والغم .
إن تهمة اللذة والاستمتاع قد فتحت لنا ذراعيها ففرعنا،
فالخمر لم تكن بالقدر الذي يتعب الخمار .

(غالب)

ولو عرفت كيف يفعل الخمر في الإنسان بالليل، فإن تأثير الصباح يكون أشد .
وبعد أن جربنا نشوة الليل، جاءت مرارة الصباح بما لا مفر منه ولا مهرب ولم يكن هناك أي مبرر للشكوى، ولا غرو فإننا نتحسر على أننا لم نشرب الكثير من الكئوس بالليل، وما أجمل ما قاله خواجه ميرداد في هذا الصدد :

نسعد أحياناً من أي خمر للرنود، فيا ساقى املاؤمنا بالخمر مرات ومرات .
كانت الساعة السابعة والنصف لما دق جرس القطار إيذاناً بالرحيل، كنت قد قرأت هذا البيت من غزلية شهيرة لحافظ وسمعتة مئات المرات، لكنني في الحقيقة لم أدرك مغزاه الأصلي إلا في هذا الوقت :
لم يعلم أحد أين المنزل المقصود كل ما في الأمر صوت جرس يرتفع

(حافظ)

كانت الشائعات التي انتشرت قبل اعتقالي أنني سوف أسجن في سجن قلعة "أحمد نجر" أو في سجن "أغاخان" في "بونا"، ولكن عندما تجاوز القطار محطة "كليان" متوجها ناحية "بونا" .. اعتقد الجميع أن "بونا" هي المنزل المقصود في الغالب، ولكنه عندما اقترب من "بونا" أنزلوا بعض الرفاق فقط في محطة غير مأهولة، وصدرت الأوامر لقافلة "بومباي" المحلية بالنزول، ولم يوجه إلينا أي أوامر ثم أعلنت صلصلة الجرس الرحيل ..

يصلصل الجرس قائلاً: " اعقد الأحمال واربط الرحال " (١) .

(حافظ)

والآن تردد اسم "أحمد نجر" على لسان كل شخص؛ لأننا لم ننزل "بونا" فلا يمكن أن نتوجه إلى أي مكان آخر سوى "أحمد نجر" وكان أحد رفاقنا يقطن في تلك النواحي فأخبرني بأن المسافة بين "بوما" و"أحمد نجر" لا تزيد عن سبعين أو ثمانين ميلاً، ويجب أن ندرك أن وقت السفر لن يزيد عن ساعتين ونصف الساعة، ولكن خيالي قد توجه إلى جهة أخرى حيث إن "أحمد نجر" ليست ببعيدة، وسوف تأتي بسرعة ولكن هل ينتهي السفر بـ "أحمد نجر"؟ أو سيبدأ من "أحمد نجر" وعندئذ تذكرت لامية أبو العلاء المعري:

فيادراها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال.

(المعري)

ومن الصدف العجيبة أنني زرت جميع الأماكن التاريخية في البلاد تقريباً ولكنني لم أزر قلعة "أحمد نجر" قط، وكنت ذات مرة في "بومباي" وأردت أن أزوورها ولكن لم تسنح لي الفرصة بزيارتها، وتعتبر هذه المدينة من بين الأماكن الخاصة في الهند التي ارتبط اسمها لقرون بقصص الثورات وقد سميت هناك قرية بالاسم نفسه من قبل على شاطئ نهر (بهينجر)، وعندما ضعفت الحكومة البهمنية في الدكن؛ رفع

(١) هذه الشطرة ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ١ .

الملك أحمد نظام الدين راية الاستقلال وأسس مدينة (أحمد نجر) بالقرب من (بهينجر)، ونصب عليها حاكماً بدلاً من (جنير) وأصبحت منذ ذاك الوقت عاصمة مملكة (نظام شاهي)، وقد نزحت إليها أسرة (فرشته) وهى أسرة من (مازندران) واستقرت بها، وصارت هذه المدينة في غضون سنوات عدة تضاهي القاهرة وبغداد في الاتساع والرونق والبهاء:

لا بد من شخص مبتلى بأفة الخراب فبالأمس كانت رمال البادية هى مرآة البيت
(حافظ)

كانت القلعة التي بناها الملك أحمد ذات أسوار مبنية من الطوب اللبن، فهدمها ابنه "برهان نظام شاه الأول" وبناها بأحجار من حديد، وقد ارتفع بناؤها وحصنها حتى ضاع صيت تحصينها في مصر وإيران، وقد زارها الجنرال "ويلزلى" في سنة ١٨٠٣م عندما نشبت الحرب مرة ثانية في "مرهتا" وهو الذي عرف فيما بعد بـ "دوق ويلنجتون" ومع أن هذه القلعة قد مر عليها ثلاثمائة سنة من الثورات لكن ذلك لم يضعف من تأثيرها شيئاً، وقد كتبت في خطاباتي أنه لا تفوق عليها قلعة في جميع قلاع الدكن من ناحية القوة والمتانة سوى قلعة "ويلور":

رحلت القافلة وعُرفت المسافة التي قطعتها من تلك الآثار التي سقطت في كل عمر
(حافظ)

وهى قلعة "أحمد نجر" نفسها التي حفرت على جدرانها الحجرية الأميرة "تبشاند بي بي" قصص مآثر حروبها وبأسها وشجاعته، وبعد أن محى هذا التاريخ من الألواح الحجرية تم حفظه في الدفاتر الورقية..

فهيا اهرق جرعة من الشراب على وجه التراب، ثم استمع منه لحال أهل القلوب،
فعنده الكثير من الحكايات عن "كيخسرو" و "جمشيد"....

(حافظ)

(١) الشواربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ١٠٨. (المترجم)

وهى نفسها قلعة "أحمد نجر" التي شهدت معارك عبد الرحيم خان خانان البطولية والتي قصها علينا عبد الباقي النهاوندي وصمصام الدولة، قد قدمت قلعة "أحمد نجر" العون والمساعدة للجيش القادمة من "بيجاپور" و"جولجندى"، وعندما التقى جيش "خان خانان" مع جيش سهيل الحبشي الجرار تساءل "دولت خان اللودهى" قائلاً: "ورغم أن مثل هذه الحشود في المقدمة فلم يكن الفتح سهلاً، وإذا حدث شيء أشيروا لنا إلى مكان حتى نعرث عليكم".

فأجاب "خان خانان" بقوله:

ونحن أناس لا توسط بيننا . لنا الصدور دون العالمين أو القبر.

(أبونواس)

وتحتوى ذاكرة مدينة "أحمد نجر" على العديد من النقوش المنسية التى تجددت لدى فجأة، وكان القطار يسير بسرعة كبيرة ويمر من ميدان بعد ميدان فلم تستقر عيناى على منظر بعينه حتى تواجه أمامها منظر آخر وكان ما يحدث يمر في داخل عقلي، فأوراق تاريخ مدينة "أحمد نجر" القديم التي امتدت ستة قرون تتقلب أمامى، وما أن تستقر عيناى على صفحة حتى تلاحقها صفحة أخرى.

أعد قراءة دفتر العام الماضي هذا من حين لآخر
إذا كنت تريد تجديد حشرات القلب

(نظيري)

وأعتقد أن هذا المكان هو الذي سأعتقل فيه، ولا شك أنه اختيار موفق، فمثل هذه الخرابات تليق بي:

بعالم من الضيق والكدر يعود ثانية هذا المكان الحرب

(همداني)

وصل القطار إلى محطة "أحمد نجر" في الساعة الثانية، وكانت المحطة قاعاً صفصفاً؛ فيما عدا بعض ضباط الجيش يتراصون ومن بينهم قائد جيش في كتيبة محلية،

فاستقبلني وغادرنا المحطة على الفور، وكان الشارع مستقرًا من المحطة حتى القلعة ولا يوجد في الطريق أي تعرجات، وبدأت أفكر في أن هذا هو الهدف من السفر؟ فإذا أقدمت قدماك على الانحراف ، فعليك أن ترجع من الخلف أيضًا، فلا مناص من الاستقامة:

ها هو طريق العشق، والاعوجاج في الطريق ليس له عودة
والذنب هنا له عقوبة وليس له استغفار

(عربي شيرازي)

والمسافة بين المحطة والقلعة لا تتجاوز اثنتي عشرة دقيقة، قد تراءت لنا أسوار القلعة على مسافة ما، ولكن هذه المسافة طويت في لمح البصر، ونحن الآن في هذا العالم خارج القلعة، ولم يفصلنا على الدخول فيها إلا قدم واحدة، وتطوى في طرفة عين، ونصبح داخل عالم القلعة، ولو أمعنت النظر لرأيت أن جميع المسافة التي تفصل بين الموت والحياة لا تزيد علي خطوة .

إن الطريق من الوجود إلى العدم عدة أنفاس، أين من هذا السفر المروم من الدنيا.

كانت مساحة خندق القلعة الذي كتب عنه أبو الفضل أربعين ياردة عرضًا، أربع عشرة ياردة عمقًا، وكان الجنرال "ويلزلي" وقد وجدته مئة وثمانية أقدام عرضًا في سنة ١٨٠٣م لم أجد هذا المقياس، وغالبًا فإن الاتجاه الذي دخلنا منه مطمور بالتراب، وهو هذا الخندق، وقد ارتفع جانب القلعة من الخارج بعد حفرها أدى إلى اختفاء جدار القلعة، ولم يظهر الخندق من هذا الجانب، ومن الممكن ألا يتبقى من هيئته (شكله) شيئًا الآن.

وبمجرد دخولنا القلعة وجدنا طابورًا من السيارات والشاحنات والدبابات، وبعدها وجدنا أنفسنا أمام سور يرتفع عن سطح القلعة نحو خمسة عشر قدمًا وقد توقفت السيارات وأمرنا بالنزول، وسلم القائد العام لبوليس بومباي الذي كان بصحبتنا فهرسًا بأسمائنا إلى قائد الجيش؛ فأخذ الفهرس ووقف بجوار الباب وكأنه سيسلمنا إليه بشكل رسمي، والآن أمرنا من مسئولية شرطة بومباي إلى سلطة الجيش، فخرجننا من عالم لندخل إلى عالم آخر .

لا ترهق نفسك في البحث عنا
فإننا قد وصلنا إلى مكان لا يصل إليه العنقاء

(بیدل)

وعندما دلفت من البوابة وجدت أمامي ميداناً مستطيلاً، وكان طوله في الغالب مئتين قدماً وعرضه نحو مئة وخمسين قدماً وكان محاطاً من أطرافه الثلاثة بسلسلة من حجرات السجن، وهناك بعض الطرقات أمام الحجرات وفي المنتصف مكان فسيح وهو ليس واسعا إلى هذه الدرجة لكن نطلق على هذا اسم ميدان؛ ومع ذلك فإنه يمكن أن يستعمل ميدانا للسجن، فعندما يخرج السجن من حجرته سيشعر بأنه في مكان مفتوح، أو على الأقل فإن هذا المكان الضروري يستطيع المرء أن يلهو فيه كما يشاء .

وأحيط الرأس بزحام من آلام الفقراء
وهم عبارة من عن قبضة التراب في مكانا ما بالصحراء

(غالب)

وتوجد منصة وسط الساحة مثبت عليها سارٍ ثبت عليه العلم، لكن العلم لم يكن مرفوعاً، ورفعت رأسي لرؤية ارتفاع سارية العلم فكانت تشير إلى قول الشاعر :

سوف نلتقي هنا فإن عويلك مرتفعاً.

(مظهر)

ويوجد قبر متهدم في الناحية الشمالية من الساحة؛ حيث تحاول غصون شجرة النيم أن تلقى بظلالها عليه لكنها لم تفلح في هذا الأمر، وتوجد قوة صغيرة عند رأس القبر ولكنها خالية الآن من المصباح؛ ولكن لون الكوة يوحي بأن هناك مصباحاً كان يضيء يوماً من الأيام..

إن مصباح أمانى السنين احترق في هذا المنزل.

(إنشاء)

ولا أعلم لمن هذا القبر؟ ولا يمكن أن يكون هذا قبر "تشاندي بي بي"؛ لأن قبرها يقع خارج القلعة على هضبة مرتفعة، على كل فإنه لا يمكن أن يكون لشخصية مجهولة لأن جميع مباني القلعة هُدمت ولم يهدم هذا القبر.

- سبحان الله .. يوجد أناس مدفونون في هذا المكان، وكان من الجدير أن يكون هذا القبر القديم خراباً، ويكون المكان عامراً مثلنا نحن السجناء:
هذا قبر قتل عينك السوداء الثملة فلو صار خراباً لأصبحت هي أيضاً خراباً

كانت جميع حجرات "السجن" مفتوحة ناحية الغرب، وفي انتظارنا، وجاءت أول حجرة في الصف من نصيبي، وكان أول عمل قمت به بمجرد دخول الحجرة أنني تمددت على السرير المنصوب، واسترحت عليه وكأني لم أقم منذ تسعة أشهر، ثم وضعت رأسي على الأريكة من الساعة التاسعة واستيقظت في الساعة الثالثة صباحاً..
إننا لم نتر من أجل القنعة.

فإن التنبلة قد وصلت إلى العقل الباطن

(غالب)

استغرقت في النوم تقريباً من الساعة الثالثة حتى الساعة السادسة، ثم وضعت رأسي على الأريكة في الساعة التاسعة واستيقظت في الساعة الثالثة صباحاً..
إن السهم في القوس ولكن الصياد ليس في الكمين،
وقد استرحت كثيراً في قفص آمن.

نهضت من نومي في الساعة الثالثة؛ فكنت نشيطاً وأشعر بالحياة، ولم يكن عندي ثقل في رأسي ولم تكن لدى آثار للإنفلونزا، فأحضرت على الفور السخان الكهربائي وأعددت الشاي، وجلست أمام الكوب والبراد، وتحيلت أنني أتحدث إليك وأقص عليك هذه الحكاية الطويلة:

لا قصة أحلى من قصتنا فقد كتبنا تاريخ العمر كله

(نظري)

فلم تكن مثل هذه الراحة والنوم العميق من نصيبي منذ أشهر، ومن المعلوم أنه عندما غادرنا بومباي صباح أمسى نظفنا أيدينا من جميع الأقارب والأصدقاء وتركنا كل هذه المتاعب، وما أفضل ما قاله الشاعر "يغمائي جندقي" في هذا الصدد:

أنت أخطأت القول، لماذا رهنْتَ سجادة التقوى ؟
كنت قد ارتديت لباس الزهد، إن لم أفعل هذا ، فماذا كنت أفعل

(يغما)

وهذا بيت شعر آخر مشهور جدًا من هذه الغزلية ينسب قوله
لـ "مجتهد كاشان":

سلبت الروح من شيخ المدينة بتزوير الإسلام
إن لم أقم بالمداواة مع هذا الكافر فماذا كنت أفعل .

فمن الصعب على الشاعر أن يأتي برديف، فما أفضل ما جاء به، فهو لم يتكلم،
بل يصرخ وأنا منذ ذاك الوقت احتسى فنجانا إلى الآخر من الشأى وأردد هذا المقطع:
إن لم أرطب رأسي بالكأس ، فماذا كنت أفعل ؟

(يغما)

أنا مندهش من روعة هذا الشعر، فمن قرأه يقول "سبحان الله"؛ لأنه استعمل
هنا "جه من كردم" وكان هذا المصراع قد أنشد خصيصًا لهذه المناسبة، لكنه لا يعرف
ذلك وعندما نقرأ هذا الرديف مرارا ونؤكد على كلمة "جه من كردم" تتجلى أمامك
صورة كاملة للوضع الحالي.

إن ما أكتبه لك هو من أجل الكتابة فقط ولا طائل ولا هدف من وراءه، ولا أعلم هل سيصلك صوتي في حالتي الراهنة أم لا؟ ولكن ماذا أفعل؟ فلم أستطع كبح كبح نفسي من سرد قصتي، وهذه الحالة نفسها هي التي عبر عنها مرزا غالب الدهلوي بقوله بـ(ظلم ذوق الكتابة)..
لكنني مظلوم بذوق الكتابة.

أبو الكلام

خطاب - ٦

قلعة أحمد نجر

١١ أغسطس سنة ١٩٤٢م

صديقى المكرم!

هذه هى التجربة السادسة للاعتقال فى حياتى، وقد حدثت التجربة الأولى سنة ١٩١٦م وقضيت فى السجن أربع سنوات متتالية، ثم تم اعتقالى فى سنوات ١٩٢١م، و ١٩٣١م، و ١٩٤٠م، المرة تلى الأخرى والآن تمر قافلة العمر من هذا المنزل نفسه :
إننى أود أن أستأنف الطريق المقطوع مرة ثانية

(نظيرى)

فلو أحصيت الفترة الزمنية لاعتقالاتى الخمسة السابقة فإنها لن تتجاوز سبع سنين وثمانية أشهر، وقد انقضى من عمرى ثلاث وخمسون سنة، ولو أحسب هذه الفترة لوجدتها نحو ٧٪ من عمرى قضيتها فى السجن، وكأني كل سبعة أيام فى حياتى أقضي يوما فى السجن، وكان حكم يوم السبت من الأحكام العشرة - أي إن اليوم السابع من الأسبوع يعتبر يوم عطلة مقدسا، وهذه العطلة موجودة أيضا فى المسيحية والإسلام، لذلك جاء يوم السبت من نصيبى، ولكننى أقضي إجازتي بهذه الطريقة، ولأننى ملتزم حسب المنهاج الذى ذكره خواجه يشيراز^(١).

ولست أقول لك : " كن طوال السنة عابدا للخمر والشراب "

ولكننى أقول لك : " اشرب الخمر ثلاثة أشهر وكن التسعة الباقية درويش الأصحاب

(حافظ)

(١) كتب هذا الخطاب فى ١١ أغسطس سنة ١٩٤٣م؛ وقد مر على السجن بعدها ستين وأحد عشر شهرا وبذلك صار مجموع السنوات التى قضيتها فى السجن عشر سنوات وسبعة أشهر بدلا من سبع سنوات وثمانية أشهر، وأنا لا أريد أن أشكو أى شكوى من هذه الإضافة، ولا شك أننى متأسف حقا لأن مناسبة حدث اليوم السابع قد اختلت، وفقدت إجازة يوم السبت. (المؤلف)

وعندما أدق النظر في الأوضاع الحالية، وأسبر غور مناسبتها، أتعجب لها فلماذا قضيت من السجن سبع سنوات وثمانية أشهر فقط؟ لماذا كانوا سبع سنوات وثمانية أشهر؟ إن الطائر الأسير لا يئن من أجل الخلاص إنه يتأسف على الزمن الذي لم يكن فيه أسيرًا

(نظري)

ومن بين الأوضاع الراهنة التي تحاصرني من الجهات الأربع؛ فإنه يتسنى لسكان البلد أن يسلكوا طريقين ليعيشوا حياتهم، هما: أن يعيشوا حياتهم بلا إحساس، أو بلا مبالاة، وعلى كل حال فإن الحياة الأولى يمكن أن تعاش في كل مكان، والثانية تعاش داخل أسوار السجن ولا يمكن أن تعاش في مكان آخر.. كان كلا الطريقين مفتوحين أمامي، فلم أستطع اختيار الطريق الأول فأخترت الطريق الثاني مضطرا.. إن الدرويش لا يستقل ألف أسلوب لطاعة الحق ولكنه لا يرغب في السجود للصنم في الناصية المشتركة

(غالب)

إن ما اقترفته من جرائم في حياتي قد نلت عنه الجزاء، وعندما أفكر في هذا الأمر أجد أن عدد الجرائم التي لم أرتكبها أكثر، وتبقى الحسرة في القلب من الجرائم التي ارتكبتها، وهنا نلقى الجزاء عن الجرائم المرتكبة، ولكن من أين أطلب جزاء الحسرة عن الجرائم التي لم أرتكبها؟

الذين لم يرتكبوا الذنوب ينالون الحسرة أيضًا، يارب ألا تقتصر من الذين يرتكبون الذنوب؟

فعندما واجهت الاعتقال للمرة الأولى عام ١٩١٦م؛ سنحت لي الفرصة كي أبحث عن تأثير ذلك في طبيعتي، وكان قد مر من عمري في ذلك الوقت سبع وعشرون عاما، وكانت مجلة "الهلال" تصدر باسم "البلاغ" وكنت قد أسست دار الإرشاد وكانت مشاغل الحياة الكثيرة تحيط بي من كل جانب، وكنت مثقلاً بمختلف الأنشطة والعلاقات مع الناس، وفجأة وفي يوم واحد انتهت هذه الأنشطة من حياتي،

واخترت حياة العزلة والانزواء ودخلت السجن بدلا من حياقي الغارقة في المشاغل، وفي الحقبة إن التغيير في طبيعة أحوالي المفاجئة كان ابتلاء كبيرا بالنسبة لى في الحياة الثورية، ولم يكن هذا الابتلاء في الواقع لأنني غادرت بيتي العامر ولكن لأنني ذهبت للإقامة في بيت خرب^(١).

لم تكن خسارة بل جنونا، فقد خرب البيت من الابتلاء
فأنا لا أستبدل الصحراء الشاسعة بمترين من الأرض

(غالب)

ولكن عندما بدأ رد فعل هذه الحالة بعد فترة من الوقت؛ علمت أن المسألة لم تكن يسيرة كما أحسست بها في بداية الأمر ولم تنقض محتتها حتى الآن، ولكنني لم أمر بهذا البلاء من قبل ولكن سيحدث هذا معي الآن.

وعندما تحدث مثل هذه الأمور فجأة لا يمكن الشعور بصعوباتها في البداية بشكل كامل، حيث تنشأ في النفس عاطفة قوية للمقاومة ولا يريد المرء أن يتأثر بها، ويريد المقاومة كالمتمصر ويخرج بنتيجة منها حيث تطرأ عليه حالة من النشوة والحماس، وعندما تنشأ هذه النشوة العارمة لا يشعر بالآلام، ولكن يشعر بالخموم بعد أن تزول عنه حالة النشوة ويبدأ في التأؤب ويشعر بالآلام المبرحة في جميع أنحاء جسمه، وهكذا فقد مررت بهذه الحالة نفسها وهي المرحلة الأولى من الحماس والانقطاع الفوري للعلاقات، والخسارة المفاجئة في التجارة، وتعطل جميع المشاغل بجرة قلم ولم يكن يجذبني أي أمر من هذا الحماس، وقد خرجت من مدينة كلكتا بطمأنينة كاملة، وأقمت في مدينة رانشيفي وهي منطقة غير مأهولة.. ولكن عندما انقضت الأيام بدأت تظهر اللا مبالاة على طبيعتي؛ وبدأت أشعر بالشوك في قلبي جراء هذا الوضع، وكانت في هذا الوقت نفسه طبيعتي قد واجهت هذه الحالة الانفعالية؛ وقد وضعت

(١) أخرجتني حكومة البغال من البنغال في ٧ أبريل عام ١٩١٦م، وذهبت إلى مدينة رانشي وأقمت في "مور آبادي" خارج المدينة ثم اعتقلتني الحكومة المركزية مرة أخرى في المكان نفسه واستمر اعتقال حتى سنة ١٩٢٠م.

قالبًا خاصًا لهذا الوضع، وقد مضت ستة وعشرون عاما منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وهذا القلب يساعدني حتى الآن، وقد نضج بهذا القدر الذي لا يمكن كسره ولكنه ينشئ .

كانت الفلسفة هي الموضوع المحبب لديّ بشكل خاص منذ أن كنت طالبا، وقد ظل هذا الحب في الفلسفة يتضاعف مع تقدمي في العمر، ولكنني عرفت من هذه التجارب أنني لا أستطيع أن أجد العون الكافي من الفلسفة كي أستسيغ مرارات الحياة العلمية، ولا غرو فإن الفلسفة تخلق اللامبالاة في الطبيعة، نحن ننظر إلى أحداث الحياة وآلامها بطريقة سطحية وفوقية، ولا يمكن حل ثبات الانفعالات الطبيعية للحياة بالفلسفة؛ ولكنها مثال ضروري يمنحنا التسلية ولكن تسليتها تسلية سلبية بأكملها وخلود دائم من تسلية إيجابية، وهذا النقص سوف يقلل في اليأس والنتيجة أنه يبشر بأي أمل، فلو سحبت راحتنا منا سوف تنصحنا الفلسفة مثل العصفورة العاقلة في كيلة ودمنة (الأسفار الخمسة): (لاتأس على ما فاتك) ولكن هل نعثر على شيء بعدما يفوت؟ ولا نخبرنا الفلسفة عن هذا الشيء المفقود، ولهذا لا يمكن الاعتماد عليها مطلقا في تحمل مرارة الحياة. العلم يخبرنا بالدلائل الثابتة عن عالم المحسوسات، ويخبرنا عن مذهب الجبر في الحياة المادية بلا رحمة، ولهذا لا يمكن أن نجد العقيدة بطمأنينة في سوق الفلسفة؛ لأنها من المؤكد تطفئ جميع مصابيح الأمل السابقة ولن يضاء مصباح جديد، ولو كان اعتمادنا على النظر في مآسى حياتنا فإلى أي جانب تنظر؟

من ذا الذي لديه قدرة على الحفاظ على القلوب فعندما تكسر الزجاج يستحيل إصلاحه

(سودا)

ونحن مضطرون كي ننظر إلى الدين؛ وهذا هو الجدار الذي يمكننا أن نتوكل عليه..
إنهم يرمون القلب المكسور في ذلك الحى لدرجة أنك أنت نفسك لا تعرف أين كان الكسر.
(نظيري)

لا شك أن اليقين بالعالم القديم للدين وقدرات ما فوق الطبيعة كانتا تحيمان على قلوبنا وعقولنا، والآن لم يتبق لنا منهما شىء، والآن يتجلى الدين أمامنا أيضًا وقد جاء كي يلبس العقل والمنطق عباءة بسيطة بلا ألوان، وينبغى أن يخاطب عقولنا أكثر من قلوبنا، مع هذا يمكن أن يمنحنا الطمأنينة واليقين به، ونستطيع أن نلتسبها منه..
أظهر لى بابًا آخر، فللى أين أذهب إذا أنت طردتنى.

(يبدل)

فالفلسفة تفتح باب الشك الذى يمكن أن يغلق بعد ذلك، فالعلم يمنحنا الدليل ولكنه لن يستطيع أن يعطينا العقيدة، في حين أن الدين يعطينا الإيمان ولا يمنحنا إقامة الدليل، ولكن الدين يمنحنا العقيدة كذلك ولا يمكن أن نؤمن بالأشياء التى نستطيع إثباتها فحسب، بل ويجب أن نؤمن ببعض الأشياء التى لا نستطيع إثباتها ولكن نضطر إلى أن نؤمن بها.

((بالإيمان والاعتقاد وحده يمكن أن نعتقد فيما لا يمكن تصديقه)).

وفى الحالات العامة يرث الإنسان الدين من العائلة، وأنا أيضًا حصلت على الدين بالوراثة ولكننى لم أقنع بالعقائد الموروثة؛ لأن عطشى كان أكبر من ذلك. ومن أجل الحصول على الارتواء بحثت بنفسي عن الطريق الجديد خارجا عن الأساليب القديمة وأنا لم أكمل بعد الخامسة عشرة من عمرى، إلى أن ظهرت أمامى العقائد الموروثة بأشكال وصور لم أطمئن لها، وقد واجهت اختلاف المذاهب الداخلية فى الإسلام والتى جعلتنى فى حيرة من أمرى أمام الدعاوى المتعارضة، والأحكام المتصادمة، وعندما تقدمت خطوات إلى الأمام واجهت النزعات العالمية للدين نفسه والتى جعلتنى أنتقل من الحيرة إلى الشك ومن الشك إلى الرفض والإنكار، ثم ظهر لى بعض نزاعات الدين والعلم فانتزعت لى ما بقي من العقيدة، والأسئلة الضرورية للحياة التى قلما نتذكرها فى الحالات العامة، ظهرت الواحدة تلو الأخرى وخيمت

على العقل والقلب، مثلما ماهية الحقيقة وأين هي؟ وهل هي موجودة أم لا؟ وإن كانت موجودة فهل هي واحدة؟ لأن الحقيقة لا يمكن أن تزيد عن واحدة؟ فلماذا تختلف الطرق إليها؟ وهل اختلفت فقط أم تصادمت وتعارضت؟ ومن ثم فإنه على الرغم من جميع تلك الحروب والاختلافات والنزاعات فإن العلم واقف وفي يده مصباح للحقيقة الدامغة والحكمة العصماء التي لم تنحن أمام الأساليب المتخصصة والمتنازعة، وإن جميع الظلمات المغمة بأسرار العادات والتقاليد تنير بلا رحمة، ومن ينظر إلى الجنس البشري نظرة احترام وتبجيل تتبدد الواحدة تلو الأخرى.

وهذا الطريق يبدأ دائماً بالشك وينتهي بالإنكار، وإذا توقفت الأقدام عليه فلا تجد سوى اليأس وقبض الريح..

واجهت المتاعب في كل مكان، ولم أستدل على عنوانك، فماذا يفعل العاجز البائس؟
(غالب)

وأنا بنفسي قد مررت بتلك الأحداث لكنني لم أتوقف؛ لأن ظمئي لا يقنع باليأس، أخيراً هدتني هذه الحيرة والأسفار العديدة التي مرت بمراحل مختلفة إلى عالم آخر جديد، وعلمت أن في هذه الظلمات الدامسة أوهاماً وخيالاً وسبلاً متعارضة والمزايا والاختلاف، والمصباح المضيء الذي يسير بنا إلى الهدف المقصود للاعتقاد واليقين، ولو أردنا نبع السكون والطمأنينة لوجدناه في المكان ذاته، والعقيدة التي فقدتها عثرت عليها في طريق البحث، والسبب هو أن علة مرض أثبتت في النهاية أنها دواء الشفاء..

تداوت من ليلي بليلى عن الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر.

(قيس)

لا غرو فإن العقيدة التي فقدتها كانت عقيدة تقليدية، أما العقيدة التي وجدتها الآن فهي عقيدة حقيقة..

إن الطريق الذى سلكه الخضر كان بعيداً عن عين الماء،
وقد أخذنا شفاه الظمأ من الطريق الآخر .

(عرفى الشيرازى)

ولا يمكننا أن نتلمس هذا الطريق ما دمنا نضع على أعيننا نقاب الإيمان
التقليدي وجمود العقائد الموروثة، وعندما تكشف هذا النقاب يتجلى هذا الطريق
أمامنا بوضوح ونجد أن الطريق لم يكن بعيداً ولم يكن مفقوداً، وهكذا تكون أخطاؤنا
عندما أغفلنا عيوننا التى أضاءها النور:

فى صحراء الأمل لا خوف من الحيوانات والوحوش،
والحل هو أن يظهر بلاؤك من داخلك أنت أيضاً.

(فيضي ناجورى)

واتضح لنا الآن أن الدين الذى كنا نعتقد حتى اليوم أين كان من الدين؟ ولم
يكن هو الدين بل كان وهماً مملوءاً بالعادات والتقاليد..
كنا نظنه فضلاً وكهلاً حتى النهاية ولكن كان العشق عاراً وفضيحة.

(خسرو)

فالدين الذى نرثه عن الآباء والأجداد هو دين جغرافى ويجب علينا أن نؤمن
بما هم يؤمنون به، وهم عندما يمهدون طريقاً عاماً فى أرض خاصة ويسلكه الجميع،
فعليك أيضاً أن تسلكه، وتعتقد أنه دين لإحصاء أعداد السكان، وهناك خانة للدين
فى هذا الإحصاء يندرج تحتها الدين الإسلامى وهو دين رسمى، وكأنه قالب صيغ
من الرسوم والاختلافات، وأنت لا تتعرف عليه فحسب بل تمتزج به، ولكن علاوة
على جميع الأديان تظل هناك حقيقة للدين نسميها بالدين الحقيقى للمدح والامتيان،
وقد يمحى هذا الطريق..

ونفس هذه الورقة التى اسودت هى دليل على هذا الأمر

(نظيرى)

وينكشف النقاب عن هذه الحقيقة بعد أن وصل إلى هذا المقام، والحقيقة أن هذا النزاع ليس نزاعاً بين العلم والدين، بل هو نزاع من يدعى أن هذا الدين هو دينه في الظاهر، ويدعى أنه عالم به وأنه أسس قواعده، ولكن في الحقيقة لا يوجد هناك نزاع، وعلى الرغم من أن الدين والحقيقة يسلكان طرقاً مختلفة لكنهما في النهاية يصلان إلى مكان واحد..

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذات الجمال بشير .

(أبو نواس)

فالعلم يتناول عالم المحسوسات، والدين يجبرنا بها وراء المحسوسات، وهناك تعدد في دوائر كل منهما لكنه ليس تعارضاً، والمحسوسات التي ما وراء المحسوسات ندرك أنها معارضة للمحسوسات ومن هنا يبدأ سوء فهم عقولنا..

لوبيقى ستار على وجه الحقيقة فالذنب ذنب عيننا التي تعبد الصورة

(نظيرى)

على كل حال؛ فإن طمأنينة الدين ليست طمأنينة سلبية لآلام الحياة، بل طمأنينة إيجابية كذلك، لأن هذه الأعمال تلقنا القدوة الأخلاقية "moral values"، وهذا هو اليقين الذى لا يمكن أن نجد نوره في مكان آخر، ويجبرنا بأن الحياة فريضة يجب أن نؤديها وأنها حمل ثقيل يجب أن نحمله:

إن طليعة قافلتنا ليست بصلصلة الجرس فعشقتك هو دليلنا والشوق إليك هو زادنا

(فغانى)

ولكن هل يمكن أن نحمل الأثقال دون أن نمشى في الأشواك؟ إن أثقال الحياة لا تحمل لأن هناك متطلبات للحياة نفسها ولا بد أن نستفسر عنها، وأن هناك أهدافاً للحياة نلث وراءها ولها، فكيف نعبر عن راحة الحياة ولذتها عندما نغض الطرف عن هذه المتطلبات والمقاصد؟ ولا شك أننا نجرى على فرش الأشواك محملين بأثقال

الحياة، ولكننا نجرى لأنه لا يمكن أن نعيش الحياة ونحن نمشى على فرش من مخمل وحرير، والأشواك أحياناً تتشبث في طرف الثوب وأحياناً تصيب قدميك بالخز؛ ولكنها تحمل طلب الهدف في قلبك الذى لن يتركك تفكر في تضيق ملابسك وجرح قدميك..

إن المعشوق في منتصف الروح فأين المدعى
الزهرة تبت من الرأس فما هو ضرر الشوك
(عرفى)

فالحالات التى تعبر عنها بالراحة والألم في الحياة لم تكن في حقيقتها أكثر من لغز؛ لأنه لا توجد في الدنيا راحة مطلقة ولا ألم مطلق، لأن جميع مشاعرنا وأحاسيسنا من البداية إلى النهاية شيء إضافي.

الجرى والسير والوقوف والجلوس والنوم والموت .

(خاضع التبرزى)

وتتغير الإضافات عندما تتغير نوعية الراحة والألم، ويوجد هنا ميزان واحد ولا يمكن أن نزن كل طبيعة وكل حالات الإحساس، وأن نزن به آلام الحياة، والميزان الذى نستخدمه لراحة الفلاح وألمه لا يمكن أن نزن به معيار راحة خبير في الفنون الجميلة، أو كما يجد الرجل عالم الرياضيات اللذة في حل مسألة رياضية، ولا يمكن أن تجد هذه اللذة في قصور العشاق، وأحياناً تمتد على فراش من الورود ولا تجد الراحة، وأحياناً نعدو على الأشواك ونجد لذة جديدة للسرور والراحة في كل وخزة من الشوك ..

من أجل زهرة واحدة يجب تحمل مائة شوك .

(جامى)

ولا أحد يمنحنا الإحساس بالألم أو الراحة من الخارج؛ ولكنه إحساسنا أنفسنا هو الذى يجرح أحياناً ويعالج أحياناً أخرى؛ وأن حياة السعي والطلب هما في حد ذاتهما من أكبر لذات الحياة بشرط أن يكونا ذلك في طريق هدف ما:

لا يشعر السالكون بتعب الطريق فالعشق هو الطريق وهو نفسه أيضًا المنزل
(حافظ)

وكل الذى أتفوه به لا يعد فلسفة بل هو حالة الحياة العامة، وواردات الحب
والعشق لا تحدث لأي إنسان، وأن كل إنسان لا يستطيع أن يشارك فيها، ولكن تجد
كثيرا منها عند الذين يعرفون طرق الأوباش والرنود المتهتكين؛ ولكن لو استفتوا
قلوبهم هل يجدون في طريقهم مرارة الألم والحزن أم يستمرون في اللذة والراحة؟
ألا يقدر الزاهد على التعمق في أهدايه السفاحة
امسك الشريان وتلذذ بمشاهدة المشرط .

(حزين)
والناس لا يمكن أن يعيشوا حياة بلا هدف ولا بد أن تكون هناك علاقات
وروابط كي يعيشوا الحياة من أجلها، وهذا الهدف يتشكل بأشكال مختلفة أمام
الطبائع المتباينة ..
الزاهد يرتبط بالصلاة والصوم أما سرمد فإنه مرتبط بالخمر والكأس
(سرمد كاشاني)

ويستطيع كل واحد أن يقتنع بأعمال حياته من حين لا يقنع البعض بذلك ولا
يستطيع أن يقنعهم أحد؛ لأن هناك اختلافاً بين الحالتين، وأكثر العطشى يرتون من
هذه المقاصد وينشغلون بها، ولكن البعض الآخر أصحاب طبائع مختلفة ولا يمكن أن
يكتفوا بهذه الأعمال فقط ويريدون الحياة المضطربة ..

لا كى جديد يؤثر ولا جرح قديم يؤلم
فيا رب أعطني قلباً فإننى لا أريد هذا القلب عديم الروح .
(عرفى الشيرازى)
فبعض الناس يرتبطون بالأعمال فقط، وبعض آخر يرغبون في أن يكون هناك
اضطراب في أعمالهم ..

في هذه الروضة حيث إن الهواء هو الوسم المزين للندى
يجدون التسلية بألف اضطراب .

(بیدل عظیم آباد)

والخاملون الذين لا يعرفون ألم الهدف لا يمكن أن يرووا ظمأهم، ولا يرغبون
في تلك الأهداف التي تظهر لهيب الاضطراب والتي تؤدي إلى إثارة الضوضاء دائماً،
ويمزقون مجامع ثياب الوحشة دائماً ليمسك الناس بطرف ثوب الدلال:
عشرته معي هي الألفة بين الموج والساحل
معي لحظة بلحظة ودائماً هارب مني.

(كليم همداني)

يا من يدك بعيدة ويصعب الوصول إلى ذيل ثوبه ،
ولماذا تحاول بلا فائدة فمجامع ثوبه قريبة .

(آزردة)

والأهداف التي يلهث وراءها الناس ويتعقبونها بجنون تترأى لهم أحيانا
قريبة، وأحيانا بعيدة، وعندما تكون قريبة يمدون أيديهم ليأخذوها، وعندما تكون
بعيدة ويحاولون أخذها فإنهم لا يستطيعون ويجدون سراباً..
عشرته معي هي الألفة بين الموج والساحل
معي لحظة بلحظة ودائماً هارب مني

(كليم همداني)

ولو نظرنا إلى هذا الأمر من وجهة نظر نفسية، يتجلى لنا جانب آخر في هذا
الصدد، لا يمكن أن يشاهده إلا ثاقب النظر، فالراحة والسكون على سبيل المثال لا
يتشابهان، لأن التشابه - في حد ذاته - هو حياة بلا ملح ولا طعم، وأن التغير حتى لو
كان من حالة الطمأنينة إلى حالة الاضطراب هو تغير، إن التغير - في حد ذاته - هو
منتهى اللذة في الحياة ويقولون في اللغة العربية ((همضوا مجالسكم)) أي غيروا من

مذاق مجالسكم؛ ولذا فإن الذين يستطيعون التلذذ بالحياة هم الذين يودون أن يتجرعوا المرارة من الجرعة الأولى، وبناء على هذا عليكم أن تغيروا من مذاق الحياة، وإلا فإنكم لن تعيشوا تلك الحياة وتصبحون وتمسون مثلها، وما أجل ما عبر به "خواجة داد" عن هذه الفكرة :

لقد سئمت من هذه الحياة أيها الحضر إلى متى سوف أعيش ومتى أموت.
(درد)

إن من يشعر باللذة هو الذى يعرف كيف يفقد شيئاً، فكيف لمن لم يفقد شيئاً أن يعرف لذة الحصول عليه؟ وقد عبر الشاعر نظيري عن هذه الحقيقة بقوله:

ذلك الذى أضاع ابنه فى كوخ الأحران ، وجده
وأنت يا من لم تضع شيئاً، من أين يظهر؟

(نظيرى)

وإذا تقدمت خطوة إلى الأمام بتمعن وأسبرت غور فكرك؛ فهل ستجد أن حقيقة حياتنا لم تكن سوى سلسلة للحركة واضطراب؟ والحالة التى نعبر عنها بالسكون لو أردنا ذلك نستطيع أن نعبر عنها بالموت، وما دامت الأمواج تضطرب فإنها على قيد الحياة، وعندما تهدأ فإنها تصل إلى مرحلة العدم، وينهى أحد الشعراء الفارسية كل فلسفة الحياة فى مصرعين:

نحن كالموج راحتنا هى فتاؤنا حياتنا فى أننا لا نستريح

(كليم همداني)

ومن ثم فإنك لا تستطيع أن تطوى هذا الطريق وأنت تتعلق بعلاقة أخرى، لأن تراب طريق الهدف غيور جداً، ويجذب إليه جميع سجدات جبين المسافرين حيث لا يسجد لأحد غيره، وقد استعارت هذا التعبير من (غالب) :

تراب حية اغتر بنفسه فى جذب السجود
فالسجود للحرم لم يترك أثراً على جبهته

(غالب)

والهدف من هذا الإسهاب أن أفتح اليوم أمامكم صفحة من أوراق
أفكاري المضطربة:

فقد كتبنا على الوجه جزءاً من أحوالنا .

(نظري)

إن هذه الدنيا لها ألف لون وأسلوب، وكل أسير لشرك التخيل فيها يضع أمامه
كأساً للخمول وينسى نفسه ويظل فيها في حالة ذهول عن نفسه:

إن الساقى يصب الخمر للجميع من زجاجة واحدة ولكن
في مجلسه، نشوى كل واحد من شراب مختلف

(فغالى)

ومنا من يرغب في أن يملأ طرف ثوبه بالورود، ومن يريد أن يملأه بالأشواك
وكلاهما لا يجبذ أن يتركه فارغاً، وعندما كان الناس يقطعون ورود لحظات السعادة،
كانت أشواك الحسرة والأمانى تأتي من نصيبي، فقد قطف الناس الزهور وتركوا
الأشواك، وقد قطفت الأشواك وتركت الزهور..

ماذا يعرف قلبك عن شوك ألم المحبة
فإن قبائك الضيق لا يستوعب الزهرة في الجيب .

(نظري)

أبو الكلام

خطاب - ٧

قلعة أحمد نجر

١٥ أغسطس سنة ١٩٤٢م

ليس لنا لسان شكوى من ظلم الفلك
فقد أخذوا علينا عهدًا بختم الصمت .

(طالب آسانی)

صديقي المكرم!

الآن الساعة الرابعة صباحًا، والإبريق مملوء، والكأس مهيأة وانتهيت من دور
واحد، وأمسك بيدي دورا آخر:

في هذا الزمان، الرفيق الخالي من الخلل والمبرأ من الزلل،
هو إبريق الخمر المصفاة ومجموعة من الشعر والغزل
فاذهب وحيدًا، فممر العافية ضيق
وأسرع بأخذ الكأس فلا عوض للعمر العزيز ولا بدل

(حافظ)

إن طبيعتي الآن فارغة من الصراع والنزاع، وقلبي مستريح من التفكير في
هذا وذاك، وعندما أنظر إلى حالي يتراءى لي العالم الذي أخبر عنه خواجه حافظ
الشيرازي منذ ستة قرون خلت، وقد عشت أربعين عاما من حياتي في مشكلات
مختلفة، ولكن عندما أقدم زناد فكري الآن أرى أن حل جميع المشكلات يكون وقت
السحر المنعش للروح.. أنا أحتسى الشاي الصيني وأشرب منه الفنجان يلي الآخر:

ولقد نحمَلنا الغصص والآلام أربعين عامًا طويلة

ولكن تدبير أمرى كان في النهاية على يد الشراب الذي له من العمر عامان^(١).

(١) الشواربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٤٣، ١٧٤. (المترجم)

واليوم فتحت عيني قبيل الساعة الثالثة صباحًا بقليل، وعندما خرجت إلى فناء السجن كان المكان مطبقًا بالصمت ما عدا أصوات الحراس الذين يتجولون خارج الأسوار، ويقوم الحراس هنا بالليل بتغيير الحراسة داخل الأسوار كل ثلاث ساعات، ولكن قلما تجد واحدًا منهم مستيقظًا، والآن أرى أمامي أحد الحراس يفتش بطانية ويغط في النوم وكان يصدر أصواتًا عالية من الشخير؛ فتذكرت فجأة أحد أبيات الشاعر مؤمن خان : لم أجد أحدًا من بين رفاق قافلة السجناء يرافقني وقت السحر فالجميع في هذا الوقت نائمون يتمتعون بالنوم في هذا الوقت ..
لقد كان هناك حارس دائمًا للقافلة
استيقظ فإن عين الرفاق قد نامت .

(نظري)

عندما أفكر في حياتي أجد أن نصيبى فيها على النقيض من أحوال الناس الآخرين في كثير من الأحوال، فهذا الوقت على سبيل المثال يعد أفضل وقت في الدنيا من أجل النوم، وبالنسبة لى يعد أفضل وقت للاستيقاظ، وتلك الساعات عزيزة عند الناس حيث يتمتعون فيها بالنوم اللذيذ، في حين أن انهار هذا الوقت محبب لذي للاستيقاظ فيه كي أستمتع بتذكر المشكلات:

كان ينبغي أن يفيق الناس من رقدتهم من انهار عبراتي
لكن من عجب أن أبكى الآن ولا يستفيق أحد^(١).

(سعدى)

إن أكبر فوائد هذه العادة (السهر)، أنى لا أجد أحد الآن في وحدتى، ولم أعط الدنيا الفرصة كي تتجراً عليّ، فهى عندما تستيقظ أخلد أنا للنوم، وعندما تنام الدنيا أنهض أنا من نومى:

(١) هذا البيت ترجمة محمد علاء الدين منصور : غزليات سعدى الشيرازي ، الطبعة الثانية ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٩ م ، ص : ٩٧ .

نوم الغفلة سرق الجميع وأيقظ واحد

(دكى القمى)

كم أظل مشغولاً بالناس، ولا أضيع أوقاتي، ولا يتافسنى أحد فى خلوتى هذه،
حيث إن محفل طربى وسرورى يتهىأ فى ذلك الوقت فى حين لا توجد عين لترانى،
ولا أذن لتسمعنى، وقد قال الشاعر (رضى دانش) على لسانى ما يلى:

ما أحلى الدندنة وأنا فى ركن الوحدة
لا شأن لى بصراخ وضجيج الزهرة والبلبل

(دانش المشهدى)

إن أعظم ما فى هذا السهر هو أنه يجعل قلبي دائماً مفعماً بالحرارة، فالشعلة
تشتعل فى الصباح لفترة محدودة وبعدها تنطفى، وتصبح رماداً وتظل جذوة النار
مشتعلة تحت الرماد وتظل مشغولة بالعمل الدءوب:

والنار التى لا تحب، تنقد دائماً فيقلبى
ومن أجل ذلك فأنا معزز مكرم فى دير المجوس^(١)

(حافظ)

ولو لم أجد أدوات الشاى طوال النهار؛ فإننى لا أفكر فى إطفاء الموقد وما أجل
ما أنشده الشاعر عرقى:

ليس لك صدر ساخن لزوم حديث العشق،
ما دام ليس فى مجمرتك نار فلا تشتري العود.

(عرقى)

إن عادة استيقاظى وقت السحر هى هدية من والدى رحمه الله عليه؛ فقد كان
من عادته دائماً أنه يستيقظ فى الثلث الأخير من الليل، ولم يغير هذه العادة حتى فى
حالة مرضه، وكان يقول إن النوم فى الليل مبكراً والاستيقاظ فى الصباح مبكراً هما

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربى : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٦٦ .

من أولى علامات السعادة في الحياة، ويذكر أنه عندما كان طالباً في الدهلي كان يتلقى الدرس من المرحوم المفتي صدر الدين في الفترة ما بين سنة الفجر والفرص، وكنت آتية فخراً بهذا الوقت لأن والدي كان يريد أن يدرس لي في وقت خاص لا يوجد فيه أحد، ولم يستطع أن يجد لي وقتاً إلا هذا الوقت فقط، وكان يقول: إن هذه المتعة أخذتها عن جدي وركن المدرسين، وأنه كان يتلقى دروسه عن (شاه عبد العزيز) في الصباح، وكان ينهض في الثلث الأخير من الليل كي يستعد للدرس، وكان ينشد هذا البيت من أشعار خواجة شيراز بتلذذ:

فلا تذهب إلى النوم فقد وصل حافظ إلى أعتاب القبول
بعد ما قرأ ورد نصف الليل ودرس الصباح الباكر^(١)

(حافظ)

كان عمري في ذلك الوقت لا يتعدى العاشرة أو الحادية عشرة، وقد تلقيت هذه الدروس وكان نوم الطفولة يخيم على رأسي، ولكن كنت أتغلب على النوم باستمرار وأستيقظ في الصباح بهيم وأستذكر دروسي بعد أن أشعل شمعة، وكنت أطلب من إخواني إيقاظي عندما يستيقظون، ولكن ما هذه الشقاوة الجديدة، فقد كنت أعتقد أن السهر يضر بصحتي حتى يمنعني والذي من السهر؛ ولكنني كنت مشتاقاً إلى السهر، عندما كنت أستيقظ متأخراً كنت أظل نادماً طوال النهار وكانت هذه البداية لما سوف أعانيه في حياتي المقبلة.

أتأني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

(قيس النجدي)

انظر لقد استخدمت هنا في هذا الشعر تركيباً عربياً (كان أول عهدي بها)، وقد ترجمته بلا قصد؛ لأن هذا المعنى رسخ في الذهن منذ الطفولة وأنا أكتب هذه السطور

(١) المصدر السابق ص: ١٣٦. (المترجم)

وأستمتع استمتاعاً كاملاً في خلوة عالم الوحدة، وأعتقد أنه لا يعيش في هذه الدنيا غيري، ولا أستطيع أن أعبر عن شعوري بالعزلة وحب خلوة الذي يتجول في أماكن بعيدة، ولا يخلو المزاج من الخلو في الخيال في شعر (بيدل)، ولكن لا يخلو المزاج من بعض غزلياته في بحر الطويل:

من الظلم أن يجذبك الهوس، تنزه مع السرو والياسمين
أنت لم تنم من برعم صغير، افتح باب القلب وادخل الروضة
لا تحبذ عناء البحث خلف النوق المذعورة
اعقد عقدة وتخيّل أنها حلقة طرته واخرج إلى الختن .

(بيدل)

وتبدأ حركة الدبابات في داخل القلعة في الساعة الخامسة صباحاً وتنبعث أصوات الناس، وفي الساعة الرابعة تأتي عربية الحليب، فتغير بضجيجها سكون الصباح للحظات معدودة، فقد جاءت ثم ذهبت قبل وقت قليل، وإذا كان هناك صوت في ذلك الوقت يقطع سكون الليل فهو صوت شخير "جواهر لآل نهر" وهو نائم بجوارى لا يفصلنى عنه سوى حاجز خشبي، وعندما يخفت هذا الصوت فإنه كعادته يهذى أثناء النوم، وهذا الهزيان يكون دائماً باللغة الإنجليزية :

وحبيبي ، فما أعرف ، يملك الحسن وما هو أبدع من الحسن^(١) .

(حافظ)

وكان مؤتمن الدولة إسحاق خان الشوستري من أمراء محمد شاهي، وقد اطلعت على هذا المطلع له في كتب التذاكر؛ وما هو إلا الصنعة اللفظية لمنطقة (جكت) لكنني عندما كنت أسمع (جواهر لآل) يهذى في نومه أتذكر على الفور هذا البيت:

من شدة التصاق خيال تلك الزهرة في قلبي الضيق
فقد كان نغير نومي الليلة هو صغير البلب

(إسحاق الشوستري)

(١) هذه الشطرة ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٢٧٣ .

وهذا الهذيان أثناء النوم عادة عجيبة، وهذه العادة عموماً تغلب على طبائع الذين يستعملون عقولهم أكثر في موضوعات عاطفية لجواهر لال نهر وكلها طبيعة وجدانية؛ ولهذا يعمل أعمالاً وجدانية في كلا الحالتين اليقظة والنوم.

وقد مر علي في السجن هنا أكثر من أسبوع، وقد أخذ الجيش على عاتقه مسئولية حراستنا، وعندما تطبق أسماؤنا على الفهرس فإنهم يتحفظون علينا، وقد قام الجيش بذلك حتى لا يكون هناك أي علاقة بيننا وبين من هم في خارج السجن ولا يسألون عنا في أمور أخرى، ووزارة الداخلية في حكومة بومباي تتولى بنفسها جميع الأمور داخل السجن في حين أن المسئولية الرئيسية في يد الحكومة المركزية .

وقد أعدت الحكومة الترتيبات الأولية لإيداعنا في السجن، وقد تم ذلك قبل القبض علينا يوم ٨ أغسطس؛ حيث أرسلت الحكومة لهذا السجن مأمورا كبيرا من السجن المركزي في مدينة (بونا) وجاء بصحبته عشرة حراس، وخمسة عشر سجيناً وكان هذا المأمور لا يعرف ماذا سيحدث من أمور في المستقبل، ولم تخبره الحكومة بشيء سوى بفتح هناك سجن مؤقت وغير دائم (Detention Camp) ويتولى حراسته عدة أيام، وعندما وصلنا كان هناك أمر آخر لأن هذا البائس كان خائفاً لأنني أول ما وصلت كنت حائفاً عليه ولهذا اختفى من أمامي عدة أيام، وعندما يعرف أن يفعل شيئاً يهرع إلى قائد الشرطة مسرعاً وهو بدوره أيضاً أكثر جهلاً منه:

كل باب طرقته وجدت صاحبه غافلاً

(سعدى)

وفي اليوم التالى حضر إليَّ قائد الشرطة والطبيب الحكومي واعتذرا لي، ثم مضى إلى حال سبيلهما، وكان الطبيب يكشف على صدر كل واحد ليعرف ما يخرج من أصوات، ولم أكن أعلم هل كان يريد التعرف على حالة الرئة أم القلوب؟ وقد قام بالكشف عليَّ فقلت له : لا فائدة من الكشف على صدري، ولو لديك علاج للذهن فعليك أن تقدمه لي :

دعك منا أيها المسيح نحن قتلى العشق
فإن إحياءك لنفس واحدة بمائة دم

(نرسى)

على كل حال فقد جاء رئيس الشرطة إلى السجن في اليوم الرابع، وسلمنا خطابا بالأوامر الحكومية وهى: ممنوع عقد اللقاءات، وممنوع التراسل مع أي شخص أو مع الصحف، وعلاوة على تلك الأمور فإن الحكومة على استعداد للتعاون معكم في أي شكوى من الشكوى الأخرى والآن ماذا بقي من أمور كي أشكو للحكومة حتى تبعد عنا؟

وقد قال لي رئيس الشرطة لو ترغب في إحضار أي كتب من البيت أو أي متاع آخر، فاكتب لي قائمة بها وقد أحضرها لي، والحكومة تتصرف في هذا الأمر لأن إلقاء القبض علي كان أثناء السفر ولم يكن لدى أي كتب للقراءة؛ ففكرت لو يحضر من بيتي بعض المسودات وبعض الكتب كي أنتهز فرصة الفراغ في السجن، ولم أكن أرى في هذه الرغبة أي شيء سيئ:

(فالآمال معلقة في الدنيا ولم الأمانى عيبا):

إن غبار اليأس هو نقاب وجه الأمل

فغبار عين يعقوب قد صار في النهاية هو التوتيا

(صائب التبريزي)

وقد كتبت على الورقة الأشياء التي كنت أريدها وسلمتها له، وأخذها مني وذهب إلى حال سبيله، ولكن عندما سنحت لي الفرصة للتفكير أكثر وأمعنت النظر في الوضع الراهن بعد ذهابه، بدأت أشعر بالألم في نفسي؛ حيث كان هذا في الأصل ضعفا في طبيعتي، وقد رضيت طبيعتي بالاستفادة من اهتمام الحكومة، فعندما منعتي الحكومة من اللقاء بالأقارب ومن المراسلة، وهذا الحق لا يسلب من المجرمين القتلة فإننى لي أن أتقبل من هذه الحكومة مثل هذا الأمر؛ لأنها وفرت لنا هذه الأشياء من

البيت؟ وعلينا في هذه الحالة ألا نتقاضى شيئاً من عزة النفس ولا أن نتلقى المن من الحكومة ولا نتوقع منها أي أمنية:

اقطع الوجود قدر استطاعتك بسيف الاستغناء
ما دام الفلك أسقطك من قدمه فبادر أنت بذلك

(حسن الترنشزي)

وفي اليوم التالي، كتبت إلى رئيس الشرطة بأن يعيد لي ورقة القائمة، وأنني لا أريد أن يحضر أي شيء من البيت ما دامت الحكومة تتبع هذا الأسلوب وهذا النهج، وقد اختار جميع أصدقائي السجناء هذه الطريقة.

وأتناول الآن الفنجان الثالث من الشاي، ودائماً ينتهي هذا الدور في الصباح في شرب الشاي بكأسين من الشاي، وتتوقف يدي، وأختم هذه القصة كي تذكرني بالخير، وتستحضرني الآن موعظة الشاعر "خواجة شيرازي" لبائع الخمر العجوز:

أمس قال لي الخمار العجوز ، وليكن ذكره بالخير
قال لي : أبعد الغموم عن خاطرك واشرب الخمر
قلت: " إن الخمر ستطوح باسمي وشهرتي للريح"
فقال : " اقبل كلامي وليكن ما يكون "

لا ورد بدون شوك ولا شهد بدون لدغ
ما العمل إذن ؟ فهذا هو حال الدنيا
املا الكأس بالخمر في كل لحظة وبأذنك وعقلك
اسمع منها حكاية جمشيد وكيقباد

(حافظ)

أبو الكلام

(١) الشواربي ، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ١٢٠ ، ١٢١. (المترجم)

خطاب - ٨

قلعة أحمد نجر

١٩ أغسطس سنة ١٩٤٢م

بما أنهم زرعوا بداخلي بذرة الدموع
فقد قتلوني باليأس الأبدى
أهنتى عديمة الأثر تركت علامة السذاجة على وجهي
قاموا بشوائى بالنار التى ليست بداخلي

(يبدل)

صديقي المكرم !

الساعة الآن تمام الرابعة صباحا، والشاي جاهز أمامي، أريد أن أتخيل أنني
أتحدث إليك وأكتب شيئا، ولكن الكتابة ماذا أكتب؟ كان مرزا غالب يكتب
حكايات المتألم المثقل بالألم، وشكوى صبر قليل الهمة:

أكتب أحيانا حكاية المتألم المثقل وأبث أحيانا شكوى صبر ضعاف

ولكنني لا أكتب هنا عن المتألمين المثقلين، ولا أسمع شكوى صبر قليل الحيلة
(غالب)

وقد تعودت على صبر المتألمين بدلاً من الألم، وأتفرج على ألم ضعافي الحيلة،
وما أجهل بيت شعر عرفى هذا وكان ناصر علي قد أنتخبه من بين جميع أشعاره:
أى لذة أجدها من هذا الألم ثقيل العبء
والذى أعطوني قدره صبرا وثباتا .

(عرفى)

فلو حاولت تطبيق هذا البيت على حالتي سيفهم منه فقط أن أنانيتي ومرمى للذات، ولكن ما العيب في هذا الكلام ؟ وألا أسعد بلذة المعرفة في هذا المكان وأن أظل متأملًا ومشتاقًا، وهذا ما قاله عرفي أيضًا ..

لو أدعى أنا العشق فلا يمكن الإنكار
إذا لم تكن هذه التشوى لى فستكون لغبرى .

(عرفي)

كانت لي سابق معرفة بمأمور السجن بعد عدة أيام من وصولي إلى هناك، وقد حضر كل من الطبيب المدني وحاكم المدينة مرة أو مرتين أيضًا، وفي اليوم الذي جاء فيه المفش العام حضر في صحبته رجل آخر علمت أنه ينتمى إلى المحكمة العليا (آي، إم، إس) واسمه الرائد إم سيندك، وتم تعيينه هنا مديرًا للأمن، وأقول من قلبي من هذا السندكيبندك، وكان يجب أن يحمل اسمًا آخر لطيفًا ومأنوسًا، وقدحي زناد فكري فقد مر علي هذا الحدث في مكان ما، فقد كان حارس هذه القلعة في عصر (جاندي بي) رجلاً حبشيًا اسمه (جيتا خان)، ومن هنا أطلق اسم (جيتا خان) علي ذلك المدير وذاع هذا الاسم في الخافقين :

لقد بلغ اسمه في الكتابة ذرع السماء .

(غالب)

ولم يكن قد انقضى عدة أيام من الآن حتى كان اسم (جيتا خان) يتردد على لسان كل شخص، وبدا كل من السجناء والسجانين يصدحون باسمه، وقال مأمور السجن أمس إن جيتا خان سيعود إلي منزله قبل مواعده، فقلت: من يكون جيتا خان؟ ومن يكون المأمور؟

إننا لم نقل شيئًا وافتضحت الحكاية

(سعدي)

على كل حال فقد ابتلينا بهذا المأمور البائس، والآن تعرفنا علي جيتا خان، فعندما استولى اليابانيون على جزيرة (أندمان) كان هذا المأمور معيّنًا هناك في وظيفة، ونهبت جميع الأمتعة وظل يقصص على الناس قصص الدمار الذي تعرض لها هناك.

إذا كنا نعانى من ألم القلب؛ فإن الزاهد يعانى من ألم الدين .

(هاتفى)

كان الاهتمام الأكبر في هذه المرة هو ألا يكون لنا أي علاقة بما يدور في الدنيا خارج السجن، لدرجة أن ظلال الخارج ليس لها مكان هنا، ووضع مكان إقامتنا في الغالب في طى الكتان، وكان حرب أحمد نجر بمواقعها المليئة بالأسرار تدخل في حكم (مكان ما في الهند) انظر كيف أدى ناسخ هذا المعنى في بيت شعر قديم ..
وكأننا لم نكن في مكان مجهول واسمنا محفور على خاتم مفقود

(ناسخ)

وكان مبنى القلعة الذي وضعنا فيه هنا في الغالب معسكرًا كان يعيش فيه الضباط، وكانوا أحيانًا يجلبون أسرى الحرب فيه، والأسرى الذين أحضروهم للهند في الحرب البوير وضعوا مجموعة من ضباطهم فيه، وفي الحرب السابقة أيضًا اعتقلوا الألمان هنا في الهند، وفي الحرب الحالية أحضرت مجموعة من ضباط إيطاليا من مصر وظلوا معتقلين هنا .

ويقول جيتا خان إنهم كانوا قد افتتحوا فصلاً لتدريب ضباط الجيش هنا قبل مجيئنا، وفي الأمس أزيل دولابا من غرفتي فرأيت سبورة كبيرة سوداء مثبتة على الحائط؛ فقلت في نفسي: لقد أحضرنا ووضعنا هنا غالباً لندرس في هذا الفصل بعض الدروس الباقية من الوحشة والجنون".

لقد مضى العمر في هذا التعليم وما زلت أقرأ الأبجدية

لا أعرف كيف سأتعلم القراءة في ديوانه .

(خاقاني الخرساني)

كانت الغرف المطلة على الجانب الغربي من السور والتي خصصت لإقامتنا، نوافذها مفتوحة على سور القلعة، كما توجد أيضًا كوة (طاقة) فوق النوافذ وكان الهدف من هذا ألا تستطيع أنظارنا الوصول إلى الخارج، وقد أغلق جميع النوافذ بستائر

علي الحوائط وقد طليت الحوائط قبيل مجيئنا بيوم واحد، لأنه عندما جئنا لم يكن اللون الأبيض قد جف، وعندما تضع يدك عليها يبقى أثرها عليها ويثبت هذا النقش ولا يزول:

إن كل وسمه معاصي لي هي من طرفك مثل الحرف الذي لا يمحي من الورقة .
(ذوق)

وهكذا طليت الحائط من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار ولم تترك أي ثغرة، وحتى الكوة حجبت، ومن البديع أنه عندما تفتح النوافذ يفتح أمامنا ميدان فسيح، وعلى الأغلب تمتد أبصارنا حتى إلى الحوائط الحجرية للقلعة، وتعود بعد أن تصطدم بها ولكن وصول أبصارنا إلى هذا الحد يعتبر خطرًا لدرجة أنهم أغلقوا زجاج الكوة ..

لم يبق هاجس تصور حرص الوردة
وقد منحني عدم وجود ريش وجناح راحة عجيبة .

(غالب)

وأبواب القلعة تحت الحراسة ليل نهار، وهناك كتيبة مسلحة تتجول في جوانبها الأربعة، وكانوا يعتبرون أنه من الضروري وجود مزيد من الصرامة من أجل حراستنا وكان الجانب الشمالي من سورنا مفتوحًا من قبل، والآن تم إعداد الحوائط على ارتفاع عشرة أقدام وأعدت بوابات فيها، وعليها الحراسة عسكرية مسلحة ليل نهار، وجميع عساكر الجيش هنا إنجليز وقد أسندت إليهم هذه المهمة، ولا يستطيع أحد الخروج إلى السوق للتسوق سوى مأمور السجن وأحد الحراس، ومن الضروري عند العبور من إحدى البوابات أن تقوم كتيبة الحراسة بتفتيش الملابس، ويقوم الحارس في كل مرة بالتفتيش بعد التعرية، وعندما ذهب ييكي عند مأمور السجن لم يجد أي آذان صاغية، وكان مأمور السجن قد خرج في اليوم الأول فطلب منه أيضًا تفتيش ملابسه، ولا هو ابن ناقة أيضًا (سعدي). كانت عملية إحضار المشتريات من السوق تمر بهذه الآلية؛ حيث كان مكاتب إدارة الجيش عند

البوابة، فيقوم مدير الأمن هناك بالتنسيق معهم من خلال تليفون المكتب، وعندما ياتون بأي بضاعة من السوق يتم إيقافهم هناك أولاً ثم يتم تفتيشهم وبعد ذلك يتحدث الضابط المسؤول في التليفون مع مدير الأمن بأن البضاعة الفلانية وصلت بالحجم الفلاني، وموضوعة في سلة أم مربوطة في منديل، أو معبأة في صندوق، وبعد تلقي هذه المعلومات يذهب مأمور السجن إلى بوابة السور ويأمر بإحضار البضاعة المذكورة إلى مكتب مدير الأمن حيث يتم تفتيشها هناك مرة ثانية؛ وبعد ذلك يتم إخلاء السلة من محتوياتها وتفتيش كل جزء من أجزائها بطريقة جديدة، ولا يتم إخفاء أي ورقة هنا أو هناك، وكان يتم تفتيش السكر والدقيق بشكل خاص لأنه يمكن إخفاء كثير من الأشياء ووضعها في قعره!

والحارس الذي أحضره هنا من مدينة بونا، وقد جاء لراكبة السجناء؛ لكنه هو بنفسه أصبح سجيناً فلا يستطيع الخروج خارج السور قيد أنملة، ولا يمكن إرسال رسالة إلى أهله، ومأمور السجن كذلك لا يسمح له بكتابة رسالة إلى أسرته، لأنه يمكن أن يتسرب خبر عن طريقها، وأخذ يبكي لأنه طلب إجازة لمدة يوم واحد ليذهب إلى "بونا" ولكن لم يستمع إليه أحد، انظر هنا إنه يتأسف.

والضروريات متوافرة في هذه الحالة، ولها تعقدات عجيبة، فعندما تنظر إلى جيت خان تجد أن حل عقدة معه معقد، ولكنه لا يسميها حل العقد، وكانت أول مسألة طرحت هي مواجهة الطباخ، فلا يستطيع أي شخص أن يخرج للخارج؛ لأنه لماذا يصير أسيراً؟ وفي السجن لم يكن من الضروري أن يخرج الطباخ، فعندما تظفر بلقاء الطباخ، فقد ألقى القبض عليه لجريمة خاص ارتكبتها، ويمكن أن يعاقب عليه لفترة زمنية مناسبة لكن مثل هذا يمكن أن يحدث أحياناً بحسن الصدف، لكن في الوقت الراهن يتضح من سوء الصدف أنه لا يوجد أي رئيس للطباخين في هذه المنطقة مطلق السراح..

ولم يعد أحد من الناس يشرب على لحنها، فماذا أصاب الحريفة الشارين^(١)

(حافظ)

وعندما جاء المفتش العام كان يقول: إن سجن "برودا" يوجد فيه سجن خاص بكل مهنة أو حرفة، ولكن لا أعرف سوء الحظ هذا الذي لازم مهنة الطباخين؟ فالسجناء الذين يرسلونهم بعد اختيارهم للعمل هنا كان من بينهم سجينان اتهمتا بتهمة العمل بوصفهم طباخين:

إن الظلم الواصل واحد واليأس واحد .

(غالب)

مع أنهما بريئان من التهمة الموجهة إليهما، ولسان حالهما يكرر هذا البيت لنظيري، وسوف ينالان العدل والإنصاف، ولكن أين يحدث هذا؟

حتى لا أخرج من استيائه منى بلا داع
أعترف على نفسي بالذنب الذي لم أرتكبه .

(نظيري)

وحضر جيتا خان إلى هنا ليتصدى لهذه العقدة التي لا تنحل، وأسمعنا قصص إخفاقاته في البحث والطلب كل يوم :

إذا أخرجت يدًا لا أجد الجيب .

(صائب)

جاء ذات يوم هاشا باشا، وأخبرنا بأن أكبر طباخ في مدين سيدير العمل وقد أخبرني المحافظ الآن من خلال الهاتف بأنه سيباشر العمل من الغد... وهبت نسيمات الصبا وقد طاب صنيعها وكأنها هددهد سليمان الذي أحضر بشرى الطرب من روضة سبأ^(٢)

(حافظ)

(١) الشواربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ١٦٥ .

(٢) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ١١٣ .

ورأيت في اليوم الثاني حقاً أن جيتا يدخل شخصياً، واتضح أنه هو الطباخ الموعود...

وفي النهاية ظهر من خلف ستار القدر .

(حافظ)

ولكن لا نعلم قصة هذا المسكين؛ فقد جاء ولم يقل شيئاً وكان قلق الحال، وكان جبل المصائب قد وقع على رأسه فماذا يطبخ من الطعام وقد بدأ يدق التوابل بعقله وحواسيه.

كان لوني أصفر بسبب كثرة الطيران .

(غالب)

وتكشفت هذه المسائل فيما بعد، واتضح منها أن هذا الطباخ هو صيد حقيقي كان قد وقع في شباك المحافظ، واستعمل معه قوة في سلطته وطمعه براتب شهري قدره ستون روبية، ووقع في شرك الموت، فلو أوصل إلى القلعة على الفور بسلام فمن الممكن أن يظل عدة أيام في المصيدة لكن هناك الآن مشكلة أخرى واجهته، فلم تكن محادثات مركز القيادة بخصوص الإبقاء على الطباخ قد انتهت بعد، فقد كان ينتظر رأي المكتب الرئيسي في "بونا"؛ ولهذا أدخل هذا الصيد فوراً في القلعة ولم يكن يستطيع الخروج، والآن لو سنحت له الفرصة للذهاب إلى منزله؛ فإنه يفكر أن صيته سيضاع في المدينة، ومن الممكن جداً أن يستفيد أي واحد من هذه المناسبة في حينها، تم التواصل مع الطباخ عن طريق المراسلة، فلو منع فأين يوضع بعد ذلك فهو في مكان أكثر أمناً ولا يستطيع أن يصل إليه أي شخص من الخارج..

بعد الانفصال نشبت مشاجرة أخرى

(مؤمن)

كان أصدقاء المحافظ قد أفهموه بطريقة عاقلة، أو خدوعه بحماسة كي يرسله هنا إلى السجن المحلي، لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك أي مكان آمن سوى القلعة

فكانت الهجرة في السجن، وأنه سيصطلى بنار الاعتقال والحبس في السجن ليل نهار وينسى جميع وصفات القلى، ألم يكن هذا الأحمق يعلم أن قدم الطباخ سترلزل في عشق ستين روية؟ وأن بداية العشق تكون سهلة، وبمجرد وصوله إلى القلعة يعد القلعة (مرق اللحم):

فإن العشق ظهر لى سهلا في البداية، ولكن وقعت بعد ذلك الصعوبات والمشاكل^(١).
(حافظ)

وعلى كل حال؛ فقد اتضح أمره في غضون يومين بأي شكل من الأشكال، وفي اليوم الثالث اتسم رده بالصبر والرزانة مثل عقله وحواسه، وكنت أجلس داخل الغرفة صباحًا وكنت مشغولًا بالكتابة، فجأة سمعت في الخارج مزيجًا عجيبًا من الضوضاء والضجيج، وأقول (مزيجًا) لأنها لم تكن أصوات ضجيج فقط بل كانت تمتزج بالصراخ والعيول، واتضح لي أن رجلاً ما يقول شيئًا بصوت مخنوق ويكي أيضًا بين الحين والحين، وكأنه المشهد نفسه الذي نخبرنا به خسروا عن شدة نزاع العشق:

يميل قليلا ثم يذهب أيضًا على رأس الأسطورة

(خسرو)

فخرجت فتراء لي منظر عجيب أمامي؛ حيث كان جيتا خان واقفًا محكمًا غلق السور والطباخ أمامه يتقلب على الأرض، وجميع الحراس يتحلقون حوله، ويصطف طابور السجناء في الصحن، وجميع قوافل السجناء تخرج من الغرف الواحد تلو الأخرى، وكان جميع السكان تجمعوا في هذا الخراب ..
هذا المنزل عامر في هذه الدنيا الخراب .

(مؤمن)

(١) الشواربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ١.

ويقول له جيتا خان: ليست لك الخيرة من أمرك، فاخرج من هنا، ويصيح الطباخ: خروجي من هنا باختياري الكامل وليس لك أي اختيار كي تمنعني، وبعد أن استمعت إلى هذه المناظرة في الجبر والاختيار "Determism and free will" تذكرت هذه القطعة لنعمت خان على التي كان قد نظمها في هجاء مختار خان، والتي كتب لها آزاد البلجرامي شرحًا بحرفية عالية:

ويستخرج هذا الدليل من الجبر ومن الاختيار
وهذا الكلام قد ظل في المنتصف أيضًا فهو أمر بين بين .

(حالي)

وكان معلومًا بين هؤلاء الناس أن الطباخ ينسب إليه قوله:

(حافظ)

ولقد أدرك قوم بالجد والجهد وصال الحبيب

ولكن جيتا خان كان يؤكد على هذا الرأي:

وأحاله آخرون إلى تقدير القضاء ومحض النصيب

(حافظ)

ويرى مأمور السجن شيئًا من حقيقة الحال ولكن ما بين الجبر والاختيار،،

ويطلق عليها الأشاعرة (كسب) ويسمونها بنهور (الإرادة) ..

فيا حافظ إن ارتكاب الذنوب ليس من اختيارنا

ولكن الزم أنت طريق الأدب وقل إنما الذنب ذنبي

(حافظ)

وقد حاول توعية الطباخ ونصحه بأن التمرد بهذه الطريقة ليس جيدًا، وسوف

أخرجك خلال شهر بطريقة ما، وسيسمح لك الذهاب إلى بيتك :

(١) أي اختيار المذهب بين الجبر والاختيار، مثل ما اختاره الأشاعرة من بين المتكلمين المسلمين، ويقوم

على أن الإنسان لا يستطيع الخروج عن إحاطة قدرة الله لكنه يحصله على قوة الكسب- أي العمل وفقا

للإرادة، ويحصل على القوة للإرادة. وقد عبر الفيلسوف شو بنهور عن هذه العقيدة نفسها وهي أن

إرادتنا تستخدم في أصل جميع أعمالنا ولو أن إرادتنا ليست من اختيارنا.

فإن الطائر الماهر إذا وقع في الشباك وجب عليه الصبر والتحمل^(١)

(حافظ)

(ولكن هذه المسألة الآن قد تجاوزت حد قبول النصيحة :

لقد ابتعدت عشرات الأميال عن ديار الحرمان

(سودا)

(وبدأ يمزق الملابس عندما أبلغوه بفترة الشهر الواحد:

لا تلامس الجنون في القلب، ولا تجذب هذه السلسلة

(مؤمن)

وفي المساء جاء جيت خان في هذه الناحية، فقلت له: ليس من المروءة الإبقاء على أي شخص مجبراً هكذا، فاتركه يغادر على الفور، فلو أجبر البقاء فلن نأكل على الطعام الذي يطبخه، وهكذا فقد أطلق سراحه في اليوم الثاني، جاء المحافظ يوم الأحد حسب العادة فعلم أن ذلك اليوم قصير، فسلم فراش حصيرته وتوجه مباشرة إلى محطة القطار ولم يلتفت للوراء ..

لقد تبت وندست على التوبة

أنا كافر ، فلا تقل لي ثانية أنني قد أسلمت

(نظيري)

كانت هذه قصة الطباخ ولكن لم يحدث أن مر يوم هنا دون أن نوجه قصة جديدة، فبعد الطباخ واجهنا مسألة الخلاق، وحتى الآن لم تحل واستيقظنا على سؤال غاسل الملابس، وجيتا خان يقضي كل أوقاته في شحذ أظفاره، ولكن بعض هذه العقد تنهال عليه بسبب رابطة العمل، حيث لا يتلفظون باسمه علانية، هذا الحال نفسه هو حال غالب :

وضع العقدة أولاً في مصلحة الأمل وبخيلة غرز المسار في عمق الظفر

(غالب)

أبو الكلام

(١) البيت والشرطرات الثلاث ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٩١ ، ٤٤ ،

حكاية الخمر والترياق

قلعة أحمد نجر

٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٢م

صديقي المكرم !

كم يعيش الإنسان في حياته الواحدة الكثير من حيوات مختلفة، وأنا أيضًا
قسمت حياتي إلى قسمين، حياة خارج السجن، وحياة داخله..
كن سمندر وكن أيضًا السمكة التي تعيش في إقليم العشق
فسطح البحر سلسيل وقعره نار

(عرفي)

وقديًا رسمت صور كلا الحياتين بألوان متباينة مختلفة عن بعضها بعضًا،
ولعل حضرتك بعد أن ترى إحدى صورها لا تستطيع معرفة الأخرى..
لو قلبت الثوب على ظهره سيرون
أن خرقتي الخشنة ما هي إلا ثوب منسوج بخيوط الذهب .

(عرفي)

فحياتي خارج السجن لا يمكن أن تغير من طبيعتي، وظلت تخيم على مزاي
المشغول الذاهل عن نفسه، والعقل لا يرغب في الخروج عن أفكاره، ولا يريد القلب
ترك زاويته إثر آرائه، ولا تتضايق من أجل المجلس والمحفل، ولكن الصديق الشاطر
يمكن أن يصبح نادرا أيضًا:

إلى متى الإسراع إلى كل ناحية كموج البحر

ولكن لأن سرعة الأحداث تحمل رسالة السجن والاعتقال فإنني أسعى
جاهداً أن أبذل القلم عن نفسي، وأخرج عقلي السابق من رأسي، وأرغب في أن أملأ
مكانه عقلاً جديداً، ويرى طاق حريم القلب أنه أصبح خالياً، فأحاول جاهداً بناء
رسوم ونقوش جديدة وأعيد ترتيبها وتنسيقها مرة أخرى:

لقد حان الوقت فإنهم مرة أخرى يجعلون الحرم معبداً للأصنام

(غالب)

فإلى متى يكون نجاحي في عمل هذه الصورة المتغيرة وستستطيع نظرات
الآخرين الحكم عليها، ولكن نفسي أن يتحقق مثل هذا الفوز والنجاح من أجل زيف
الحال وخداعه، فأنا في أكثر الأوقات أنسى حياتي السابقة، ولا أستطيع تحمل عودتها
ما دامت لم أخرج للبحث والتفتيش عنها :

القلب حتماً مطمئن فالغم ليس بسبب الخلل

لولا أفكار الناس ما كان هناك اضطراب

(نظيري)

ولو حضرتك تراني في هذا العالم تعتقد أن حياتي السابقة وصلت حتى بوابة
السجن وقفلت عائدة، والآن تجرب الحياة الأولى الحياة الثانية، والحياة التي كانت
حتي أمسي قلما تعرف الأعمال الضائعة والمفيدة وسعادة الخاطر في أحوالها، والآن
صيغت فجأة في قالب مثل هذه الحياة التي لا تعرف أي أمر سوى الوجوه المتبسمة
والأمزجة السعيدة، ومنهج حياتها عيش سعيداً في كل وقت، واصنع من كل حالة
سيئة حالة هائلة:

إن النتائج الحاصل من معمل الكون والمكان جميعه ليس شيئاً،

فاحضر إلى الخمر فمتاع العالم بأجمعه ليس شيئاً

وقد أمهلوك خمسة أيام في مرحلة الدنيا

فاسترح وتمتع زماناً فالزمان بأجمعه ليس شيئاً^(١).

(حافظ)

(١) هذان البيتان ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٤١ .

إن حياتي في السجن ترتب من فلسفتين متضادتين، الأولى: فلسفة رواقية
"stoicism" والثانية: ذاتية "epicureanism":
إن تصالح هذا المكان قد ألقى القطن على الشرارة .

(ببدل)

وفيا يتعلق بالأحوال السيئة، فإن الفلسفة الرواقية تصبح كالمرهم الذي يغمد
تلك الجروح، وتحاول أن تنسى أشواكها :
في أى وقت سىء يُظهر الوجه ماء السيل،
وفي أى صورة جميلة يظهر موج البحر

(نظيري)

وفيا يتعلق بالحياة الهائلة فإننى أستغل زاوية رؤية الفلسفة الذاتية وأحيا
حياة سعيدة:

واعتبر ما يتهيا لك من طيب الوقت فرصة عزيزة وغنيمة كبيرة
فلا علم لأحد بما تكون عليه نهاية الأمور .

(حافظ)

فأنا أمزج في الكأس مزيجًا بين الشرابين، وذوقي في شرب الخمر لا يمكن أن
يهدأ بدون هذه الكأس المركبة ويفهمونها من خلال التعبير القديم، وكأنني أجد
حكاية الخمر والترياق..

وألقى الساقى بالأفيون في هذه الخمر المروقة فلم تبق للشاربين رءوس ولا عمام^(١)

(حافظ)

ولا غرو فإن هذه الوصفة الخاصة من الخمر الممتزجة لا يتحملها كل شارب،
ويمكن فقط لشارب الخمر المعتقة المتدربين على شربها أن يستغلوها، فلا يستطيع
الشاربون لمركب "Gin"، "Vexmuth" (أنواع الخمر الحديثة) أن يتحملوا هذا
الرطل (الجرعة) الثقيلة، وقد أشار مولانا جلال الدين الرومي إلى مثل هذه المواقف:

(١) هذان البيتان ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٣٩، ١٧٨ .

خمرها لا تلائم أي عقل وحقلها لا يطيع كل أذن
(الرومي)

وسوف تقول إن حياة السجن ملائمة للفلسفة الرواقية التي تريد ألا تحفل بالآلام الحياة وراحتها، ولكن أي مكان هنا للمستمتعين بالفلسفة الذاتية؟ والذي يخيب أمله داخل السجن، والأحرار الذين يسعون لمتعة الحياة أن يمكن لهم تهيئة هذا المتاع في الحياة المرحومة في السجن، ولكنني سوف أذكرك بأن المتعة الحقيقية للإنسان هي متعة العقل وليس الجسم، وأنا في فلسفة الذاتية أستفيد من عقلها، وأترك لها جسمها، وكان المرحوم داغ يريد أن يأخذ من الناصح لسانه فقط :

خذ لسان الناصح الذي تقابله يوم هذا شيء عجيب من أجل طول المرام
(داغ)

وأمعن النظر أيضًا فإن هذه خدعة لوهنا وفكرنا، فأنا دائمًا لا نبحث عن المتاع في الخارج، فبعد أن تريل حجاب الخدعة هذه ترى بوضوح أنهم ليسوا خارجين عنا، وأننا أنفسنا موجودون في الداخل، ونبحث عن الموارد المبتسمة بالسرور والمتعة في الأطراف الأربع ولا نجد لها، وهي موجودة في روضات أعماق قلوبنا وتفتح دائمًا ثم تذبل ولكننا جميعا محرومون جميعا منها، والأطراف الأربعة يعلمون بها، ولكننا أنفسنا لا نعلم بها. وفي أنفسكم أفلا تبصرون .

لم أجدك في أي مكان على الرغم من أننا نبحث في دنيا واحدة
وفي النهاية وجدتك في القلب وخرجت من إبطي
(ذوق)

إن طاووس الغابة لا يبحث أبدًا في الحديقة والروضة، لأن روضته موجودة تحت إبطه نفسه، وحيثما يفتح جناحيه في مكان ما سوف تنفتح له روضة مليئة بالألوان العجيبة .

ليست لنا علاقة بالصحراء، ولا نتيم بزهور الروضة .

(سودا)

وأذهب في كل مكان ليروح عن نفسي المتزهون، فالشمس تسطع أيضًا كل يوم داخل حوائط السجن الرابع، والليالي القمرية لا تميز أبدًا بين السجين وغير السجين، وعندما تضاء قناديل السماء في الليالي المظلمة فإنها تتلألأ خارج السجن فقط ويظل أسرى السجن المحن يرسلون رسائل التجلى والظهور، وعندما يرسل الصبح طباشيره، ويبدأ الليل في نشر خيام الشفقة الملونة سوف تترأى له قصور المتعة من خلال الطاقات فقط، بل وسينظرون إليهم بنظراتهم من ثقوب أبواب السجن، فالطبيعة مثل الإنسان لا تقوم بهذا العمل أبدًا حيث تجعل شخصًا ما سعيدًا، والشخص الآخر محرومًا، وهى عندما تكشف النقاب عن وجهها تدعو الجميع إلى نظرة حسنة على وتيرة واحدة، وهذه غفلة فكرنا لأننا لا ننظر بعد أن نرفع أنظارنا، ونظل تائهين في بحثنا وسعينا فقط:

أنت كذلك لست محرومًا من صوت سر وإلا فإن الحجاب هو الذى صنع الستار.

(غالب)

إن الصبح يبتسم كل يوم في هذا السجن، والمساء يختفى كل يوم تحت حجاب الليل وتبدأ لياليه أحيانًا في التلألأ بقناديل النجوم، وأحيانًا تلمع الدنيا ويتجلى حسن الليالي القمرية مثلما تسطع كل يوم وقت الظهيرة ويتجلى الشفق كل يوم، وتغرد الطيور كل صباح ومساء فلماذا نعتقد أن السجن خال من متعة السرور، والمتع هنا متوافرة لدرجة أننا لا نفقدها في أي زاوية فيه، ويكمن معظم المصائب في أننا أنفسنا نفقد عقولنا وقلوبنا، وسنظل نبحث عن جميع أشياءنا في الخارج، ولكننا لم نبحث قط عن قلوبنا الضائعة، مع أننا لو بحثنا عنها سنجد أن متاع السرور والمتعة يتجمع داخل هذه الحجرات :

أى صور أو أشكال بدون القلب بلا معنى
ونفس هذه الورقة التى أسودت هى دليل على هذا الأمر

(نظيرى)

ونحن نستظل بظل كل شجرة لو لم يكن هناك قصر أو إيوان ، ونجلس على
بساط الخشيرة لو لم نجد فرش الحرير المخملى ، ولو لم يتيسر لنا نور البرق من ذا الذى
يستطيع نشر قناديل السماء؟ ولو غالب جمال المنظر عن الدنيا المزيفة كلها، فليغب
فسوف يتسم الصباح أيضًا كل يوم، وسوف يتجلى ضوء القمر دائما ، ولكن لو لم يبق
الجانب الحي من القلب سنسأل الله أين نبحت عن بديل له ؟ وأي جنودة موقدة
سنستعملها من أجل ملء مكانه الخالى؟

أخشى ألا يموت القلب الحي :. لأن عبارة الحياة من حياتك

(درد)

وسوف أخبرك ما سر ملكات معبد القلب في هذا الطريق؟ ولا أسمح بموتها
من قلبي، وسوف لا يكون اضطرابها ضئيلاً أبداً في أي مكان وأي حالة، وأنا أعرف
أن روح حانة الخلوة هي كل نظارة الحياة، فلو خربت لخربت الدنيا كلها :

إننى أتذكر جملة واحدة من مئة عبارة لشيخى
أن العالم لا يخرب ما دامت ألحانه عامرة .

(دركى القمي)

لقد سلب منى جميع متاع المتعة في الخارج، لكن ما دام لم يسلب هذا منى فمن
ذا الذى يستطيع أن يسلب نشوة متعتى وطربي؟

فرأيت هاشاً باسماً ، فى يده قدح من الخمر
وكان يتفرج فى مرآتها على مئات الأشكال ،
فقلت له: " متى أعطاك الحكيم هذه الكأس التى ترى فيها العالم؟ "،
فقال: " فى اليوم الذى صنع فيه هذه القبة الزرقاء ."

(حافظ)

(١) الشواربي، ديوان حافظ إبراهيم . ص ٧٧. (المترجم)

وحضرتك تعلم أنني أستيقظ دائماً ما بين الساعة الثالثة والرابعة صباحاً،
وأحتسى فناجين الشاي المتوالية مثل كأس الصباح، ويكون صوت حالى مثل
خواجة شيراز:

ولقد طلعت شمس الخمر من مشرق كاسك
فإذا أردت صفاء العيش فقم من غفلتك وادفع النعاس عن رأسك^(١).

وهذا الوقت دائماً أكثر أوقات حياتي متعة، ولكن في حياة السجن ينشأ عالم
آخر من نشوة والدخول عن النفس، وهنا لا نجد أي إنسان يستيقظ في مثل هذا
الوقت بعيون ناعسة، ويعد الشاي ويقف أمامي بفنجانى، لهذا فأنا أقوم بنفسى
بإعداده بيد الشوق، وأفتح في ذلك الوقت الشاي الصيني الطازة، بدلا من زجاجة
الخمر القديمة، وأنجاذب أطراف الحديث مع خبير في الفن وأنا أحتسى الشاي، ثم
أضع الكأس والإبريق في الناحية اليمنى من المكتب، فهما تستحقان الأولوية، وأضع
القلم والورق في الناحية اليسرى حيث أضع متاع العمل في المنزل الثانية ثم أذهب
للجلوس على الكرسي ولا تسألني عن شيء بعد الجلوس وأي عالم سأصل إليه؟ فأين
يجد شارب الخمر تلك المتعة والسرور في الويسكي والشامبانيا المعتقة في السرايب
منذ مئة عام مثلما أجدها مهيتة في كل رشفة شاي في وقت الصباح:
فكثيراً ما رأيت في كأس الشراب صورة الحبيب
فهل عندك نبأ بذلك، يا من تجهل لذة احتساء الخمر الصافية^(٢).

(حافظ)

وحضرتك تعلم أنني أستعمل الفنجان الروسي في شرب الشاي، لأن هتوس
الشاي العادية صغيرة جداً، فلو تناولها من لا تذوق له تنتهي في رشفتين، ولكن

(١) المصدر السابق. ص: ٢٨٧. (المترجم)

(٢) الأبيات الأربعة ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٧٧، ٢٨٧، ٧.

حاشى الله (لا قدر الله) فكيف أرتكب مثلما يرتكب من لا تذوق عنده؟ أنا أشرب الشاي وأتجرعه رويدًا رويدًا على الطريقة القديمة، وأرتشف رشقات صغيرة، عندما ينتهي الفنجان الأول أتوقف لفترة وجيزة، في أثناء تلك الوقفة أستطيع التطويل بقدر ما من أجل امتداد الكيف وإطالته، ثم تمتد يدي بالفنجانين الثانى والثالث وأنسى الدنيا بأسرها ومصنع الكسب والخسارة.

ماذا يكون أبدع من التفكير فى الخمر والحام
حتى نرى ماذا تكون نهاية الأمور وخاتمة الأيام .

(حافظ)

وفي ذلك الوقت أيضًا ظلت هذه السطور تخرج من لسان القلم تلقائية، فأنا في ذلك العالم لا أعرف، ماذا يكون حال الدنيا بعد صباح التاسع من أغسطس، وكيف تكون الآن؟

أنا أريد شرابًا مريًا له القدرة على صرع الرجال
حتى أستريح لحظة واحدة من الدنيا ومرارتها وما بها من شر ووبال
وأطرح جانبًا شباك "بهرام"، و "أرفع جام" "جمشيد"
فإنى إن طوفت فى هذه الصحراء فلم أعر على "بهرام" ولم أجد حمارًا وحشياً^(١)

(حافظ)

والوقت الثانى الذى أجد فيه متعتى هو وقت الظهر، وإن شئت دقة التحديد الصحيح للوقت، فإننى أقول وقت الزوال، حيث إننى انتهيت من الكتابة ثم اضطررت لفترة وجيزة من الوقت، ثم أنهض لأغتسل ثم أجهز دورًا جديدًا من الشاي وبعد أن أتففس نفسًا جديدًا أنغمس فى أعمالي، وتتجه السماء فى ذلك الوقت إلى اللون النيلي دون مراوغة، وتترأى الشمس بلا حجاب وتمتلئ لمعانًا وبريقًا، وتفتح كل كوة من رواق القلب، إن زوايا الخاطر وأركانها كم هى ملوثة بغبار الكتابة والأحزان، لكن بعد رؤية أفق الشمس الفسيح ووجه الشمس الملائمة الضاحك انعدم النور فجأة ..

(١) الأبيات الثلاثة ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي . ص: ٢٩٢، ١٩٩٠ .

إلى كوخ من الجأ؟ فلا شمع ولا شمس، وسقفي وبابي مليئان بالفراشات والهاموش

(نظري)

والناس ينقبون عن هذا دائما، ويؤدون الأعمال الكبرى في الحياة، لكنهم لا يعرفون أن الحياة نفسها تؤدي هنا أعظم الأعمال - أي يعيشون الحياة مبتسمين سعداء، هل يوجد هنا أي عمل أسهل من هذا؟! لأنهم لو ماتوا ولم يجدوا أي عمل أصعب من هذا إلا الحياة، فلو حلوا هذه المشكلة فإنهم يؤدون للحياة عملا جليلا:
ولقد قال ينصحنى : " ما فائدة العشق غير أنه يورث الأحرز أن
ولكن اذهب أنت عني أيها السيد العاقل ففائدته أجمل مما تقول .

(حافظ)

كان الصينيون القدماء في الغالب يعتبرون أفضل من الشعوب الأخرى في مسألة الحياة، ومن المقولات الصينية القديمة إن أحدهم سأل (من هو أكثر الناس عقلا؟ أجاب الذي يظل سعيدا أكثر من الجمع). وعلى هذا نستطيع النظر إلى زاوية الحياة من خلال الفلسفة الصينية، وليس في هذا شك أنها صادقة تماما :
ولا تستطيع كل شجرة أن تتحمل عنف الخريف ،
ومن أجل ذلك فأنا خادم لهمة شجرة السرو التي لها وحدها هذه القدرة

(حافظ)

فلو أن حضرتك تعلمت فن العيش سعيدا هنا في كل الأحوال، فإنك تتعلم بهذا أن تؤدي للحياة أعظم الأعمال، والآن وبعد هذا لن يتسع المجال للسؤال وما أكثر ما تتعلم، فعليك أن تعيش سعيدا بنفسك وتقول للآخرين أن يزيلوا الحزن عن وجوههم :
وإذا نزلت ضيقا بالخرابات فأبق على عزتك مع المعربين
فإنك يا روحى تتحمل كثيرا من الآلام إذا استولى عليك الخمار والانشاء"

(حافظ)

(١) الأبيات الثلاثة ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٢٨٥، ١١١، ١١٢ .

وهناك مقولة في العصر الحاضر لكاتب فرنسى هو (أندريه جيد) Andre gide أعجبتني كثيرا وقد كتبتها بنفسى في السيرة وهى: العيش في سعادة ليس احتياجاً طبيعياً فحسب بل مسئولية أخلاقية- أي إن تأثير نوعية حياتنا الشخصية لا يظل محدوداً فقط، بل وتعدى حدوده إلى الآخرين، أو فلتقل هكذا إن فوارق جميع أحوالنا تنعكس على الآخرين، ولهذا فإن فرضنا الأخلاقي أصبحنا أنفسنا كاسفي البال والخطر ألا نجعل الآخرين يخيم على خاطرهم الحزن والكآبة..

إن حزين القلب يصيب محفلاً بأكمله بالحزن والغم

(مخلص)

إن حياتنا هي بيت المرأة؛ حيث تنعكس كل الوجوه في مئآت المرايا في وقت واحد، فلو اعترى الغبار وجهًا واحدًا، سوف يعترى الغبار آلاف الوجوه، فحياة كل فرد فينا ليست حادثة انفرادية وشخصية فحسب، بل وهى حادثة للمجموعة كلها، إن الموجة تنبعث وحيدة على سطح البحر لكن يتولد من هذه الموجة الواحدة ما لا يحصى من الأمواج، وهنا أيضًا فإن كل أمر يحدث لنا، ولا يحدث لنا فقط، وما نفعله لأنفسنا يشاركنا فيه الآخرون، ولو سعدنا أي سعادة لا نستطيع أن نسعد بها إذا كانت الوجوه المحيطة بنا من كل جانب خزينة، فنحن أنفسنا نسعد عندما يسعد الآخرون فعندما يكونون سعداء نسعد أنفسنا، وهذه الحقيقة التى أداها عرقي بأسلوبه الشعاري:

إن أصدقاءك سعداء معًا بلقائك

وأحب أن تكون أنت أيضًا سعيدًا عندما ترى وجوه الأصدقاء .

(عرقي)

ومن الأمور العجيبة أن الدين والفلسفة والأخلاق ثلاثتها أرادت حل مسألة الحياة، وظهر عند ثلاثتها اتجاهات ونزعات ضد الحياة نفسها، ويعرف بشكل عام أنه كلما كان الإنسان يطوف ويتحول بوجه جاف وقلب قاس؛ فإنه ينتمى في الغالب إلى الدين والفلسفة والأخلاق وكان العلم والقدسية من الضروريات من أجل حداد

الحياة، ولم يكن تحقير الحياة والتقليل من شأنها شعارا للكنيسة اليونانية فحسب، بل ووجهة نظر أيضًا للرواقين (stoic)، والمشاين (peripatetic)، وتعمل على عناصرها باستمرار وفقا لها، ونخرج بنتيجة مفادها: أما الكآبة وتقطيب الوجه صارا من الملامح الواضحة للمزاج الفلسفي، فلو استثنينا الطمأنينة والسرور من الأخلاق ومذهبها (Eudaemanism)، والمتعة (Hedonism) فلن يخلو مزاج طبعه العام من الناحية الفلسفية، وما دام الدين والروحانيات في الدنيا فإن جفاف الزهر وبرود الطبع يروجان إلى هذا الحد بدرجة أنه لا يمكن تصور أي وجوه مبتسمة مع زهد المزاج ومعرفة الله تعالى، وأصبح التدين وترمت الطبع كلمتين مترادفتين، لدرجة أن "قآني" يقول :

أخرج آلات الطرب من المجلس
قبل أن يصل من الباب ضيف ثقیل فجأة .

(قآني)

وحضرتك تعرف أن مجلس طرب أهل الذوق لا يضيق مثل زاوية خاطر ضيقى
القلوب والصدور بل يتسع إلى مدى فسيح، وكان نظامى لکنجوى قد صورته هكذا:

وكل من هو في الأفق بوجه عام موجود في هذا المكان
المؤمن والأرمن والمجوسى والنصرانى واليهودى .

(نظامى الکنجوى)

ولكن مع هذا الحد من الرحابة؛ فإنه إذا لم يستطع استيعاب أي شيء هناك فإنه
لا يتسع لضخامة قسوة الزهاد والعائم التي تشبه القباب، فصول عمامة واحدة
يضيق بها المجلس بأسره، ولهذا يقول بعض الأصدقاء بلا تكلف :

حذار من التكلف في مجلسنا أيها الزاهد،

قطعا أنت تصلح هنا ولكن العمامة لا تصلح .

(الخيام)

حقاً فإن المسائل التي لم يستطع حلها في الدنيا بعد جهود مئات السنين؛ فإننا لا نستطيع حلها ببعض طرف فكاهتنا، ومع هذا نؤمن بأننا لا نستطيع إنكار هذه الحقيقة؛ وهى أننا لا نستطيع أن نضع لبنة في مجموعة الصور هذه بعد تصور الوجه الجاف العابس للمجوس والزاهد والفيلسوف، والتي صورتها هنا ريشة رسام الفطرة الدقيقة ويتجلى في هذه الصورة جبين الشمس المتلألأة، ووجه القمر الباسم، ولمعان النجوم، ورقص الأشجار، وتغريد الطيور، وترنم الماء الجارى، وأداء الزهور الملونة ولا يوجد فيها مكان يستحقه أصحاب القلوب الكئيبة والوجوه الجافة؛ وتستطيع أن تكون الحياة نفسها حقاً في هذا المحفل السعيد للفطرة التي تستطيع فيه القلوب السعيدة، والوجوه المتهللة التي تصبح مثل القمر في الليلة القمرء وتلمع مثل النجوم، وتتفتح مثل الورد في صفوف الزهار، أن تتبوأ مكاناً لها وما أجمل ما قاله صائب:

في هذين الأسبوعين وعندما تكون زهرة في هذا البستان
كن أكثر إشراقاً من أسرار السكارى،
معرفة الخير من الشر في الدنيا ليست شأنك
كن حائراً في الحسن والقبيح كعين المرأة .

(صائب)

أبو الكلام

خطاب - ٩ قلعة أحمد نجر

٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٢ م

إن هذه العادات والرسوم الجديدة هي من حرمان عهدنا ،
فالعنفاء لم يكن حامل رسائل في أى عهد.

(نظيري)

صديقي العزيز:

نحن الآن في الساعة الرابعة صباحًا، وهذا الوقت مبهج للروح، وفنجان
الشاي موضوع أمامي، وأنا أبحث عن الأعذار كي أطيل هذا الوقت، ولكنني أعرف
أن أصواتي لن تصل إليك ولكن ماذا أفعل مع طبعي الذي يميل إلى الشكوى
والعوامل، والاستغاثة بها سواء سمعت أم لم تسمع، ويكفيني ذوق المخاطبة وأنا
أتخيل أنني أحاطبك:

إن كنت لم تر خفقان القلب فإن أنا كنا كانت جديرة بالاستماع .

(ظهوري)

مع أن صفاتي كانت فارغة من الداخل، فإنها مليئة بالشكوى وهذا هو حالي
الآن :

بحكاية هوس الطرب نحن فارغون من أنفسنا وملءون بالطلب
ماذا ينتج عن صناعة النحاس سوى أنها تزيد الأنين

(أنيسى شاملو)

كُنت حتى ذلك الوقت قد عايشة العديد من تجارب الاعتقال، ولكن التجربة
الحالية تختلف عن جميع التجارب السابقة، ففي الماضي كان لي الحق أن أقابل

أصدقائي وأحبائي في السجن طبقا لقوانين السجن، ولم أمنع من المراسلة، وكانت الصحف تصلني وكان لدى تصريح شراء جرائد من حسابي الخاص، وكُنْتُ أتمتع ببعض الحرية في مجالات أخرى، أما فيما يتعلق باللقاءات والمراسلة فقد كنت أكثر من يحصل فيها على تسهيلات وتصاريح، ونتيجة لذلك لم تسد أذناي ولم تغمض عيناي رغم أن يدي وقدمي مصفدتان بالقيود، فمع أن المعتقل كان مقيدا بكل أنواع القيود فإنه كان يشعر بأنه يعيش في هذه الدنيا كما كان يعيش من قبل:

كان يفكر في الصحراء الشاسعة الرحبة وهو في السجن أيضًا .

(غالب)

ولم تكن مشكلة الطعام والشراب والملبس وغيرها من المتاع تشكل أي اضطراب لهؤلاء السجناء الذين يعيشون بعقولهم بدلاً من أجسامهم، فعندما يسمو الإنسان بمشاعر على الحياة العامة، يستطيع أن يحى حياة هائلة، بجميع أشكالها حتى إذا افتقد الراحة، ويستطيع أن يعيش حياة مطمئنة حتى لو حرم من الراحة الجسدية، والحياة على كل حال فانية ..

ما الرغبة في الجاه، وما النفور من المتاع ؟
دع هذه الإرهاصات أو لا تدعها فإنها ستمضى

(بيدل)

لقد أعددت بنفسي طريقاً لهذه الحالة من التجرد والانقطاع عن الحياة، وإن كان ذلك لا يقطع العلاقات في الداخل أو الخارج تماماً؛ حيث إن جدران السجن لا يمكنها منع الأصوات الخارجية عني كلية ..

أتذكر صغائر الوحشية أيضًا وأنا في السجن
فقد كانت بمثابة السلاسل لأي ألم ثقيل

(غالب)

لكن هذه الحالة التي واجهتها هذه المرة قد رسمت لى طريقاً مختلفاً تماماً، فلم تلغ عنى تماماً جميع الوجوه الخارجية التى انقطعت تماماً وكذلك انقطعت الأصوات الخارجية هي الأخرى، وقد قيل في أصحاب الكهف ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ الكهف: ١١، هذا الضرب نفسه على الآذان هو الذى حدث لنا وكان الدنيا لم تعد كتلك التي عشتها من قبل :

كأن لم يكن بين الحبوب إلى الصفا أنيس ولم يسم بمكة سامر .

(عمر الخزامي)

لقد قيدنا فجأة في عالم جديد، لا تزيد مسحته الجغرافية على مئة متر، وكان عدد سكانه الذين يعيشون فيه لا يتجاوزون خمسة عشر إنساناً، وأخذت الشمس تشرق كل صباح على هذا العالم، ثم يأتي الظلام ليعم أرجاء المكان كل ليلة :

وكان الآن ليس هناك أرض وليست هناك سماء .

(مير)

ولو قلت إنني لم أتأثر بهذه الحالة من الهدوء المفاجئ يكون هذا مجافاً للحقيقة، لأننى في الواقع تأثرت بهذا الهدوء بسرعة وبشدة، ولكن هذه الواقعة لم تزد عن عدة ساعات من العمر، وهكذا فإنني عندما استيقظت في يوم الصباح الثاني على الاعتقال كعادتي في الصباح وبدأ دور الإبريق والكأس، أحسست أن الانقباض الذى سيطر على طبيعتى قد زال تماماً، وكأن الانسراح والانبساط يطرقان قلبي ليحلا محل الملل والضيق، وما أجهل ما عبر عنه الشاعر مخلص خان عالمجيرى، فتعالوا بنا نتذوق معاً هذا البيت:

خارنا وباب التوبة وقلب الساقى
بابتسامة واحدة هزم وأغلق وفتح .

(مخلص خان)

وقد علمت الآن أن الدنيا التي فقدتها كانت محدودة بالنسبة لأذني وعيني،
ولكن تولد لدي العديد من الدنى في الأفكار والأخيلة؛ فلهذا فأني عاقل هذا الذى
يشكو من إغلاق باب واحد ليفتح له العديد من الأبواب الأخرى ؟
ليس هناك عيب في الجنون، فالمنزل مخرب من البلاء
وأنا لا أبدل مترين من الأرض بصحراء شاسعة .

(غالب)

أما عن العزلة في السجن مع القيود والانقطاع عن الناس، فهذا الأمر لم يكن
سببا في الشكوى، لأنني لم أهرب من العزلة، بل إنني كنت أتمناها دائما وأينما تأتي
العزلة في أي شكل وفي أي حالة فإنها ستجد باب القلب مفتوحًا ومرحبا بها .
(فأصبح السجن باطنه فيه الرحمة ظاهره من قبله العذاب) .

ومنذ حادثة سنى وأنا أميل إلى الخلوة والابتعاد عن الاختلاط ولهذا كنت
أذهب للاجتماعات والمجالس رغم عني، فقلبي دائما يبحث عن الانفراد وأنا دائما
أحب الخلوة كلما انتهيت من المتطلبات والضروريات .
أنت لم تر الخراب في خراباتي ويخيل إليك أننى أخفى الخمر

(حافظ)

فالناس في مرحلة الطفولة كانوا يقضون أوقاتهم في اللهو واللعب، أما أنا
فكنت في الثانية أو الثالثة عشرة من عمري أخلد إلى كتاب وأجلس به منفردًا في عزلة
وأحاول أن أبتعد عن أنظار الناس، ولعلك شاهدت ميدان (دهوز) في مدينة كلكتا
والواقع أمام مكتب البريد الرئيسي ويطلق عليه بشكل عام اسم (لآل دكي)، وكان
به دوحة أشجار ملتفة لو رأيتها من الخارج فإنك لا ترى غيرها، لكن إذا ما دالفت في
الميدان وجدت مكانًا فسيحًا مليئًا بالكراسى الخشبية، ولكنني لا أدري هل لا تزال

هذه الأشجار موجودة حتى الآن أم لا؟ وعندما كنت أخرج للنزهة، كنت أصرطحب كتابي دائما، وأجلس بين تلك الأشجار وأغرق في القراءة، وكان دائما ما يصاحبني خادم والدي الخاص حافظ ولي الله -رحمة الله.

فكان يتركني ليتنزه في الخارج ودائما ما يقول في غضب: لو كنت تريد القراءة لماذا خرجت من البيت؟ إنني أدون هذه السطور ورجع صوته يدوي في أذني، وهكذا كان حالي كذلك مع مجموعة الأشجار التي تقع في حديقة (ريدن جاردن) الموجودة على شاطئ البحر، وكانت إحدى هذه الأشجار تقع عند (بري بجورا) عند شاطئ النهر الصناعي، ولعلها تكون موجودة حتى الآن، وكان لا يمر بجوارها إلا قليل من الناس، وفي أغلب الأحيان كنت أخرج وقت العصر ومعني كتاب، فاستغرق في قراءتي حتي المساء، والآن عندما أتذكر تلك الأيام تنتاب قلبي حالة غريبة ..

لقد كان عالم الغفلة العجيب هو جنتنا

ولكن واأسفاه فقد علمنا هذا بعد فوات الأوان .

(صائب)

فأنا لم أقل إنني لم ألعب ولم أتنزه بسبب قلة وسائل اللعب والنزهة، لأن هذه الوسائل كانت متوافرة ومنتشرة، وكانت مدينة مثل كلكتا مزدهمة بالناس والأعمال، وأماكن اللعب والنزهة، لكن طبيعتي لم تكن تميل إلى اللعب أو اللهو .

المدينة كلها مملوءة بالحسناوات وأنا أفكر في القصر،

ماذا أفعل فالنفس سيئة الطبع لا تنظر إلى أحد.

(سعدي)

وكان والدي رحمه الله مسرورا لأجلي بسبب اهتمامي بالعلم؛ ولكنه كان يقول إنني سأضيع صحتي، لكنني لست أدري هل ضاعت صحتي أم تحسنت؟ إلا أن مرض القلب ألم بي ولم أبرأ منه قط..

من قال: لا كان ألمه قابلا للعلاج .

(حافظ)

وكننت قد نشأت في أسرة معروفة بالعلم والمشيخة والمرجعية، واليوم تصل
الزعامة السياسية إلى ذروة كمالها، رغم تبجيلها والهجوم عليها، وقد لمست هذا الكمال
من معتقدتي الديني دون سعي أو طلب مني، حيث إنني كنت ولا أزال في سن
المراهقة وكان الناس يقبلون يدي وقدمي ولكنني ابن شيخ، وكانوا يقفون أمامي
بوقار ورهبة، وكننت أعتبر هذه المكانة من المشيخة والزعامة ابتلاء في مثل هذا العمر،
لأن أبناء المشيخة يسرون في الطريق الخاطيء في أغلب الأحيان؛ حيث كان يصيهم
مرض غرور النسل وحب النفس منذ نعومة أظفارهم، ويؤدي هذا الأمر إلى تدميرهم
أسرياً، ومن الممكن أن تكون قد اعترتني بعض هذه الأمراض؛ لأن المؤاخذه على
النفس كما قال الشاعر عوفي ليست بشيء السهل..

أتريد ألا تتضح لك عيوبك،
اجلس في مخباك لحظة بمكر ونفاق .

(عوفي)

لكنني عندما أتأمل حالتي فإنني لا أفكر في مثل هذا القول؛ لأن طبيعتي
بفضل الله قد أخذتني إلى طريق آخر، لأنني لم أكن سعيداً بأنني من أسرة المريدين، بل
كنت أهرب من هؤلاء المريدين وكننت أبحث عن وسيلة تخرجني من هذا الجوار فلا
يقبل أحد من هؤلاء قدمي ويدي؟ لكن الناس دائماً ما يبحثون عن الشيء النادر ولا
يجدونه، وقد جاءني ما يبحثون عنه دون طلب مني لذا لم أقدره حق قدره :

لقد فزت بما في الدارين لذا أدركوا أنني سعيد
فبما أنني نلت هذا فمن العار الشجار والجدال .

(غالب)

وعندما أتدبر في هذا الأمر أجد أنه لم يكن خاليًا من الفوائد، وما الأمر الذي لا يخلو من الفوائد هنا؟ ولكن هذه الفوائد كثيرة، وهذا ما يتمناه معظم الناس المحبين لذواتهم دائمًا، لكنني سرعان ما شبعنا منها في البداية، ولم يبق في طبيعتي أي طمع على غير عادة الناس.

وقد أنشد الشاعر (فيضي) بيتًا في هذا الصدد، ولو لم يكن قد نظم بيتًا غيره لكان أنشد هذا كافيًا لشهرته:

لا تحطم الكعبة أيها العشق فإنها مكان عزيز
ينزل فيه أحيانًا متخلفو السفر

(فيضي)

وهذه الطبيعة المختلفة قد أثرتني كثيرًا؛ لأن كثيرًا من مغريات الزمان لم يؤثر في، وعندما يولي الناس وجوههم عني دون تبجيل واحترام فإنني لا أشكو منهم، بل إنني أكون ممتنا لهم، والناس كثيرًا ما يسعدون بالإقبال والتعظيم لكن هذا التعظيم لا يسعدني بل أراني مضطرا إلى قبوله، ولم أبحث عنها، بل الحياة السياسية هي التي بحثت عني، وكان شأني في هذه الحياة السياسية مثلما حدث للشاعر غالب في شاعريته:

إننا لم نكن راضين بهذه المرتبة يا غالب
فأراد الشعر نفسه أن يصبح هو فننا .

(غالب)

وهكذا كانت سرعة الأحداث هي السبب في السجن والاعتقال والعراقيل التي تسبب الأذى للآخرين، ولكن بالنسبة لي، فالسجن وحدة وخلوة لا تضيق بها نفسي ذرعا في أي حال من الأحوال، وكُنت في بعض الأحيان أسمع وأنا في السجن أن رجلا ما حكم عليه بالحبس الانفرادي، فأقع في حيرة من أمري فكيف تكون العزلة هي جزاء للإنسان؟ فلو كانت الوحدة هي جزاء الجريمة في الدنيا، فيا ليتني جزيت بها طوال عمري..

إن حسد تهمة الحرية قد نحل قوامي
وهذا هو المراد أن يكون هناك حسد على تهمة الحرية أيضًا

(عرفي)

وذات مرة شاهدني السجنان في زنزانتني منعزلاً وكان يفكر في راحتي، فاشتكى إلى
مأمور السجن لكي يغير حجرتي ووافق مأمور السجن حتي لا أكون في عزلة، وعندما
علمت بذلك، قلت لهذا الرجل: إنك أردت أن تريحني لكنك لا تعرف الراحة التي كنت
أنعم بها، وما هي الآن تسلب مني، وهذا الأمر حدث أيضًا مع غالب:
إن خطبة الأعوام تبدو من أثر البكاء فطب نفساً منها ولكنها أغرقني .

(غالب)

وطبيعتي لست سعيداً الآن ، ولا أعتبر ذلك أمراً مستحسنًا، ولم أكن من محبي
المجالس والاجتماعات، بل أفضل الخلوة الوحيدة بدلا من الجلوة :

ليست المسألة في الحريف الصافي والمعكر، فالخطأ هو هذا المكان
مهما تفرز الجيد من الرديء، فالبلاء هو هذا المكان

(نظيري)

ولكن قالب العزلة نضج عندي الآن نضجاً قوياً لكنه يمكن أن ينكسر ولا
يمكن أن ينحني :
والقطرة في آخر الأمر اختبأت في الصدفة من اضطراب الموج ،
فالنفس من الضحك تنزوي من خجل الصحة .

(أمير همداني)

ودائماً ما يظن بي الظنون بسبب طبيعتي هذه، ولا أستطيع أن أشرح للناس
حقيقة الأمر، حيث يظن الناس أن حالتي هذه من الغرور والكبر، ويعتقدون أنني
أنظر إلى الآخرين نظرة دونية ولهذا لا أتقدم نحوهم، وما أنه ما اعتراني من ثقل لا
يدعني للنهوض فإن لي أن أفكر في الآخرين؟ وما أفضل هذا البيت الذي أنشده
(غتي كشميري):

لم تعد لديه القدرة على النهوض من غبارى المبلل ،
ويتصور الناس أنه قد شرب الخمر وسقط ثملاً .

فبيت الشعر الذى نقله (سرخوش) في كتابه (كلمات الشعراء)، ذكر فيه (خلق مي دند) بدلاً من (خلق بندار)، ولكنني أرى أن هذا الموضع ليس لـ(دانستن) بل (بنداشتن) ولهذا فإن (بندار) هنا مناسب، ومن الممكن أن تكون (بندار) هي الأصل.

على كل حال فإن الحالة التى واجهتها جعلتني أشعر بأن قباض خاطري؛ بسبب انقطاع العلاقات فجأة مع من خارج السجن، حتى منع الراديو والجرائد، ولم أكن أشكو من السجن والعزلة والقيود ولا أشكو الآن :

العقل ليس عطراً للقميص .. ماذا عن رياح الصبا فالغم يعتصرني

(غالب)

وكل ما جرى على لسان قلبي، هو وصف لوضعي الراهن ولم يكن بفعل الشكوى، لأنه - هذا الوضع - لا يتسع مجال للشكوى، ولو الأمر بيدي لضرب رأسي في الجدار، وعلى الآخرين أيضاً أن يبنوا جداراً جديداً، ولعل بيت شعر بيدل يصدق على هذه الحالة الموجودة الآن:

إن الابتعاد عن وصاله قد حطم طلسم اعتبارنا،

وإلا فإن العجز الذى تراه كان هو غبار الدلال .

(بيدل)

ولم أكن في السجن بمفردى، بل كان معي أحد عشر رفيقاً، وكان كل واحد منهم يراقب عملي على سبيل الاهتمام، وعلى هذا فإنني أعيش عيش حياة العزلة مع انشغال محدود، فأنا أخرج من الغرفة أربع مرات في اليوم فقط، لأن غرفة الطعام هي آخر حجرة في الصف، ولا بد أن أذهب هناك أوقات الطعام والشاي، وباقية جميع الأوقات تمر في عزلة مع أعمالي الشخصية دون أي خلل ..

وما أطيب الحصيرة والاستجداء ونوم الأمن والعافية

فهذا العيش لا تتناسب معه التيجان الخسرية^(١)

(حافظ)

فلو انتزعت مني جميع وسائل ارتباطي بهذه الحياة، فلا ضير في هذا ولا تضايقي لأنها وسائل ليست بيدي، وأما الوسائل التي بداخلي فلا يستطيع أحد أن ينتزعها مني، لأنني أخفيها في قلبي وأزينها وأواظب على رؤيتها.

إن المرأة لا تعكس طلاسـم الخيال،

فأنا أنقش صورتي في اللوح الآخر .

(ببـدل)

لقد تم القبض علي وأنا في حالة سفر، ولهذا لم أستطع أن آخذ كتباً معي سوى كتابين كانا معي في السفر، وقد أحضر أصحابي بعض الكتب، لكن هذه الذخيرة فقدتها بسرعة، ولم أجد طريقة للحصول على مزيد من الكتب، ولكن إذا قلّت وسائل القراءة فلم تنعدم وسائل الكتابة، حيث كانت معي أوراق كثيرة، ولم يكن هناك شح في الحبر في سوق (أحمد نجر) وجميع أوراقـي كانت تمضي في الكتابة:

لا يمكن العيش في الجنون بدون عمل

نارـي حامية وأنا أزيدها اشتعالا

(غالـب)

وعندما كنت أتعب من الكتابة، كنت أخرج إلى الفناء لأخذ قسط من الراحة أو تجول بين حـجرات السجن.

تنشغل رأسي في الجنون عندما أكون بلا عمل

وعندما تنحطم يدي ماذا عساي أن أفعل؟

(غالـب)

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي .. ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٣٣٥ .

كان النائب العام قد أرسل الرسالة التي كتبها للحكومة وجاءني الرد عليها أمس، وقد صدرت أوامر جديدة بأن تعطى لنا الجرائد، ويسمح لنا بكتابة الرسائل للأقرباء لكن لا يمكن اللقاء معهم أبدًا، وأعطاني (شيتا خان) نسخة جديدة من جريدة (تايمز أوف أنديا) عن طريق عسكري من المطعم، وسلمني هذه الرسالة مع الجريدة وعندما تصفحت الجريدة دارت أمامي الدنيا التي كانت قد انعدمت تمامًا منذ ثلاثة أسابيع، وعرفت أن القبض علينا لم يؤثر على أمن البلاد وأمانها بل حدثت انتفاضات وقلقل جديدة فيها:

دماء الناس كالدموع تنثر الدماء علي لقد جاء رافعًا ثوبه ليعلمني الطريقة .

(مؤمن)

وطلبت من (أم جيتا خان) أن يحضر لي جرائد من ٩ أغسطس حتى ٢٧ أغسطس فأني لي الحصول على الأعداد السابقة ؟ فأحضر لي الكثير من الجرائد، وانتهيت من قراءتها في وقت متأخر من الليل :

إن المجانين قد مزقوا ألف جيب ويد الطلب لا تصل إلى طرف الصحراء .

(فغانى)

ولكنني لست ملزمًا بحكى هذه القصة هنا؛ ولأن مجلسك لم يكن منعقدًا من أجل قصتي هذه:

لا تسألنا إلا عن حكاية الحب والوفاء .

(حافظ)

ولم يكن حديثي عن شيء واحد، بل عن العديد من الموضوعات، ولكن عندما أبوح لك شيئًا من الكلام؛ فإنني أصفيه بصفاية الاحتياط الحذر جيدًا، كي لا يندس بأي نوع من السياسة، وما أجهل ما عبر عنه (شريف خان الشيرازي) وكان أمير الأمراء في عهد الملك جهانجيز:

أنخل شرر الأنين بغربال الأدب
عسى ألا يصل إلى أذنك الصوت الفظ .

(فرسي)

وهو نفس أمير الأمراء الذى طلب الملك (جهانجيز) من شعراء بلاطه أن
يقوموا بالتضمين على هذا البيت، وأنشد هو نفسه أيضًا:

دعك منا أيها المسيح نحن قتل العشق ،
فإن إحياءك لنفس واحدة بمئة دم .

أبو الكلام

خطاب - ١٠

قلعة أحمد نجر

١٢ أكتوبر سنة ١٩٤٢م

صديقي العزيز

اليوم هو صباح يوم العيد في الغالب، ولا أستطيع أن أهتلك بالعيد، ولا شك
إنني يمكنني أن أخاطبك على صفحة الورق:

فيا أيها الغائب عن النظر يا من أصبحت أنيساً للقلب ،

إنني أدعو لك دائماً وأرسل إليك بالثناء

وفي طريق العشق لا فرق بين مراحل القرب والبعد

وأنا أراك عياناً وأرسل إليك الدعاء والضراعة^(١)

(حافظ)

ماذا أكتب عن أحوالي؟

إن تهمة اللذة والاستمتاع قد فتحت لنا ذراعيها ففرعنا

فالخمر لم تكن بالقدر الذي يتعب الخمار

(غالب)

ولا أعلم هل حدث لك ما حدث لحالتي الذهنية الخاصة أم لا؟ فأحياناً لا تجد
في الذاكرة أى قصة جديدة، وكأنها ترفد في زاوية ما، ثم تستيقظ في فجأة في وقت ما،
وكانها فتحت بابها ليدخل إليه عقلي، مثلما يحدث في توارد الأشعار ومعانيها، وفي ذكر
الأحداث، وأحياناً تظهر لى ملامح قراءات أكثر من أربعين عاماً فجأة، كأنني

(١) هذان البيتان ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٢٧ .

استيقظت تَوًّا بعد أن قرأت كتابا، حتى إنني أتذكر اسم الكتاب مع المقال، والمجلد مع الكتاب، والصفحة مع المجلد، وأحدد مكان الكلام في الصفحة، في السطور الأولى، أم في وسط الصفحة أو في آخرها، ناحيته من الصفحة يمينا أم يسارا.

وقد استيقظت من نومي قبل قليل كعادتي، وتردد على لساني هذا البيت تلقائيا ودون مناسبة:

أنا قليل المتعة، وقيمتي لا حصر لها
كأن الثمر قد سبق حديقة وجودي .

ومع هذا تذكرت أن البيت لطبيب (صدرای الشيرازي) الذي قَدَّمَ إلى الهند في عهد الملك (جلال الدين أكبر) وعاش حتى عهد الملك شاهجهان، وقد مر هذا البيت بناظري في كتاب (آفتاب عالم تاب) وكان غالبا في جهة الشمال من الصفحة والسطور الأولى منها، وقد قرأت كتاب (آفتاب عالم تاب) قبل ثلاثين عاما، ولم يتيسر لي قراءته مرة أخرى .

ولو أمعنت النظر تجد أن خير مثال على ذلك كأنك تتناول الفاكهة في غير أوانها، فمثلا المانجو نادرة الوجود في فصل الشتاء لأنها ليس موسمها، لذا تعد من الهدايا القيمة، ويشتريها الناس بأغلى الأثمان، ويقدمونها على سبيل الهدية للأصدقاء، ورغم ما يكون لهذه الفاكهة من أثمان باهظة لأنها لا تكون الطعم واللذة التي تكون عليها في موسمها، وإذا تناولتها لا تشعر بلذة الطعم، وكيف تجد اللذة وقد أتت الفاكهة في غير أوانها؟ وكان هذا خطأ الأرض التي أتت بها قبل موعدها وقد تحملت الفاكهة نتيجة هذا الخطأ، حيث لم تعد اللذة نفسها، ولكن مع هذا يظل شيئا نادرا ويقدر دون لذته، وعلى الرغم من ذلك يشتريه الناس بضعف الثمن، ويقولون إن هذا النوع نادر، فهو الآن غالى الثمن مع أنه في الأصل رخيص، لكن السبب في ذلك هو أنه ليس في وقته ولو تأملت هذه الحالة؛ إنها الحالة نفسها بالنسبة لحياة الإنسان، فتجد أنه لا تنمو أشجار الموسم فقط، بل وينمو عقل الموسم أيضًا

وحيث إن لكل موسم يحمل الدهن موسم معنويًا خاصًا، وطبقًا لذلك فلا بد أن تتوافق الطبايع والأفكار، وتولد طبقًا لهذا، ولكن قد تكون الحياة غير طبيعية وغير متوافقة وهنا لا تخلو أي قاعدة من فلتات ومن شواذ، ولهذا أحيانًا تبدو الطبيعة غريبة مثل الفاكهة في غير موسمها، ولك أن تقول إن علة ذلك إما نقص في هذه الدنيا، وإما هو خطأ الزمان (ana-chro-Nism) ولكن على كل حال يحدث ذلك بالفعل وعندما تظهر الطبيعة في غير ميعادها، يكون ذلك غريبًا مثل الفاكهة في غير موسمها، فلا هي تصادق الوقت ولا الوقت يصادقها، ولكن نجد الغرابة في ظهورها رغم التوقيت الخاطئ، إلا أن ذلك يعد من القدر، فالناس لا يعترفون بغلاء الثمن سواء وجدوا لذة أو لم يجدوها، وهنا فقد وصل فكر (صدراي الشيرازي) إلى هذا التخييل الدقيق وسلط الضوء على هذه الحالة، وروى كل هذه القصة في مصرعين من شعره.

وعندما أقرأ هذا البيت أشعر بأن هذا هو حالي وحال عصري تمامًا، لأن أفكارى وطبيعتي لا تتوافق في جميع النواحي مع أحد، ولتقل إن سبب ذلك هو ندرة وجودي، ولكن هذا النقص هو ما وجدته في ، داخلي منذ ولادتي، ولهذا لم يستطع أي مؤثر خارجي أن يغير ذلك، وكثيرًا ما يفضل الزمن أن تأتي كل الأشياء في موسمها وعلى فطرتها، ولكن كيف أجد لذة في ثمار ليس في موسمها؟ وأنا مثلها، فقد غلا الثمن دون وجود اللذة، وسواء وجد الناس اللذة أم لم يجدوها فإن مثل جنسي لا يباع رخيصًا!

ومتاعى الذى هو نصيبه، لا كان رخيصًا

(خسرو)

وعادة ما يباع في السوق من البضاعة التى يرغب فيها الناس كثيرًا، لأنها توجد بوفرة هناك، وتمتد إليها كل يد، وتستحسنه كل عين، لكن أمري مختلف تمامًا، فلا تتوافر عندي البضاعة التى يطلبها الناس، فيأتي الناس بالأشياء الرائجة من السوق

باستمرار، وأبحث أنا عن النوع النادر في أي مكان ، فالسعى الذى يطلبه الناس أتركه وأعرض عنه تماما، وقد زين الناس بضائعهم في محالهم كي تمتد إليها أيدي الجميع، ولكنني لم أدخر أي شيء كي تتقدم أيد الجميع نحوى .

لا تطلب منى القماش المستخدم في المدينة والقرية،
فإن متاعى كله من البحر أو المنجم .

(نظيرى)

ويجتهد الناس في تزيين محالهم في السوق حتى يزداد عليه طلب الزبائن، وذاك يوم فتحت فيه محلا في مكان لا يمر به الكثير من الزبائن :

إنهم يشتررون في حيننا انكسار القلب فحسب
فسوق التفاخر والتباهى من الناحية الأخرى

(حافظ)

لقد خرجت وحيداً في جميع الطرق، في طريق الدين، والأدب، والفكر،
والسياسة، والتدبر، وحتى في الطرق العامة، ولم أستطع مرافقة قوافل الوقت في أي
طريق من الطرق ..

لم يذهب مع الرفاق ولم يتم السفر ،

إن السير في الصحراء هو الجنون وللأسف فقد تركناه وحيداً .

(كاظم القمى)

وعندما تقدمت في طريق ، وابتعدت عن منازل الوقت، وحينها أنظر خلفى فلا
أجد سوى غبار الطريق الذى يتطاير من سرعة سيري ..

لن يكون أبداً أن أترك الرفاق .

ولكن ماذا أفعل مع مجدرى القدم والقافلة سريعة .

(فيضي)

وقد تورمت قدامى من الهرولة، ولا عجب في ذلك فقد أزالتم قدمي بسرعتها
الغبار والأشواك من الطريق ..

لقد احترقت الأشواك من أثر حرارة سيرى،
فإننى لى منة على القدم السائرة .

(غالب)

والآن وفي هذا الوقت قد حلت أمامي عقدة طريق الأفكار فلا تتوقع
أن أطويها ..

لا تلتف هذا الخيط على أصبعك فإنه طويل

(أسير صفهاني)

فكثير من الأحداث والوقائع التى تحدث فى الحياة، قلما تحدث فى الحياة العامة،
ولكن هناك جانباً من هذه الأمور فى هذه الحياة يشكل لغزاً لى وللاخرين أيضاً،
فالإنسان دائماً ما يتأثر بالمخلوقات البيئية التى يعيش وسطها، ويظهر هذا الأثر فى
الحالات والمواقف المتعددة فى حياة الإنسان ويلاحظ الناس ذلك، لكن فى بعض
الأحيان تختص بعض الأشكال ولا تلاحظ، وهناك لا بد من التوغل (داخل حياة
الإنسان) للبحث عنها ومع ذلك يصل الباحث فى كل الأحوال إلى أن النسل،
والأسرة والتعليم والتربية كلها مجتمعة هى منبع تلك المؤثرات ..

عن المرء لا نسأل واسأل عن قرينه

(الصاحب بن عباد)

لكننى عندما ألقى نظرة على بداية حياتى فأقع فى حيرة كبيرة، فكم كنت أجد
التغيرات، وكم من الأحداث التى ظهرت طبيعية وأساسية فى فكرى، ولا أجد لها أى
سبب خارجى يرتبط بمؤثرات البيئة التى أعيش فيها، وكم من الأحداث التى ظهرت
كلها فى أشكال متناقضة، والأمر فى كلتا صورتين لا يغدو عن كونه صورة عجيبة ..

وتأوهات "حافظ" ليست جميعها لغوًا أو عبثًا

بل هي قصة غريبة وحديث عجيب^(١).

(حافظ)

أما عن العادات والحصال فهي مرتبطة بالسيرة الذاتية، ولم أعقل عن أسرتي والنسب المتوارثة، فأرض الأسرة والنسب تنبت أخلاق كل إنسان وقالب شكله الاجتماعي، واكتشفت أن عاداتي وشمائي هي نبات تلك الأرض، وكل أسرة تراث حياة اجتماعية تقليدية منفردة، وتنتقل من جيل إلى جيل، وأشعر بوضوح بأن تأثير تلك الحياة التقليدية قد امتزج بعروقي ولا أستطيع الفرار من برائته، فجميع عاداتي، وصفاتي، وتقاليدي، وأساليبي، أذواق مكتسبة من أسرتي بكل وضوح، تقاليد الحياة الأسرية تلك قد ورثتها عن أجداد لوالدي ولوالدي وكلية مشهور في المجتمع، ولهما أثرهما البارز منذ قرون، وعلى أي حال فقد جاء ذلك في قدرتي، ولم يكن لرغبتني يكن أو اختياري دخل في قبوله أو رفضه، ولكن القضية هنا ليست قضية العادات والصفات، بل قضية الأفكار والعقائد، حينما أتفقد حالتني بناء على هذا الاعتبار، أجد أن الأسرة والتعليم وجميع المؤثرات الفطرية تحيطني، ولكنها لا تتوافق معي من أي جانب، ويمكن أن توجد جميع المؤثرات الفكرية في هذه البيئة (Environments) أيضًا، فأسترجعها أمامي الواحدة تلو الأخرى، وأنقلها إليك إلا أنني لن أربطها بموضوعنا .

فمنذ صباي وجدت الأجداد يحملون الأفكار والعقائد بطريقة خاصة بهم، وكانوا متشددين فيها بلا هوادة حتى يسيروا على الطريقة دون أن يميلوا عنه قيد أنملة، لأنهم يعتبرون هذا الميل من الكفر والزندقة، وقد سمعت منذ طفولتي قصصا عن

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي .. ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٦٠ .

أسرتني تنصب كلها على هذا اللون من العادات والأفكار حتي ثقلت رأسي من هذا الجمود والتعصب الوراثي، وقد تلقيت تعليمي في هذا الوسط القديم الذي كان يملأ جدران المنزل بالتدين والتزمت، حتى إن الهواء المخالف له في الخارج لم يكن يمر فيه، والأساتذة الذين كنت تلقيت العلم بين يديهم، حتي والدي -رحمه الله- كانوا متوافقين مع العادات والأفكار والتقاليد نفسها، وكان والدي قد اختبرهم قبل أن أبدأ معهم في تلقي الدروس ليعرف مستوى أفكارهم وعقائدهم، وكان هذا المعيار ضيقاً وشديداً حتى إنه لم يستطع أن يصل إلى هذه الدرجة إلا القليل من معاصريه، وفي الواقع وأنه ليس ممكناً مرور أي هواء جديد من هذا الباب، أما عن ثورة الزمان الفكرية فكانت بعيدة تماماً عن طرق حياة أسرتي، ولم يستطع أي صوت منها الوصول إلى طريقهم، وبهذا الاعتبار كنت كأنتي أعيش في الهند قبل مئة عام منذ ذلك الوقت، كما أن صياغة قالب العقل البشري له دور كبير في الصحبة الأولى، ولكن مجتمعي في مستقبل العمر كان منحصراً داخل جدران المنزل الأربعة، علاوة على الأسواق والأجداد، وإذا التقيت بأي جماعة أخرى، فكانت جماعة معتقدي الأسرة ومريدوها، وكانوا دائماً ما يقبلون يدي وقدمي، ثم يقفون مكتوفي الأيدي أو يتراجعون إلى الخلف كي يجلسوا في خشية ووقار، وهذه البيئة كانت تجدد تلك الحالة التي كنا نعيشها بدلاً من محاولة تغييرها، وكان من مريدي والدي -رحمة الله- عدد كبير من العلماء والمتقنين للغة الإنجليزية أيضاً، وكانوا دائماً ما يجتمعون في الديوان، لكنهم كانوا جميعاً مصبوغين بصبغة أسرتي، ولا ترى بريق أي لون من الألوان الأخرى .

وعلاوة على ذلك، كان المريدون والمعتقدون عندما يقابلونني كانوا يأملون أنصحهم، حيث يستمعون مني القليل ولكن متى يتجرءون ويسمعوني شيئاً؟

ولا يمكن أن يمر على أحد أهمية تعليم اللغة الإنجليزية، أما بالنسبة لي فكان يمكنني أن أتعلم في المدارس القديمة، على أي حال، فحياة تعليم المدارس أرحب

بكثير من الأركان الضيقة لجدران المنزل الأربعة، لكن والدي -رحمه الله- لم يستطع قبول ذلك، فكانت مدرسة كلكتا الحكومية - وهى ذات تعليم عال - ليست لها قيمة من وجهة نظره، وقد اختار طريقة أخرى حيث أتلقى تعليمي على يده وعلى يد بعض أساتذته المتخصصين، ونتيجة لذلك لم أستطع أن أضع قدمي خارج جدران المنزل طوال فترة التعليم الابتدائي ولا شك أنني انطلقت بعد هذه المرحلة وسافرت إلى مدن أخرى في الهند، حيث كل تلك الأحداث كانت في أيام الدراسة، وقد بحثت عن طريقى الجديد وأستطيع القول إن عمرى وقت دراستي لم يكن يزيد عن عشرة أو خمسة عشرة عاماً.

ثم كان حال تعليمي الذى تلقينته في البداية ؟ إذا أجبت هذا ولو باختصار لمألت كثيراً من الصفحات، ولن تحتاج إلى التفاصيل، وهذا المنهج القديم من الناحية الفنية لا يصفه سوى بالعقم من أوله إلى آخره، لأنه كان ناقصاً من حيث طرق التعليم، وناقصاً من حيث الموضوعات، وكان ناقصاً من حيث اختيار الكتب، بل وكان ناقصاً أيضاً من حيث أسلوب الرسم والإملاء، وإذا نحيت جانباً عن الفنون الجميلة من المواد الأساسية للمنهج الدراسي النظامي تبقى لنا الأمور الدينية والعقلية، وقد انحصر تعليم العلوم الدينية في دروس الكتب، حيث يمكن أن نحصل منها على المعاني والصيغ، ولكن لا نستطيع الحصول على أى بصيرة اجتهدية في تلك العلوم، كما أننا إذا نحينا المنطق عن العلوم العقلية، يتبقى منه القليل الذى يعبر عن الجهود العقلية للعهد الخاص بتاريخ الفلسفة القديمة، لكن الحياة العلمية الآن تقدمت كثيراً عن العهود السابقة، فرضيات العصر القديم تعد بمنزلة الصفر (لا شيء) بالمقارنة بالنظريات الرياضية التى تدرس الآن، لذا فهم بصفة عامة لا يهتمون بهذه الرياضيات القديمة الآن، وقد تعلمتها برغبتى، وفي الغالب، هذا هو منهج التعليم في الجامع الأزهر - القاهرة الآن، حتى إن كتب المتأخرين في العلوم العقلية كانت رائجة في الهند، لكن لم يتسع لها صدر الجامع الأزهر..

أيها الطبل على الصوت وأجوف الباطن .

(سعدي)

وعندما بدأ الشيخ جمال الدين أسد آباد (الأفغاني) تدريس الفلسفة في مصر، استطاع بعد بحث شاق أن يجد بضعة كتب لها، حتى إن علماء الأزهر لم يعرفوا أسماء تلك الكتب، ولا شك أن نظام تعليم الأزهر قد تغير للإصلاح الآن، ولكن هذا الزمن الذي أذكره لم ينجح فيه أي محاولات للإصلاح حتى ذلك الوقت، وبعد يأس الشيخ محمد عبده - رحمه الله - من ذلك أسس دار العلوم كلية حكومية جديدة .

وأفرض أنني كنت قد تعلمت من هذه الطريقة، ولم أكن شغوفا بحب العلم والمطالعة، تفتحت أمامي طرق العلم والبحث، فكيف يكون حالي؟! وخزانة ذلك التعليم الابتدائي كانت متزمتة ولا تستطيع أن تمنحني العلم سوى المعرفة فقط دون تجديد.

لكن أمري قد اختلف تماما عن سير التعليم بصفة عامة في هذا الوقت، ففي عام ١٩٠٠م كان عمري لا يزيد عن اثني عشر أو ثلاثة عشر عاما، وقد انتهيت من تعلم اللغة الفارسية ومبادئ اللغة العربية، وكنت ولا أزال أدرس شرح (ملا) و(قطبي) وغيرهما، وكان من بين زملائي أخي - رحمه الله - يكبرني بعامين، وبقية الزملاء لا تقل أعمارهم عن عشرين وواحد وعشرين عاما، وكان منهج تعليم والدي - رحمه الله - هو ضرورة حفظ (متن المختصر) في بداية أي علم من العلوم، وكان يقول: تلك كانت طريقة تعليم أسرة شاه ولي الله الدهلوي نفسها - رحمه الله - ولهذا فقد حفظت في هذه المرحلة (الفقه الأكبر) و(التهذيب) و(ملخصة الكيداني) وغيرها، ومن كثرة استحضاري لها واقتباساتي منها كنت لا أثير الطلبة فحسب، بل والعلماء أيضًا، وكانوا كثيرا ما يسألوني من كتاب (ميزان ومنشعب)؛ لأنهم لا يعدونني ابن عمر إحدى عشر أو اثنتي عشرة سنة، وكنت أعرفهم قضايا المنطق

وتعريفات أصول الفلسفة فيحтарون لذلك، وفائدة هذه الطريقة كثيرة، حيث إنني لا أزال أحفظ هذه المتون واحدا واحدا حتى الآن، ولم أنس شعر كتاب (ملخص الكيداني) حتى بعد أن استبدل أحد الأفغاني (ملا)، (كيداني) بـ(كيداني) ..

كيف تعرف طريق الصلاة

إذا لم تقرأ خلاصة الكيداني

كانت مدة دراسة هذه الكتب تمر ببطء شديد في المعدل المألوف، وكان الأساتذة يفعلون بسرعتي أولا، ثم يضطربون، ثم يشجعونني على جرأتي، وعندما بدأ دور كتاب جديد يشترك فيه بعض الطلبة من الخارج، وكنت أتقدم في هذا السباق بسرعة لأنهم كانوا لا يستطيعون منافسة سرعتي، وقد قال أحد أساتذتي في المواد العقلية (السيد الصغير يسمني بيت) - "صدارا" في الوقت الحاضر، وقد وقع في سوء الفهم لأنني أحفظه (هذا البيت) تماما .

وفي عام ١٩٠٣م؛ كنت قد بلغت سن الخامسة عشرة، وأنهيت التعليم الأساسي، وقد اطلعت على المزيد من الكتب بمساعدة والدي - رحمه الله - إذ كان الفكر القديم في موضوع التعليم هو أن الاستعداد العلمي لا ينضج إلا عندما يعلم المرء ما تعلمه، لهذا ففي حفل تخرجي كلفت بالتدريس لبعض الطلاب، وقد تكفل والدي رحمه الله - بنفقات إقاماتهم، وقد بدأت تعليم الطب وكنت أقرأ كتب القانون، وأعلم الطلاب كتب (المطول) و(مير زاهد) و(الهداية) وغيرها .

وأذكر جيدا أن عمري كان لا يتجاوز الخامسة عشر عاما حتى بدأ بتزلزل سكون طبيعتي، وكانت أشواك الريبة والشك توخر قلبي، وكنت أشعر بأن تلك الأصوات التي كنت أسمعها من كل ناحية يجب أن تكون هناك أصوات غيرها، فحياة العلم والحقيقة ليست بهذه الدرجة فحسب، بل ونهضت أمامي بأكثر من ذلك.

وقد اشتد هذا الوخز مع تقدم سنوات العمر؛ حتى تزلزلت في بضعة أعوام جميع أسس الأفكار والقواعد التي اكتسبتها من الأسرة والتعليم والبيئة إلى أن حان الوقت كي أهدم هذا الجدار المهشم وأبني بيدي جدارنا جديدة..

لم يمنعني ذوق الطلب إطلاقاً عن البحث والتنقيب

كنت أجمع الحبوب في ذلك اليوم الذي كنت أمتلك فيه البيدر

(كليم همداني)

وهناك حقبة كبيرة، تقف حائلاً في طريق رقي (عقل الإنسان) وهى العقائد التقليدية، ولا تستطيع أي قوة تكييله (عقل الإنسان) أكثر من سلاسل تلك العقائد التليدية، ولا يستطيع أن يحطم هذه القيود، لأنه لا يريد تحطيمها، فهو يحبها كالجواهر، فكل عقيدة، وكل عمل، وكل وجهة نظر التي يكتسبها من الأسرة، ومن التعليم الابتدائي، ومن الصحبة هي ميراثه المقدس، وعليه أن يحافظ على هذا الإرث، ولا يجراً أن يمسه، وفي بعض الأحيان تكون قبضة العقائد الموروثة شديدة فلا يستطيع أن يخلخل أثر التعليم والبيئة، ويمكن أن يصبغ التعليم لوناً جديداً على العقل، ولكنه لا يتغلغل على أثر التعليم والبيئة، ويمكن أن يصبغ التعليم لونا جديدا على العقل، ولكنه لا يتغلغل داخل بنيته .

لم يكن تعليمي مخالفا للعقائد المتوارثة لأسرتي كي يتولد بينها أي صدام، بل كان مرتديا الثوب نفسه الذي هيأته مؤثرات النسب والأسرة وأصقله التعليم، وساعدت البيئة في ذلك أيضاً مع أن الشوكة الأولى التي شاكنت قلبي تلقائياً كانت مخالفة لهذا التقليد، ولم أدر لماذا؟ لكن يظهر أمامي السؤال نفسه مراراً، لماذا ينبغي أن يكون أساس هذا الجدار القديم قد تهاوى؟ لأن جميع جدار العقائد الموروثة والتقليدية قائما على أساس التقليد فقط، وإذا اهتز هذا الأساس فإلى متى يصمد الجدار؟!!

وكانت الطبيعة تساند هذا الجدار لبعض الوقت، لكنني سريعا ما عرفت أن
أي دعم الآن لا يستطيع إنقاذ هذا الجدار المتهاوى..

لأن اتباع الخلق يؤدي إلى الضلال ،
فإنني لا أسير في الطريق الذي سارت منه القافلة .

(راقم الشهدى)

هذا الشك نفسه، هو الذى أصبح دليل طريق الوصول إلى اليقين التام،
وبالطبع فقد أضع (الشك) ما كنت قد ادخرته سلفا، لكنه منحني شغف الوصول
على أشياء جديدة، وكانت النتيجة أنني توصلت إلى الهدف المنشود بقناعة واطمئنان،
وكان العلة التي أمرضتني هي التي أصبحت شفاء في النهاية:

تسببت في الآلام وما زلت أنت الدواء .

(خسرو)

وكثيرًا ما أحاول أن أعرف من أين جاء هذا الشوك الذى دخل كالسهم

لكن لم أهتم لأي مصدر، ولا أعرف أي سبب ،

لست أعلم أى نشوة تلك التي بدت علينا

ومن عساه يكون الساقى ومن أين أحضر هذه الخمر المصفاة^(١) .

وفي الحقيقة، حدثت لي وقائع كثيرة فيما بعد، وهى التي زادت من الإحساس
بألم وخز تلك الأشواك التي تغلغلت في قلبي، ولكن حتى ذلك الوقت لم يؤثر في أي

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي .. ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ١١٢ .

مؤثر خارجي؛ لأنني لم أكن بلغت سن الرشد كي تستطيع المؤثرات الخارجية أن تفتح أبواب قلبي وعقلي، وهذا كان حالي كما قال الشاعر :
أتأني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكننا.

(قيس النجدي)

وهذا الوقت نفسه آلتني حياة ابن المشيخة والأولياء، فكانت طبيعة تهرب من عبادة أولياء المعتقدين والمريدين، حيث إنني لم أشعر بأي دافع خاص نحوهم في ذلك الوقت، ولكن طبيعتي الفطرية كانت تخالف منطقهم ..

إن رائحة ذلك الدخان والتي قد وصلت إلى الجار هذا العام

كانت من النار التي اشتعلت في ثوبى العام الماضي .

(واعدي المراعي)

والسؤال هو: لماذا أعلنت الطبيعة خلأفاً ضد كل هذه الحوالم والمؤثرات ومن أين جاء سبب ذلك ؟ فأنا لم أتمكن من وضع أفكار الأسرة وعقائدها في القالب الذي كنت أنشده، فالتعليم الذي كان يريد أن يجذبني معه في طريقه ولم يستطع ذلك، ولم تكتمل المؤثرات التي تجمعت حولي من صحبة المجالس، فكل حالة مرتبطة بعلّة من علل عالم الأسباب، ولا بد أن توجد نهاية لتلك الروابط، والحقيقة أنني لم أجدها وربما يكون السبب هو قصر نظري، ويمكن لأحد ما حكيم دارس لهذه الأحوال أن يبحث عن أي دافع آخر، إذ إنني مضطر للبحث في جانب آخر بعد أن أرهقني ذلك البحث ..

إن نثر المسك هو أمر خاص بطرتك، ولكن العشاق

ألصقوا التهمة في غزال الصين من باب المصلحة

(حافظ)

وهكذا انتزع هذا العاجز من حوض الزمن في عمر الرابعة عشرة، وإن ضل الطريق الرئيسي لفترة ما وأصبح شاردًا في الصحراء الموحشة، فماذا يحدث؟ وقد ظلت لافتة الطريق مفقودة لمدة طويلة من كثير من التائهين، فلم أستطع إيجاد الهدف ولا مكانه..

أنا كلب العتبة ولكنني أحاول قطع السلسلة طوال الليل ،
فأنا لا أرغب في الحراسة على رأس الصيد،
عجبًا لو لم يكن هناك خضر لبحث عنه
فقد سقطت في الظلمة كزلال الحياة

(نظيري)

ولكن تلك اليد اختطفت من حوض الزمن، هي اليد نفسها التي أردت الضالين في الصحراء المفقرة في نهاية الأمر، ولو أنها اضطرت إلى أن تصطدم بالعراقيل في كل خطوة، واضطرت إلى أن تشتبك بالعثرات في كل مكان، فإن رغبة التقديم دفعت للأمام دائمًا، والبحث لا يتطلب التوقف للراحة في وسط المراحل، وفي النهاية تنفست الصعداء حين كان الهدف المنشودة واضحًا، وقد كانت مني العين تشرف من طريقه:

حتى أصل إلى وصاله ألقائي الشوق مئة مرة على الأرض
رغم أنني مجدد ولي عش على فرع عال .

(نظيري)

وفي عمر الرابع والعشرين، عندما بدأ الناس رحلة عنفوان الشباب، كنت ولا أزال أنزع أشواك أصابع قدمي بعد الانتهاء من جوب الصحراء المفقرة:
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقًا إلى الكعبة ،

فلا تضجر إذا غلظت عليك أشواك المغيلان ٠٠ ولا تحزن^(١).

(حافظ)

وكان طبعي كان مخالفا لزمان في هذا الأمر أيضًا، فمرحلة الحياة التي كان
يتهيأ الناس لها، كنت قد اجتزتها:

يا مير لقد كنت مثقلا بالعشق أما نحن فقد سارعنا في التخلص .

ومنذ ذلك الوقت وعلى مدار خمسين عاما من مسيرة عمري، (مير تقى) بدالي
العديد من ميادين الفكر والعمل، فحرت طرقي في مختلف الأماكن، وعلى الزمن أن
يمحيه كما يمحيه دائما، أو يحتفظ به كما شاء.

إن المرأة لا تعكس طلاس الخيال ،
فأنا أنقش صورتي في اللوح الآخر .

(ببدل)

فالحياة ما هي إلا طريقتين عبر عنهما الشاعر (أبو طالب كليم) في مصرعين:

تخلق بالطبع الذى به تتفق مع العالم
أو الهمة التى يمكن أن تحتاز بها العالم

(همداني)

ولم أستطع اختيار الطريق الأول؛ لأن طبيعتي لم تتوقف معه، وقد اضطررت
إلى أن أختار الطريق الثانى مجبرًا..

كان الأمر صعبًا، وقد يسرناه على أنفسنا

(نظيري)

(١) "المغيلان" شجيرات شائكة ونبات كثير الشوك ينسبونه أصلاً إلى جزيرة العرب، والبيت ترجمة إبراهيم
أمين الشواربي .. ديوان حافظ الشيرازي، ص: ١٨٧ .

والعاجزون الذين يختارون الطريق الثاني، لاهم يعرفون صعاب هذا الطريق وعقباته، ولا يدركون ضعفهم وعجزهم، ومع ذلك يسرون فيه، فالقدم لا يمكن أن تخطو خطوة بلا طريق ويظهر الزمن أمامهم مرارا بلا توافق وبلا امتيازات، وعادة الطبيعة أن العاجزين يودون أن تشتبك كل خطوة بطرف العزيمة والإرادة، ومع ذلك فلا تزال رحلتهم مستمرة، ولم يتمكنوا من السير خلف الزمن، لكن قد يستطيعون المرور فوقه، وفي النهاية يمرون بلا مبالاة ..

ما أحل الوقت يا عرقي عندما لم يفتحوا الباب في وجهه
وسكن أمام الباب غير المفتوح ولم يطرق الباب الآخر .

(عرقي)

والآن فقد كشف صباح العيد لوجوهنا النقاب عن رقة الصباح الصادق
ليتسم بلا حجاب ..

لقد كشف الحساء عن وجهها الناري علانية

(غالب)

ولم أحاول لفت انتباهك إليّ كثيرا الآن، فبريق شروق صباح العيد أجابك،
وقد ذكرت في أحد الخطابات منذ عدة سنوات الشاي العنبري في ليلة من ليال شهر
رمضان المبارك، وهذا ليس وقته، لأنك تتناول جرعات الشاي المتعاقبة قبل صلاة
عيد الفطر، لأن التعجيل من سنة عيد الفطر والتأخير في عيد الأضحى !

إنه العيد والسرور والطرب والندندنة العامة ،

اشرب الخمر ولو الخمر حرام فالذنب على

إذا أصابك الهزال من الصوم فحلل لنفسك الخمر ،

فقد حُلّت هذه المسألة على يد الساقى الذى هو الإمام .

(غالب)

أبو الكلام

خطاب - ١١

قلعة أحمد نجر

١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٢م

لماذا أقول : يوجد خبر عني ما دام لا يوجد
ولماذا أقول : لا أنظر إليه ما دمت أنظر

(فيضى)

صديقي الكريم:

الساعة الآن الثالثة والنصف صباحا، وقد أمسكت بالقلم في ذلك الوقت علمت أن المداد قد نفذ، وتذكرت أن زجاجة المداد كانت خالية كي أطلب زجاجة جديدة ولكنني نسيت أن أطلبها، وفكرت في أن أضع فيها قليلاً من الماء، وفجأة مع نظري على إبريق الشاي، وضعت قليلاً من الشاي في الفنجان ثم غمست من القلم فيه فسارت في القطارة ثم حركته جيداً حتى خرج المداد منه بشكل كامل، انظر الآن فأنا أسطر على صفحة الرسالة بأنفاسها الباردة مستعملاً عرق الشاي الساخن المر بدلاً من المداد..

إن الشعلة تطل برأسها من قلبنا الممزق ،
فقد كان فوران النار اليوم في نافورتنا .

(حافظ)

وعندما تكون طبيعتي كثيفة تخرج الألفاظ كثيفة، ولكنني أعالج كتابة طبيعتي بكثوس الشاي الساخن، وقد جرعت اليوم القلم جرعة منه..

إن ما هو مهياً ليفى الكأس والقدر هو النار .

(عرفي)

وعليك ألا تتعجب من أسلوب العمل هذا، فقد استعمل فيض هذا الأسلوب نفسه قبل ثلاثمئة وخمسين عامًا من اليوم، وأخبرنا بذلك في كتابه (نل دمن):
حتى أجعل المكتوب غصًا نديًا غمست القلم في الخمر

(فيضي)

والكأس اليوم أيضًا هي الكأس نفسها التي تأتي مع دوران الأيام، لكن إن ما هو متبقى من سور في الكأس قد تغيرت حالته قليلاً..
أشد قليلاً من خمر ليلة أمس

(غالب)

وقد فكرت مرارًا أهم مجبرون من أجل الإقرار بوجود الله؛ ولو لم نفعل ذلك فلن يبقى هناك أي حل للغز مصنع الوجود، وفي داخلنا طلب الحل الذي يجعلنا مضطرين:

ذلك الذي أنزل هذا الكتاب المغلق في البداية ،
وعقد عقدة شديدة على رأس المضمون .

(فغاني)

لو واجهنا مسألة معقدة وبحثنا في حلها، فماذا نفعل؟ وهذا الحال موجود بالطبع في داخلنا، ووضعنا المنطق والرياضيات على طريق الحل فإننا سنمعن النظر في العقدة، فكل عقدة تقتضي جواباً خاصاً من أجل حلها، وسوف نحاول ونجتهد ونجعل أمامنا الحلول المختلفة للواحدة تلو الأخرى، وسوف نرى هل نجد الجواب المناسب أم لا؟ ومن ثم نظفر بالحل الذي سيجنب على جميع مقتضيات العقد، وتستقر جميع جوانب المسألة، ونكون متأكدين بشكل كامل أننا وصلنا إلى الحل الصحيح

للعقدة، وسوف نطمئن لهذه الدرجة من الشهادة الداخلية لحقيقة الأمر، حيث لا يبقى لنا أي حاجة لشهادة خارجية، والآن لو ظهرت آلاف الشبهات فإنها لن تزلزل يقيننا وعقيدتنا .

افرض أن شخصاً ما مزق قطعة من الملابس الحريرية، وكانت هذه القطعة هكذا ممزقة ومشرشرة، وعندما تحاول أن تعالج هذا الخطأ وتأتي بقطعة أخرى تثبتها مكانها فلن تملأ الموقع الخالي مكانها، والآن لو وجدنا كثيراً من القطع من هذه الملابس ووضعنا هناك كل قطعة لنرى هل اكتملت نوعية هذا الخلاء أم لا؟ لكننا وجدنا أن أي قطعة لا تتطابق معها، ولو تتوافق في إحدى الزوايا فلن تستعصى على الالتصاق بالزاوية الثانية، وفجأة ظهرت إحدى القطع وأكملت كل القطع، المعوجة، وتبين بوضوح أن هذا الخلاء يمكن أن يمتلئ فقط من هذه القطعة، والآن مع أنه لم تكن هناك الشهادة الخارجية لتؤكد ذلك لكننا لدينا يقين كامل بأن هذه القطعة هي التي مزقت من هنا؛ وتصبح هذه الدرجة من اليقين مصداقاً للمثل: (لو كشف الغطاء لما ازداد يقيننا)

ولو تقدمنا للأمام خطوة من هذا المثال وتمثلنا أمامنا مثال مفصل ونريد أن نرتبه بطرق مختلفة لا حصر لها، لكننا لا نتمكن من ذلك، وفي النهاية نتوصل إلى ترتيب خاص به تكتمل فيه كل مقتضيات أجزائه وترمم كل ثقبه والآن مع أنه لا يوجد دليل خارجي على صحة ترتيبه لكن فقط يستطيع بهذا الترتيب أن يبعد عنه تعقيده، وسيصبح في حد ذاته دليلاً قاطعاً ومن ثم فلن نبقي في حاجة إلى دليل آخر، فعندما يتعد التعقيد، وتصبح الصورة هي الصورة نفسها، يكون هذا في حد ذاته دليلاً على آلاف الأدلة . والآن نتقدم خطوة أخرى في طريق العلم واليقين، ونستعرض مثالا ثالثاً أمامنا، وحضرتك سوف ترى القفل المفتوح بترتيب الحروف، ونهتف باسم أبجد القفل الأول، ويفتح بإعداد لفظ خاص وهو غير معروف لنا، والآن سوف نقوم بإعداد العديد من الألفاظ، وسوف نرى هل تفتح أم لا ؟

وافرض أن أحد الألفاظ المعدة لكشف، والآن هل ستتيقن من هذا الأمر أم لا؟ وأن مفتاح هذا القفل كان مختلفاً في مثل هذا اللفظ، وعن الحل، وكان في فتح ذلك القفل، وعندما فتح لفظ القفل فماذا يبقى بعده؟ يستحق المزيد من البحث .

فبعد وضع هذه الأمثلة أمامنا أمعنوا التفكير في لغز طلسم الوجود الذى هو نفسه يعيش داخلنا ويتنشر في أطرافنا الأربعة، وقد ظل الإنسان يبحث عن حل هذا اللغز منذ أن تفتحت عينيه على الفكر والمعرفة، لكن الورقة الأولى والأخيرة من هذا الكتاب القديم فُقدت، فلا هو يعلم كيف كان يبدأ، ولا يجد أي أثر له ينتهى ولماذا؟

فهذا الكتاب سقطت صفحته الأولى والأخيرة منه .

(كليم همدانى)

فما مصنع الحياة والحركة ولماذا؟ وهل له أي بداية أو لا؟ ولعله أيضاً بعد أن يذهب إلى مكان ما أم لا؟ وما الإنسان نفسه؟ الذى نظل نفكر فيه ونقول ما الإنسان؟ وما الشيء المفكر والفاهم نفسه؟ وبعد الحيرة هل جميع تلك الحجب التي خلفه موجودة أم لا؟

ولقد مت بسبب هذا الفراق ولا سبيل لى وراء ذلك الحجاب

أو لعل السبيل موجود، ولكن صاحب الحجاب لا يدلنى عليه^(١)

(حافظ)

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن عندما كان الإنسان في عهده الأول يشاهد الشمس وغروبها بعد أن طل برأسه من مغارات الجبال، وحتى اليوم عند تجارب العلم أخذ يطلع على وجود الفطرة التي لا تحصى دون حجاب، ولقد ظلت آلاف الأفكار في الفكر والعمل لدى الإنسان ولكن ظل هذا اللغز هو اللغز نفسه ..

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي .. ديوان حافظ الشيرازي، ص: ١٢٩ .

أسرار الأزل لا أنت تعلمها ولا أنا
وهذا الكلام المسمى لا أنت تقراه ولا أنا
إن قولى وقولك من خلف الحجاب
فإذا سقط الحجاب لا أنت تبقى ولا أنا

(عمر الخيام)

وقد بذلنا العديد من الجهود من أجل إيجاد حل جديد لهذه المعضلة التي ازدادت تعقيداً، وبتراءى أماننا حجاب وتنفانى الأجيال بعد الأجيال في كشفه، ولكن عندما ينكشف الحجاب يتضح لدينا أن خلفه مئة حجاب، وأن الحجاب الذى كشفه هو في الحقيقة لم يكشف الحجاب، بل أظهر حجاباً جديدة، وحتى الآن لا نجد إجابة لهذا السؤال في حين تقف أماننا عشرة أسئلة جديدة، ولم نكن قد قمنا بحل أحد الأسرار حتى بدأت مئة من الأسرار الجديدة تتباعد..

إن العالم حائر في هذا الميدان الملىء بالنصب والاحتيال ،
فهناك إعداد ونجهيز للمعركة ومئة دولة تشاهد .

(نظيري)

يشبه أينشتاين "Einestein" في الجهود التي بذلها في أحد مؤلفاته^(١) للبحث عن حقيقة العلم؛ بأنه مثل مخبرات (شارلك هولز)، ولا شك أن هذا التشبيه مناسب تماماً ويؤدي الغرض، وكان يجب عنا استطلاع هذا العلم التنقيب عن أعماق الفطرة غير المعروفة وسبر غورها لأنه "Atoms" منذ عصر (ديموقراطيس) (Democratus) أي قبل المسيح بأربعمئة سنة، وحتى اليوم عندما نهتدى بنظرية مقادير العنصرية (Quantum Theory)؛ فإننا نتابع خواص تركيب الذرة، ونتيجة للجهـد والبعـث في العـلوم لم نخرج بشيء سوى حل المعضلات السابقة، وظهور

(١) "the Aluelusion of physics" وشاركة (ليو بولد أنفلد) في تأليفه. (المؤلف)

معضلات وعقد جديدة، ولقد اهتدينا إلى الكثير من المنازل الجديدة في طريق السفر، ولكن الحقيقة أننا عثرنا على آخر هدف مقصود ظهر مسافر العلم وهو غير معلوم حتى اليوم، وهكذا كان الألف وخمسمئة سنة الأولى، ويجب أن نكون بالقرب منها بهذا القدر لكنها تذهب بعيداً إلى هذا الحد..

عشرته معى هى الألفة بين الموج والساحل ،
معى لحظة بلحظة ودائماً هارب منى .

(كليم همدانى)

ومن ناحية أخرى فإننا نشعر بأنه في داخلنا عطش لا يطفأ ظمأه ويريد أي حل للغز الوجود هذا، وكم من مرة ضغطنا عليه ولكن تكون هناك آهة على حرارة كثيرا من الأوقات، ونحن لسنا بحاجة إلى أي حل مقنع، ولكن هذا مجرد تخيل مزيف يصطدم ويتعارض مع الاقتضاء الطبيعي للحياة ويظل بعد أن يتحطم.

عليكم مطالعة المآثر الجديدة لمفكرى أوروبا وأمريكا؛ وأن تنظروا إلى المعركة الحالية في عقولهم جميعا، والتي كانت حتى الأمس يحاولون أن تكون هى نفسها تصورا مطمئنا فكيف يكون إثارة لضجيج؟ والمسألة لا تتعدى عدة أيام عندما اطلعت على مقال للبروفيسير جود (Joad) يذكر فيها جميع الحلول التي تتعلق بالدين ووجود الله والآن يجب أن تمنع التفكير من جديد بعد أن أعلن البروفيسير جود الحرب، وإلى أي درجة كانت تختلف قبل أن يعلق البروفيسير جود الحرب، وكان (برتراند راسل) - "Bertrand Russell"، قد أبدى هذا الرأي نفسه في مقابلة طويلة العام الماضى ونشرت في بعض المجالات الأمريكية.

ولكن في الوقت الذي يبرز أماننا هذا اللغز للعقل البشري بشكل جديد؛ يتنامى الحل أيضًا في ذلك الوقت، وبدلاً من هذا الحل يجب أن نبحت عن حل آخر، وعندئذ نبدأ في التيقظ ورفع الرأس على جميع إخفاقاتنا .

حسنا، الآن عليكم أن تمنعوا التفكير إلى أين تأخذنا في النهاية جهود حل هذا اللغز، فكل زاوية من زوايا المصنع مصنع الحياة الكاملة، له سؤال كامل في كل ظهور له، فلنأخذ مثلاً على ذلك الشمس فإن ذرات ضوئها لا تعد شيئاً ما لم تكن اقتضاء القلم، ما كل هذا؟ ولماذا كل هذا؟ ولمن كل هذا؟ ونحن نعتمد على العقل ونستند إليه. وفي هذا الضوء (النور) هتف باسم العلم، وبقدر ما نجد الطريق نسير فيه، لكننا لا نجد أي حل، يمكنه أن يطفى عطش اقتضاء هذه المشكلة، وينطفى النور، وتتحجر الأعين، ويأتي الجواب كلياً اعتماداً على العقل والإدراك، ولكننا بعد ذلك نرجع القهقري إلى الحل القديم. وننمى معلوماتنا فقط اعتماداً على هذه المقولة: (يوجد صاحب إدراك وقوة إرادة خلف الحجب)، وفجأة تنقلب صورة الحال بجرة قلم ويتضح لنا كأننا خرجنا من الظلمة فجأة ووقفنا في النور هو النور، ونجيب عن كل سؤال، وتحقق مطالب كل اقتضاء، ونجد شفاء الغليل لكل عطش، وكأن كل هذه العضلة كانت قفلاً فتح بمفتاحه..

كلما سعت وتحركت بقوة صرت أكثر اضطراباً وحيرة
وكلما هدأت تعمقت في منتصف البحر

(عرفي)

فلو أنه توجد هناك إرادة عاقلة لخلق الحجب فإن أي إرادة تكون هناك هي نتيجة لأي هدف مقرر ومحدد، ولأننا وضعنا أمامنا هذا الحل لترتيب هذه العضلة، ونخرج معاً كل مائل معقد، ونصلح كل الثقوب في مكانها ونبقي عليها، لأن كل "ما هذا" و "لماذا" له جواب ذى مغزى، وكان حل كل روح هذا اللغز يتقلص في عدة ألفاظ التي عندما تأتي أمامنا لا تظل لغزاً بل تصبح قصة ذات مغزى، ومن ثم عندما تمحى هذه الألفاظ من أمامنا، تغيب جميع المعاني والإشارات وتظل أحد الألغاز الباردة التي بلا روح.

ولو تقول إن الروح في الجسم ويبرز المعني في اللفظ؛ فإن أجسام حقائق الوجود تحمل في داخلها أي معني للروح، والحقيقة هي أنه بمثل هذا الحل يمكن أن ينشأ معنى للروح فقط في الجسم؛ لأن لغز الحياة بلا روح أو معني، ويجعلنا مجبورين علي أن نسلم بأن هذا الحل هو الحل .

فلو لم يكن هناك أي إرادة أو هدف خلق الحجب، فلن نجد هناك أي شيء سوى الظلمة، ولكن لو نستعمل أي إرادة أو هدف يرجع الحال كما كان عليه ويبقى النور نورًا، لأن فطرتنا تطلب النور ونضيع في الظلام ونطلب السير في النور، وهنا نستطيع أن نجد أحد الحلول في طريق النور فقط.

ويتجلى المثال في كائنات الفطرة (pattern)، ولأن مثل هذا المثال عظيم وجمالي (Aesthetic) أيضًا فإن عظمته ترعبنا، وهناك الجمال يولد فينا الشفق والوله، ومن ثم هل افترضنا أن هذا الظهور للفطرة دون أي استخدام لقوة الإدراك (Interlligent) نحن نريد أن نفترض هذا ولكن لا نستطيع، ونشعر بأن مثل هذا الفرض علينا أن نؤديه وهذا انتحار لعقلنا .

ولو تمعتوا النظر فعليكم أن تتأكدوا من هذا الحل، ويجب أن نستعمل النظر في هذا الطريق، ونستعمل عقولنا في حقائق القياس والأعداد الرياضية، وسوف نسلم بهذا الحل فقط عند حل أي مسألة عددية أو قياسية، وعندما نهتدي إليها نحل هذه المشكلة، وأن حل هذه المعضلة لدليل راسخ على صحة الحل، ولا غرو أن نوعية المشكلة والحل في كل الحالتين ليست مطابقة، فالمشكلة في المسائل العددية عديدة، وهما عقلية، وهناك نجد أن الحل العددي يؤسس اليقين في الحقائق العددية، والحل العقلي هنا يقود إلى الإذعان العقلي، ومع ذلك فإن قالب أسلوب الفكر في كلا الموضوعين متشابه، وكلا الطريقتين مفتوح بشكل متماثل ويغلغان بطريقة متشابهة .

ولو يقال إننا نشعر بالرغبة في الحل؛ لأن الدائرة المحدودة لمشاعرنا وإفهامنا تعودت على هذا الأمر، ولن نجد الإقناع بأي حل آخر سوى هذا الحل، ولهذا فإننا من أجل وزن

الحقيقة فإننا نمسك بأيدينا ميزان مشاعرنا، وجوابه واضح فنحن بأنفسنا لا نستطيع الخروج عن دائرة فكرنا وفهمنا، فنحن مجبرون، وبعد أن نقيسه ونقدره نفكر فيه ونصدر الحكم، وهذا الذي نقوله بأننا مجبورون لأن نفكر ونصدر الحكم..

وهذا الكلام أيضًا على قدر فهمي .

(عرفي)

وللمسألة جانب آخر أيضًا ولو أمعنا النظر فيه سوف نجده واضحًا فورًا، فالوجود الحيواني للإنسان كان قد تطور وارتقى بعد أن وصل إلى مرتبة الإنسانية، وترك جميع المنازل السابقة بعد أن تجاوزها ووصل إلى أرفع منزلة في منازل السمو والرفعة، وقد انفصل عن جميع مخلوقات الكرة الأرضية وتميز عليها ويضع نصب عينيه منزلة عالية من السمو من أجل رقية غير المحدود الذي يجذبه إلى أعلى ناحيته ويظل دائما ينشد البقاء في السمو والرفعة، ولا يريد أن يعوقه أحد بعد أن وصل إلى أعلى عليين، وأنظاره دائما ما ترنو إلى أعلى، والسؤال: هل يستطيع أن يكون هذا السمو غير المحدود نصب عينيه؟ سوف يقنع بلا توقف ما عدا وجود الله، ولو أبعد هذا الوجود من أمامه فلن يبقى أي شيء من أجل رؤية الطرف الأعلى.

هناك العديد من المخلوقات الموجودة على الكرة الأرضية وجميعها يحتل درجة أدنى من الإنسان، ولا تستطيع أن ترفع نظرها نحوه، وتنتشر فوقه الأجرام والأفلاك السماوية، لكن ليس بينها أي وجود يمكن أن يكون بالنسبة له نصب العين، وهو لا يستطيع أن يجعل الشمس نصب عينيه، ولا يستطيع أن يعشق النجوم المتلألأة، فالشمس تمنح جسمه الدفء لكنها لا تستطيع أن تضع الغرف الخفية لعقله وقلبه، ومن ثم ما الوجود الذي يستطيع أن ينظر ناحيته من أجل التحليق والسمو.

هنا يحيط به الاضمحلال والانحطاط من الجوانب الأربعة يريد أن يسجبه من السمو الإنساني إلى الانحطاط الحيواني، مع أنه يريد أن يصعد إلى الأعلى، وبعد أن

يسمو إلى درجة الحياة الحيوانية يبنى عشه على غصن الإنسانية المرتفع، والآن لا
يستطيع أن ينظر من عليائه إلى أسفل على الرغم من أن الانحطاط الحيواني يجذبه إلى
أسفل باستمرار أما هو فيرفع عينيه ناحية الفضاء الرحب الفسيح..
أنشوطتي ليست في حجم الساعد، هيهات
ولا كنت انشغلت بركن السطح

(عرفي)

وهذا السمو اللا متناهي يريد أن يرتفع به إلى أعلى مدارج السطح ويظل يسمو
ناحيته باستمرار ويظل يشير له إلى البقاء في كل لحظة في السمو والرفعة:
إنهم ينادونك من " شرفات العرش "
وإنني لأعجب ٠٠ ولا أعرف ماذا دهاك فبقيت في هذه " المصيدة " ؟^(١)

(حافظ)

كان أحد الفلاسفة الألمان يسمى ريل (Rilke) قد صاغ هذه الحقيقة يقول:
(إن جسد الإنسان لا يستطيع أن يهب وافقاً مباشرة ما لم يوجد أمامه مثل هذا الشيء
الذي يسمو به، ويستطيع أن يرفع هامته من أجل رؤية أي شيء مرتفع) .
ولا يمكن نصب عين السمو هذا إلا بتصور وجود الله، ولو أزيل هذا السمو
من أمامه فإنه سوف يحني رأسه للنظر إلى أسفل؛ ولأنه نظر إلى أسفل يبدأ سمو
الإنسانية يسقط في الانحطاط .

وهذا الشكل الحال يؤكد لنا أن عقيدة وجود الله تقتضي الاحتياج الفطري
للإنسان؛ ولأن المتطلبات الفطرية يجب أن تكون موجودة منذ البداية داخل الإنسان
فلن تكون أمراً مصطنعاً أو مزيفاً.

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي .. ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٧٢ .

فالمتطلبات الفطرية للإنسان كائنة في كل مناحي الحياة، والفطرة تلبى النداء الفطري للمتطلبات الفطرية، وطرف كل واحد منها يرتبط بالطرف الآخر ولا يمكن لهما الانفصال عن بعضهما بعضاً، فأيهما ظهر إلى حيز الوجود أولاً، فهل ظهرت المتطلبات الفطرية أولاً، أم أن نداءاتها قد رفعت رأسها أولاً، ولهذا عندما نشعر أحياناً بأي متطلبات فطرية فإنه علينا أن نؤمن لها إيماناً كاملاً بأن نداءها الفطري موجود بالضرورة ولا يتطرق إلينا أي شك في هذه الحقيقة .

فمثلاً نحن نرى أهمية الأمثلة والنماذج للرقى العقلي للإنسان في مرحلة الطفولة، وقوة محاكاته ولا يمكن للقوة الفطرية أن تترعرع دون هذه الأمثلة والنماذج لدرجة أنه لا يستطيع تعلم الكلام، وهو في هذه المنزلة الوصف المميز للإنسانية، ولأنه أحد المتطلبات الفطرية لهذا كان من الضروري أن تهيئ له الفطرة نفسها الجواب من أول يوم، لأن هذا الجواب يظهر منذ البداية في وجود الأم، ثم يرفع رأسه في نماذج الأب، ثم يتمدد يوماً بعد يوم، والآن أمعنوا النظر كيف يستقر هذا الوضع ويتأكد في عقولنا، ولا يمكن أن يتطرق إلينا الشك فيه، ولا يثار هذا السؤال في عقولنا وهو هل تؤدي نماذج الوالدين عملهما منذ البداية من أجل الطفولة، أو أن تصنع للإنسان يظهر فيما بعد، لأننا نعلم أن هذا مطلب فطري وأنا نرفع رءوسنا لجميع مطالب الفطرة؟ وعندئذ نعد العدة للإجابة عنه.

حسناً، وكذلك لو نظرنا إلى فطور عقل الإنسان بعد أن وصل إلى درجة خاصة فإنه يتفوق على كل تلك النماذج التي تنتشر في الجوانب الأربعة التي تضطر للنظر ناحية أعلى من أجل الطيران والتحليق ومن أجل صعوده وارتقائه، وهنا نتأكد أن وجوده مطلب فطري، ومن ثم فهو ضروري لأنه مطلب فطري، وله جوابه وله جوابه الفطري أيضاً موجود داخل وجوده، ويقوم عقله وذهنه بفتح عينيه من أجل أن يرى أمامه، فهل يمكن أن نجد هذا الجواب الذي نسعى للبحث عنه ولن يلوح أي رؤية سوى وجود الله .

ولم يخل هذا الأمر من أي تصور للأمانى منذ قبائل أستراليا الوحشية البدائية حتى العهود التاريخية للإنسانية المتحضرة، فالمواد الفكرية في تراويل كتاب "رج فيدا" كانت قد أقرت في ذلك الوقت، في حين لم يكن صبح التاريخ قد أشرق بشكل كامل، وعندما وضع الحثيون والعيلايون نقوش تصورات عباداتهم كانت طفولة الحضارة الإنسانية تفتح عينيها في النمو، وكان المصريون يهتفون بأسماء عديدة لربهم قبل ولادة المسيح بآلاف السنين، وكان الصنّاع يحفرون تراويلهم وأدعيتهم بالحمد والثناء على ألواح الطين الجافة، وكانت الشعوب التي جاءت بعدهم قد وجدت في هذا الميراث ..

نغمتك ليست في أى مقام موسيقى
العالم مملوء بك ومكانك فارغ .

(صائب)

وما أجهل اللوحة التي اقترحها أبو الفضل لمعابد كشمير "يا إلهي، إنني أستطيع
البحث في أي منزل أنظر إليه، وأستطيع التحدث بأي لغة أسمعها".

يا من سهم غمك علامة في قلوب	الخلق بك مشغولون وأنت غائب عنهم
تارة أعتكف في الدير وتارة أسكن الكعبة	أى إنسى أبحث عنك في كل منزل

(بهائي كاشاني)

أبو الكلام

خطاب - ١٢

قلعة أحمد نجر

١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٢م

صديقي المكرم

نفدت أمس أوراق الرسائل، ولكن عقلي لم ينفذ حينئذ أمسكت بالقلم وبدأت الأفكار تتزاحم في هذا الاتجاه.

فهذا هو موضع الإيمان والتفكير الذي يدفعنا ناحية الحقيقة، فما الأمر الذي يجعل الإنسان لا يستطيع أن يقنع بالتصور غير الشخصي وما عند وراء العقل عند الله وأن يتولد لديه تصور شخص مطابق لأفكاره ومشاعره بأي شكل من الأشكال، وأنا أتحدث عن هذا المعنى لتصور الشخصي هنا، ويطلق على هذا المعنى مصطلح "personal god" وللتصور الشخصي مدارج مختلفة، والدرجة الأولى منه شخصية محضة التي تثبت شخصية فقط، ولكن إذا تقدمنا أمام نجد أن هذه الشخصية ترتدي الصفات والأفعال الخاصة، والسؤال هنا: لماذا لا يكون هناك مفر من هذا الثوب؟ وعلته أيضًا هي أن يكون سمو فطرة الإنسان نصب العين بالضرورة، ولا يمكن أن يطفئ ظمأ هذه الضرورة بدون التصور بهذه العلاقة، وهذا بعض الحقيقة، ولكن عندما يتجلى هذا التصور أحيانًا أمامه، فإن هذا التشخيص سوف يلقي بالحجاب على الوجه، وهذا الحجاب يظل كثيفًا أحيانًا، ويكون أحيانًا نحيقًا، ويصبح أحيانًا أخرى خلابًا، لكنه لا يرفع عن الوجه أبدًا، ومن هنا يبدأ عجز عيوننا التي تعبد الصورة.

لوبيقى ستار على وجه الحقيقة فالذنب ذنب عيننا التى تعبد الصورة

(نظيري)

وتعد الهند أقدم منابع عقيدة وحدة الوجود في العالم، وقد وصلت هذه العقيدة في الغالب عن طريق الإسكندرية واليونان، قد شيدوا بنيانهم الإشراقي على مذهب الأفلاطون الجديد "Neaflonism" (وكان العرب يعتقدون خطأ أنه مذهب أفلاطون)، وهذه العقيدة منزهة عن جميع أنواع التشخيصات التصورية لتصوير الحقيقة وقائمة على التصور الكامل المطلق البحت، ولا يمكن أن تشكل الصفات مع هذا التصور ولا تشكلت أيضًا فإنها تكون من حيث المظاهر والمقررات، لا من حيث وجود الذات المطلقة، وفيما يتعلق بذاتها في ضوء هذه العقيدة، لا نستطيع أن نقول شيئًا بدونها لدرجة أنه لا يمكن الإشارة إليها، لأنه لو خيمت إشاراتنا عليها لن تظل الذات المطلقة مطلقة وسوف يتلوث التشخيص والحدود بالغبار، ولقد بين بابافغاني كل شيء من خلال مصرعين من الشعر فقط..

المشكلة هي حكاية أن كل ذرة هو بعينه
ولكن لا يمكن الإشارة إليه

(فنان ي)

ولهذا السبب فإن المؤمن بفلسفة الفيدا في الهند قد اختار طريق نفي الصفات وابتعد كثيرًا عن إرادة التنزيه، ولكننا رأينا بعد ذلك أنه لم يطفأ ظمأ الهند، وبدأنا نرى أنها تظهر ليس فقط في الذات المطلق (لبرهما)، والذات المتصفة المشخصة (لا يشور)، بل في تحت التماثيل الحجرية ووضعها أمامهم ليتثبت بها القلب ويتعلق ولا يظل أمامهم أي ملجأ أو مأوى:

ليس هنا أي صورة سوى الله .

(مظهر الدهلوى)

وقد رأى اليهود الله في صورة ملك قاهر جبار، وعلاقة إسرائيل بأسرته مثلها كممثل الزوج الغيور على زوجته الأثيرة لديه، والزوج يعفو عن جميع خطايا زوجته لكنه لا يعفو مطلقًا عن خيانتها، لأن غيرته لا تستسيغ أن يشاركه شخص آخر في محبتها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ النساء: ٤٨ .

وهكذا نجد في التوراة حكما من الأحكام العشرة يقول: " لا تصنعوا تمثالا لي، ولا تحنوا أمامه، لأنني أنا الله إلهكم إله غيور"، لكن هذا المفهوم اتسع بقدر ما، وظهر في هذا التصور أيضًا اتساعا ورحابة لدرجة أنهم بدأوا في وضع أسس هذا التصور في عهد أشعيا الثاني (ISAIAH) الذي اتخذ فيما بعد شكل التصور بجميع أبنائه ويعفو ويصفو ويصفح عنهم..

إذا كنت تجزى الذنب منى بمثله ،
فما الفرق ما بيني وبينك يا ربى^(١).

(المترجم)

والإسلام في أصل عقيدته قائم على التنزيه "ليس كمثله شيء".
وأنا لا أنفي هذا التشبيه العام بشكل قاطع، فهذا لا يعد شيئا بالنسبة لتصورنا التشخيصي .. "لا تضربوا الله المثل" لم تترك أي أمل باق لإدراك الحقيقة..

اربط اللسان وافتح النظر فإن منع الكليم

(جواب لن ترانى)

هو إشارة إلى تعلم أدب الطلب

(كليم همداني)

ومع هذا فإن تصوير مثل هذه الصفات هي من أجل مشاهدة تصور الإنسان، وارتدى التنزيه المطلق ملابس الصفات الشخصية "ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها"؛ ومن ثم لم تمنع هذه القضية بفتح نافذة المجازات من آن لآخر ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المائدة: ٦٤ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الفتح: ١٠ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ الأنفال: ١٧ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُرْصِدٌ﴾ الفجر: ١٤ ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن: ٢٩ .

(١) هذا البيت ترجمة أحمد الصافي النجفي: رباعيات الخيام، ص: ٨٠.

إن حديث مشاهدة الحق بكل صورة وحيلة ،
لا تتم بدون حديث الكأس والخمر

(غالب)

يتضح من هذا أن وضع السمو والرفعة نصب العين مطلب نظري للإنسان،
ولا يمكن أن يكتمل مثل هذا التصور بدونه، لأنه يتراءى أمامه بأي شكل من
الأشكال وعندما يأتى أمامه يظهر في صورة نقاب على وجه مطلق وغير محدد..
آه من تلك الحوصلة الضيقة ومن ذلك الحسن العالى ،
كيف لا يشكو قلبى من الحسرة على عدم رؤيتك .

(مظهر)

إن العقل البشري لا يمكنه التصور في غير الصفات، وطلبها مرغوب ويمكن
إدراكه فهو يريده مثل جلوة المحبوب التي يستطيع أن يتعلق بها قلبه ويستطيع أن
يلهث وراء الحسن المهارب، ويمكن أن يرفع يد العجوز والحاجة من أجل الإمساك
والثبث بطرف كبريائه ويستطيع أن يقضي ليلالى الحب بسرية وعجز، وعلى الرغم من
أنها تمنحه السمو والرفعة أكثر فأكثر لكنها مع هذا تجعله يسترق النظر كل لحظة حتى
يظل ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ الفجر: ١٤ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة: ١٨٦ .

محجوب وعزق الحجب عن الجميع
لك وصال مع كل واحد وليس لأحد وصال بك .

(واحدى)

ويكون التصور الذي لا يتسم بالصفات مجرد إنكار ونفي، ولكن تصور
الصفات يتشكل أيضًا في صورته الإيجابية بجانب إنكار التشبيه، ولهذا فإن تصور
صفات هنا لا مفر منه، وهذا السبب نفسه الذى جعل علماء السلف وأصحاب
الحديث عند المسلمين يختارون منهج التفويض ويتجنبون تأويل الصفات، وبناء على

هذا وصفوا الجهمية بالجمود لأنكارهم في الصفات، وبدءوا يشتمون رائحة الجمود كذلك في تأويل المتكلمين والمعتزلة، وكان المتكلمون يتهمون أهل الحديث بالتشبيه والتجسيم، "Anthromorphic" ولكنهم كانوا يقولون إن تشبيهها المزعوم أفضل من جمودكم، لأنه يبقى هنا مثوى وملجأ للتصور أما أنتم فلن يبقى لكم شيء بعد جهودكم في الإنكار والنفي. والأوبنساذ لدى الهنود تسمى بالذات المتصفة على الذات المطلقة التي ترسم صورة لتلك التخلقات، وينظر إليها صوفية المسلمون ويعبرون عنها بمراتب الحدية والوحدانية، ومرتبة الأحدية هي الوحدانية المحضة، ولكن الأول يكون مكان الوحدانية ويرغب في المراتب الأولى والثانية والثالثة والرابعة أيضًا (كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق) ليس حديثًا قديسًا ولك أحد الأقوال الماثورة، ولكن لا شك أنه يخبرنا بالتفكير العميق:

إن الحسن هو القلب عاشق الوحدانية وإلا
فإن كسر المرأة كان عندك فناً

(ببدل)

وقد تمت الإشارة إلى هذا المبحث في المجلد الأول من (ترجمان القرآن) ضمن تفسير سورة الفاتحة، وفي المجلد الثاني ضمن التفسير ﴿فَلَا تَقْرَأُ لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ النحل: ٧٤ ولو ينشر هذا المبحث فإنه يستطيع أن ينتشر بعيداً جداً.
وتلقين أهل النظر ودرسهم عبارة عن إشارة واحدة
ولقد قلنتها كناية ولن أكررها لك ثانية^(١).

وفي هذه السلسلة يتضح موضع آخر، وتنتهي بنا رحابته بعيداً، ولو لم يكن هنا أي شيء سوى المادة لكانت المرتبة البشرية قد نمت وسمت، فما تلك القوة التي نهتف بها باسم الفكر والإدراك؟ وفي أي مجمرة نشعل هذه الجذوة؟ وهل هي التي تولد فينا هذا الجوهر؟ وتجعلنا نبدأ في التمعن والتفكير في حقيقة المادة نفسها، وبناء عليها

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي .. ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٢٣٩. (المترجم)

نصدر العديد من الأوامر والأحكام .صحيح أن هذا الجوهر يتدرج في كل شيء في المخلوقات إلى أن يصل إلى هذه الدرجة فيظل كامناً في النباتات لفترة ما، ويبدأ يتقلب في الحيوانات ثم ينهض ويستيقظ بعد أن يصل إلى مرتبة الإنسانية، لكن هذا العلم في حقيقة الأمر لم يساعدنا بأي مساعدة في حل هذه المعضلة، وهذه البذرة سرعان ما تورق وتثمر، أو أنها تصل إلى هذه الدرجة بعد فترة من التطور والارتقاء، على كل حال فإنها تعد الخلاصة والجوهر للمرتبة الإنسانية وتظل في حقيقة ظهورها منعزلة في مكانها وأسمى من جميع الموجودات، وبعد أن تصل إلى هذا المقام تنفصل عن الحلقات السابقة لحيوانية الإنسان ، وتبدأ في رفع رأسها والاستعداد للسمو، وبعد أن تجلس على عرش حكم الأرض ترفع ظهرها إلى أعلى، هنا تبدأ جميع الأجرام السماوية في النظر إليها وكأنها تستفيد من عملها وتحتويها أيضاً، وتصدر الحكم كذلك على أفعالها وخواصها، وتعترف في كل خطوة بعجزها في المنافسة اللانهائية مع مصنع الطبيعة، ولكن العاجزين عن هذا الإحساس لا يأسون ولا يملون من أماني طلبه والسعي إليه، بل يبدأوا في الظهور والعلو بتفتح ونضارة أكثر ويرغبون في التحليق أكثر ناحية سمو والرفعة، والسؤال هو ما الفضاء اللامتناهي للفكر الإدراكي الذي يلحق الإنسان ويطير في محيطه ؟ فهل نكتفي للجواب عنه بهذا القدر من القول بأنه مجرد قوة عمياء ترقى وتسمو من خلال خواصها الطبيعية وظروفها وأحوالها الطبيعية، ويصبح شغلها الفكر والإدراك هما الآلة التي لم يعتد الناس على النظر إليها خارج دائرتها المادية، واستطاعت كذلك التعليل من جرأتها وأن تحيب بالإيجاب عن هذا السؤال بلا تردد.

وأنا الآن لا أريد الإشارة إلى هذه الثورة التي بدأت في الظهور في أواخر القرن التاسع عشر، والتي استطاعت أن تزعزع جميع المسلمات الأساسية للعلوم الطبيعية القديمة بجرة قلم مع بداية القرن العشرين، وأنا أطلع الآن المسألة من وجهة نظر عامة بعد أن سلكت طريقاً مختلفاً.

ومن ثم ما الصورة الحالية نفسها التى نعبر عنها بالنشأة والتطور "evolution" ؟ ولماذا؟ فهل نشير إليها بالبنان بشكل خاص ولا نتوجه إليها، لقد اتضحت لنا هذه الحقيقة بعد مئات السنين من البحث، وهى أن وجود جميع الموجودات اليوم بالشكل والنوعية التى توجد عليها لم تظهر إلى حيز الوجود مرة واحدة- أي إن أحدا ما لم يمنحها هذا الشكل والنوعية فجأة عن طريق العمل الإبداعي المباشر، بل إنها تخضع هنا للقانون العالمي للتغيير التدريجي وتطبيعته وتنقاد له ويظل كل شئ يتغير درجة بدرجة ويسير على مهل، وتستطيع أن تتحملة الأعداد الفلكية لفترة من الفترات بصعوبة بالغة، وتسير من أسفل إلى أعلى وتحمل الذرات حتى الأجرام السماوية، والجميع يخضع لقانون التخير والتحول هذا، ويتشكل في هيئته وشكله الحال، وهذا الصعود من أسفل إلى أعلى نفسه هو سرعة الطبيعة التى نعبر عنها باسم (التطور والارتقاء) - أي إنه تقرر بشكل معين يقتضى تطورا منظما متناغما مخيما على مصنع الوجود (الدنيا) بأسره ويوجهه نحو أي وجهة خاصة؛ ويظل يأخذه نحو الصعود، وكل حلقة أرضية (تحتية) سوف تولد درجة من حلقة سماوية (فوقية) بالتدرج، وتلقى كل درجة فوقية بتأثيرها هذا الخاص على سرعة الدرجة التحتية وستظل تصيغها في قالب خاص، وهذا التطور في الشكل الحالي لا يوضحها أو يبينها بنفس "selfexplanatory".

وهذا الأمر يحتاج إلى بيان وشرح ولكننا لم نحصل على أى توضيح مادي، والسؤال هنا: لماذا تكون حقيقة الأمر هكذا؟ وتقتضى وجود التطور وتصعد في كل ظهور إبداعي من الحالات التحتية وتجذبها نحو أعلى الدرجات، ولماذا يقتضى الأمر أن ينشأ سمو الطلب في الوجود؟ لأن هناك سلما مرتبا يصعد سلسلة الأجسام من أسفل إلى أعلى، وتقع كل درجة من بعده أعلى ولكنها أسفل لما سبقها، فهل حقيقة الأمر هذه تكون بلا أي معنى أو حقيقة، وهل يصبح هذا السلم دون وجود أي غرفة علوية؟ ولا يكون هناك أي سقف للرفعة يريد أن يصلنا إليه؟

فأخبروني أيها الرفاق من هو مظهر التجلي هذا؟

(نظيري)

ومن بين علماء علم الأحياء في العصر الحاضر؛ فقد قام البروفيسور للويد مورجن "Lloyd morgan" بدراسة عميقة لهذه المسألة من وجهة نظر علم الأحياء "Biology"، لكنه في النهاية توصل إلى هذه النتيجة نفسها أنه لم يستطع أن يجد أي توضيح وبيان مادي لحقيقة هذا الأمر، ويقول: إن النتائج "Resultant" التي يعمل عليها هنا نستطيع بيانها من هذه الناحية، وهى أن وجودها تقرر نتيجة الظروف والأحوال الحالية ولكن الظهور الفجائي "Emegant" يقضي التطور وهكذا يظل في حالة علو ورفعة، فظهور الحياة مثلاً لا يمكن أن يتجلى في الإدراك والذهن دون أي توضيح للاندماجين الذهني والمعنوي، وهنا يسلم بوجود قوة إلهية متحكمة وتجبرنا حقيقة الأمر هذه في النهاية على ألا نهرب من فكرة الاعتقاد المتحكم في أصل الخلقة (Creative Principle) في فطرة الكائنات، وأن مثل هذا الإبداع في ظرف وزمان هذا الوجود هو لا زمان "time less" في الحقيقة .

وعندما نطلع على حقيقة الوجود يشخص أماننا هذا الأمر الخاص فوراً، وهو أن كل نظام للفطرة هنا وقع حقاً، وما دام لم يربعد أن يسمو على مستوى سطحه فإنه حقيقة لا يمكن أي تكون بلا نقاب - أي إنه لا بد أن يظهر لنا مثل هذا المقام لرؤية جميع الأحوال والفطرة التي تقع في موضع أسمى منها، وأن دقائق عالم الطبيعية يتضح ويتكشف في عالم علم النفس "psychological"، ولقد انغمسنا في عالم البحث والتحليل المنطقي ولكن من أي موقع يرى ألباز البحث والتحليل المنطقي وهل يظهر أي موضع أعلى منه أو لا؟ وهل يستطيع في الحقيقة أن يوصلنا إلى منزل آخر؟

إن لدينا يقيناً بأن هناك مقاماً أعلى منه، ولكنه أسمى منه ونستطيع أن نتبين آثاره من التحليل والنظر العقلي وهو ما وراء المحسوسات "Super sensilb"، ومع أنه لا يتعارض مع المحسوسات فإنه مثل النار لا يمكن أن ترى، ولا شك في أن اليد تشعر بحرارتها ومن لم يذق لم يدرك..

أعد النظر وإلا فإن التغافل هو النظر ،
تحدث بلغة مفهومة وإلا فإن الصمت هو الكلام .

(وحشي)

فالكائنات غير ساكنة بل متحركة ومبينة على وجه خاص ومزينة؛ وتسير إلى الأمام ولها مقتضياتها الداخلية وتقوم بالتعمير والكمال في كل ناحية من نواحيها، ومع أننا لا نجد أي توضيح مادي لسرعة التطور العالمي للكائنات فلا يمكن أن نخطأ لو رغبتنا في البحث عن حل للحقائق الروحانية لهذا اللغز وفي هذا الموقع يجب وضع هذه الحقيقة أمام أعيننا؛ الآن نوعية العقائد المادية التي ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بدأت تهتز مع بداية هذا القرن (العشرين) فقد انهارت فجأة الآن ، وصارت الآن مجرد قوة بدلا من المادة الصلبة وقد أخرج خواجي الإلكترون "Electron" وأفعاله، والبحث في الانضباط العددي والإحصائي هذه القضية عن نطاق دائرة العلم واليقين الخارجي "Objective" للعلوم قد تزلزل الآن بأسره؛ ومن ثم عادت كليتها وذهنيته إلى العقلية الداخلية "subjective" ثم تقدمت نحو سفر جديد بعد عهد النشأة (النهضة) الجديدة، ولكنني لا أثير هذه القصة الآن لأنها بحث مستقل في حد ذاته.

ومن الصدق القول إن هذا الطريق لا يمكن السير فيه بطريقة الاستدراك العلمي فقط، فالضوء الأصلي هنا هو ضوء المتعة والمشاهدة؛ لكن لو لم نرغب في معرفة عالم الكشف والمشاهدة؛ فإننا نستطيع رؤية دلائل الحقيقة من الجوانب الأربعة ولو أمعنا النظر لوجدنا أن حياتنا نفسها كلها دليل طريق، ولقد أحسن من قال:

إن الخلق يطلبون علامة المحبوب ومرة ثانية
يغفلون عن المحبوب رغم العلامات الكثيرة .

(واحدى المراعي)

أبو الكلام

خطاب - ١٣

قلعة أحمد نجر

٥ ديسمبر سنة ١٩٤٢م

الصادق الكريم

كتب المحارب الصليبي الفرنسي جون دي جان ويل **Crusader jean** "dejaïn wille" عن تاريخ الحملات الصليبية الخامسة على هيئة مذكرات، وقد تم نشرها بعدة ترجمات إنجليزية، نسخته مكتبة (إيوري ميسنس) هي النسخة الأكثر تداولاً.

وقد قاد ملك فرنسا سان لويس (st.lewis) الحملة الصليبية الخامسة بنفسه على مصر، واستولى بشكل مؤقت على دمياط (demeitta) ثم توجه إلى القاهرة، وانهزم الصليبيون في المعركة على ساحل النيل، وتم أسر الملك سان لويس نفسه، وأطلق سراحه مقابل فدية مالية، وكل هذه وقائع تاريخية مشهورة، وقد كتب المؤرخون العرب عنها بالتفصيل، وقدم لويس بعد الإفراج عنه إلى عكا (Aca) التي كانت ولا تزال في قبضة الصليبيين بجانب عدة أماكن ساحلية أخرى، وقد أقام بها عدة سنوات وعاش جون ويل كل تلك الفترة الزمانية مع الملك لويس وعاصر جميع الوقائع التي حدثت في مصر وعكا. وقد غادر الملك لويس فرنسا عام ١٢٤٧م، ووصل إلى دمياط في العام الثاني، وفي العام الثالث وصل إلى عكا ثم عاد إلى فرنسا عام ١٢٥٤م، ولو طابقنا هذا التاريخ على التقويم الهجري فإنه يوافق ٦٤٣هـ و٦٥٦هـ.

وكان عُمر جون ويل أربعاً وعشرين عاماً عندما غادر فرنسا بصحبة الملك لويس ملك فرنسا، ولكن هذه المذكرات كتبها بعد فترة طويلة في سنوات عمره

الأخيرة، وقد صرح بهذا بنفسه في عام ١٣٩٠م، ٧٠٨هـ عندما كان يبلغ من العمر الخامسة الثمانين عاما، وقد مضى على الحملات الصليبية نصف قرن، ولا يوجد أي دليل أو شاهد عيان لكي نقول إن هذه الوقائع قد دونت أيام تأسيس مصر وفلسطين، وكل ما كتب حدث قبل ٨٥ عام^(١) وكان محفوظاً في ذاكرته، وعلى كل حال فإن كل ما دون عن أحداث الحرب موجود وموثق في هذه المذكرات، ونسلم به بشكل عام.

ولكن معلوماته عن العقائد الدينية للمسلمين، وأخلاقهم وعاداتهم لا تختلف كثيراً عن معلومات مؤلفي الصليبيين في العصور الوسطى، ومع هذا لا يوجد هناك فرق مهم لأنه قد حدثت الآن علاقات بين أوروبا والشرق الأوسط والتي قد نمت بدورها وترعرعت بدورها في ظل الحروب الصليبية، وقد مر على هذه الحروب مئة وخمسون عاما، وقد أتاحت الفرصة للمستعمرين الصليبيين الأوائل وحكمهم على المسلمين عن قرب، لهذا نرى من الطبيعي أن أفكار جون ويل تختلف عن أفكار الصليبيين الأوائل، حيث كان فكر الصليبيين الأوائل وحكمهم على المسلمين بأنهم كفار و"**Heathen, Penem** و **Pegan**"- أي أعداء المسيح، ولكن هناك أحاديث قليلة جيدة عن المسلمين، وليس كل شيء في عاداتهم وتقاليدهم، وإن كل ما كتب عن الحكومة المصرية ونظام الإدارة فيها، ونظام الجيش وقانون الدولة، يعد صحيحاً بنسبة سبعين في المئة، ولكن الأفكار عن عقائد المسلمين الدينية وأعمالهم ليست صحيحة إلا بنسبة خمسة وعشرين في المئة، والمعلومات الأولية غالباً ما تكون من عنده ولذلك فهي أقرب للصدق، أما المعلومات الأخرى فقد اقتبست من مصادر كنسية فلسطينية، ولذلك فهي مبنية على التعصب والكراهية، وإذا نظرنا إلى البيئة العامة لهذا الأمر فلا نجد ما يدعو للتعجب.

(١) سافر الكاتب الفرنسي (جون ويل) مع الملك لويس وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وبناء على هذا تكون الأحداث قد وقعت قبل ٦١ عاما ولويس ٨٥ عاما كما ذكر آزاد. (المترجم)

وقد أتاحت الفرصة لي هنا لمطالعة هذا الكتاب بعد فترة طويلة، فقد أحضر صديق لي في السجن بعض الكتب من مكتبة (إيورى مينس)، وكان هذا الكتاب من بينها. وهناك واقعتان جديرتان بالذكر هنا في هذا الصدد، حيث بعث الملك لويس سفيرًا إلى سلطان دمشق أيام إقامته في عكا وذهب معه مترجم يدعي إيوى لابرستان "yeaua la bretan" وكان واعظًا مسيحيًا ويعرف لغة المسلمين، والمتصود بلغة المسلمين هنا اللغة العربية، ويقول جون ويل عن هذه العلاقات الدبلوماسية ما يلي:

(عندما كان السفير يخرج من محل إقامته ويتجه نحو قصر السلطان، التقى (لا برستان) في الطريق بمسلمة عجوز في الطريق، وكان في يدها اليمنى طبق فيه نار، وفي يدها اليسرى إناء ماء، فسألها لا برستان لما تلك الأشياء؟ وإلى أين تذهين بها؟ فأجابته المرأة: "أريد أن أحرق الجنة بهذه النار، وأطفئ نار جهنم بهذا الماء لكي لا يبقى أي أثر لكل من الجنة والنار. فسألها لا برستان: ولماذا تريدین فعل هذا؟ فأجابته: لكي لا تبقى أي فرصة من الفرص لإنسان أن يعمل عملاً صالحاً طمعاً في الجنة وخوفاً من جهنم، بل يفعل الإنسان ما يفعله جباله فقط...". (momoris of the crusadas:240)

وهذه الرواية نفسها بعينها منقولة عن السيدة "رابعة البصرية" وهذه الكتب غير متوافرة، ولكنني أستطيع القول اعتماداً على ذاكراتي إن هذه المقولة نفسها قالها القشيري، وأبو طالب المكي، وفريد الدين العطار، وصاحب "عراس المجالس"، وصاحب "روح البيان"، والإمام الشعرائي، وجميعهم نقلوا هذه المقولة، ثم قالوا إنها كانت ترجع إلى فضائل مقامات رابعة البصرية.

تعتبر رابعة البصرية من كبار الصوفية الذين يصنفون من الطبقة الأولى، وقد توفيت في القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي، ويقولون عنها إنها خرجت من بيتها ذات يوم وفي يدها طبق فيه نار، وفي اليد الأخرى إناء به ماء، فسألها الناس: إلى أين تذهين؟ فأجابتهن الإجابة نفسها كما روى (لا برستان) عن

امرأة دمشق قالت: "إنني أريد أن أحرق الجنة بالنار، وأطفئ نار جهنم بالماء حتى يفنيان كليهما، لكي يعبد الناس الله وحده فقط، فلا يعبدونه خوفاً من النار وطعماً في الجنة).

ولكن هناك سؤال يطرح نفسه بشكل طبيعي وهو: كيف جرت هذه المقولة على لسان امرأة دمشقية عاشت في القرن السابع الهجري، وهي مقولة "رابعة البصرية" التي عاشت بالفعل في القرن الثامن الهجري؟ وكيف تكررت المقولة نفسها في شارع في دمشق؟ وقد قيلت قبل خمسة قرون في شارع في مدينة البصرة؟ هل هي أفكار شخص ما؟ أم انتقلت عبر السنوات والقرون؟ أم هي من بنات أفكار الراوي؟ فكل توجيه لا بد أن تكون له قرائن وأدلة، وهذا الأمر يحدث في مختلف الظروف والأحوال:

١- هذا هو الوقت الذي تشتت فيه شمل الصليبيين في فلسطين، ولم يكن في حوزة الصليبيين سوى منطقة واحدة مهدمة من الساحل، ولم يستطيعوا العيش بأمان وراحة في هذه المنطقة الساحلية لأنهم كانوا مهددين بالحرب ومحاصرين ليل نهار، ثم جاء الملك لويس لإعانتهم ولكنه قد أصبح هو نفسه في حاجة إلى إعانة إلا أن فساد أخلاقهم في هذه المنطقة قضى عليهم، ناهيك عن إخفاقاتهم الحربية آنذاك، وكان حماسهم المجنون على الشرق في البداية مشهوراً في أوروبا كلها، لكنه لم يدم الآن فقد دب فيه الضعف كثيراً وحل مكانه حب النفس والمصالح الذاتية، وكثرة الأطماع، لأن الشرق كان مليئاً بالخيرات في ذلك الوقت، فكان مطعماً لهم، فجرت بينهم العداوة والبغضاء، ولحقت بهم الهزائم المثالية في الحروب، وعندما خارت عزائمهم ضعف الهدف الحقيقي الذي هدف إليه الصليبيون، وكانت الأحوال الأخلاقية للعلماء المسيحيين أسوأ من الحكام الصليبيين وعامة الناس، فقد ذهب عن قلوبهم الإخلاص وحل محله الرياء؛ وكانت المظاهر كل ثروتهم، ولكل منهم قلة من المخلصين والعادلين.

وعندما يقارن بين حياة المسلمين وحياة المسيحيين نجد أن الأخلاق الدينية للمسيحيين تظهر أسوأ بكثير، لأنهم كانوا يتبعون الرياء، رغم أن المسلمين كانوا يعيشون بجانبهم، وقد حدثت وقفات بين الممارك وفتحت أبواب للعلاقات بين المسلمين والمسيحيين، وقد تعلم المسيحيون الصليبيون لغة المسلمين من المسيحيين الشوام، فتعرفوا على دينهم وعقائدهم، وأفكارهم، وكان لوعاظ الكنيسة دور مهم في كتابة المذكرات في النواحي الدينية من علماء المسلمين من أجل التعارف فيما بينهم، كما ورد في بعض السير أن العلماء المسيحيين كانوا يناقشون مع المسلمين في السيرة الذاتية، وتناقش علماء الصوفية المسلمين والقساوسة المسيحيين والرهبان فيما بينهم في المسائل الأخلاقية والدينية، وتعلموا كثيرا من بعض علماء الدين المسلمين الذين أسروا على أيد الصليبيين، وتناقشوا معهم في مسائلهم الدينية، وقد أسر الشيخ سعدي الشيرازي من جانب الصليبيين في الوقت نفسه ونزل في سجن طرابلس.

وكان من نتيجة هذا الوضع أن ظهر الإخلاص بين الصليبيين وتأثروا بهم وهم يقارنون بين حال المسلمين وحال الصليبيين، وأظهرت هذه المقارنة تفوق المسلمين الأخلاقي على المسيحيين، فبدأت الغيرة تظهر فيما بينهم وأخذوا العبرة من حياة المسلمين الدينية، وتركوا الأعمال السيئة وحب النفس.

ونتيجة لهذا نجد في مذكرات جون ويل انعكاسات لهذه الأفكار، ونجد بعض المقامات في هذه المذكرات منقولة عن أقوال المسلمين التي تحمل من جانبها التنبيه والعبرة للمسيحيين، وقد وردت في العلاقات الدبلوماسية بين الملك فرنسا ودمشق قصة سفر جون دي أرمانيان (john the armenian) لدمشق، وأن هذا الرجل ذهب إلى دمشق ليشتري فراء وفرونا ليصنع بها الأقواس الحربية فيقول: "إنني شاهدت مسلما طاعن في السن في دمشق، وعندما رأى هيئتي سألتني: هل أنت مسيحي؟ قلت له: نعم. قال الشيخ المسلم: أنتم معشر المسيحيين يكره بعضكم بعضا،

ولهذا أصبحتم أذلاء، وفي الوقت الذي رأيت فيه الملك الصليبي بالدوين (baidwin) في القدس (أورشليم) كان عنده مرض البهاق (البرص) وفي صحبته ثلاثمائة من المسيحيين فقط، وعلى الرغم من أن العدد كان قليلاً فإن عزيمتهم كانت قوية لدرجة أن (صلاح الدين) ظل مضرباً وقلقاً منهم، ولكن الآن أصبحتم منحطين بسبب آثامكم، وأصبحنا نصطادكم مثل الحيوانات في الغابة ليلاً ونهاراً.

ومن المحتمل أن يكون "لابريتان" من الناس الذين التقوا الصوفية المسلمين وتعرف على أعمالهم وأحوالهم، وكان يريد أن يستخدم تلك الأمور لنصح المسيحيين، وقد علمت أن لابريتان كان يلتقي جماعة الوعاظ المسيحيين، وكان يعرف اللغة العربية وليس يبعد أن يكون قد تعرف على الأفكار التي كانت رائجة بين المسلمين المثقفين والمتعلمين في ذلك الوقت، لأن مقولة المتصوفة رابعة البصرية كانت مشهورة وأنه عرفها عن طريق علاقته بالمسلمين، ولهذا فقد استغل فرصة السفر إلى دمشق، ووضع قصة للعبارة وكان الهدف منها حث المسيحيين على الإخلاص في الدين والعمل، ويبين لهم أن درجة الإخلاص في العمل لدى امرأة عجوز بين المسلمين أكبر من أن يصل إليها المسيحيون.

ومن الممكن كذلك أن يكون جون ويل قد تعرف على هذه المقولة بنفسه، لكنه نسبها إلى (لابريتان) وأعدّها على هيئة قصة من دمشق.

ونحن على علم بأن نقاد القرن التاسع عشر قد اعتبروا جون ويل من الرواة الموثوق فيهم، ولا شك أنه كان رجلاً متديناً في الظاهر، ومسيحياً مخلصاً مثلما اتضح من كتاباته في كل مكان، ولكن ليس من الضروري أن يكون رجلاً متديناً ليؤلف قصة هادفة لأغراض أخلاقية ودينية، فعمق فن الرواية أمر عجيب، لأن الشخص المتدين يؤلف قصته جيداً في بعض الأحيان، ويقع من خدعة أنه لو ألف قصة لمصلحة أو لهدف صالح فلا بأس بذلك، فهناك من الأزمة الغابرة من ألف خطاب من

الحواريين، واعتبرته الكنيسة فيما بعد مقولة غير معروفة وغير مدونة، وكان "أبو يفو" (Apooryo) قديسا شديد التدين، ولكن هذا التدين لم يمنعه من تأليف الروايات والأخبار ونسبها للحواريين وهم منها براء.

المحدثون الذين وضعوا الحديث في القرون الأولى من تاريخ الإسلام، ومن بينهم جماعة من الوعاظ والزهاد والمتدينين كانوا يسمعون الأحاديث الكاذبة (الموضوعة) لإيجاد نوع من التشويق للأعمال الصالحة، وكانوا يعتقدون أنه لا بأس بها، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل: (إن أخطر فرقة من واضعي الحديث هي تلك الجماعة).

وفي هذا الصدد يجب أن نضع أمامنا هذا الاعتبار وهو أن القرن السابع الهجري يعد قرن الصوفية والعالم الإسلامي بأثره؛ خاصة مصر والشام كانت حياتهما دينية في ذلك الوقت تميل إلى التصوف آراء وأفكارا، وقد أسست الزوايا بكثرة في كل مكان، حتى الأمراء والعامة كانوا ينتمون إلى هذه العقيدة، كما أن أكثر الكتب الصوفية المتداولة ألفت في هذا القرن نفسه وما تلاه، وقد ألف الحافظ الذهبي مؤلفه المشهور في التاريخ بعد ستين أو سبعين عاما من هذا العهد، فكتب أن (جميع الملوك والأمراء المسلمين كانوا يعتقدون مذهب التصوف في ذلك العهد) والزوايا التي ذكرها المقرئ في تاريخ مصر كانت أغلبها قد بنيت في ذلك العهد أيضًا، ولا عجب في هذه الحالة أن الصليبيين الذين تعرفوا على أفكار المسلمين، قد تعرفوا على أقوال الصوفية؛ لأن الطابع العام في ذلك العهد كان يصطبغ بالطابع الصوفي.

٢- من الممكن أن يكون لابرتيان من الناس الذين يحبون اختراع القصص والحكايات، ومثل هؤلاء الناس أدخلوا قصصا وحكايات خيالية موافقة لآرائهم، لجعل المستمع يتعجب ويفرح فقط، وبسبب عاطفة الرواة هذه ورد نصف فن الرواية في العالم غير

صحيح، وقد وضع الوعاظ والقاصون آلاف الروايات لجعل الناس يتلفتون إليهم، وعندما تأتي هذه الرواية تصبح مواد شبه تاريخية، ومؤلفات ملامعين وواعظ الكاشفي وغيرهما مليئة بمثل هذه القصص والروايات.

٣- يمكن أن تكون هذه القصة صحيحة، وتكون امرأة صوفية بالفعل قد عاشت في هذا العهد الذي نقلت عنه مقولة رابعة البصرية وفقاً لها أو تكرارها في الحالة نفسه والله أعلم.

ودائماً ما نجد تشابهاً وتوارد الأفكار والأحوال في مختلف الصور ولدى مختلف الأشخاص، ولهذا يمكن أن يكون في هذه الحالة قد ورد هذا التعبير على لسان امرأة في القرن السابع؛ وهو التعبير الذي عبرت به رابعة البصرية في القرن الثاني عن عشق الله وإخلاصها في العمل. وللأسف فإن الكتب غير متوافرة ولا كان من الممكن أن تعرف أحوال الصوفية في دمشق في ذلك العهد، وكانت دمشق تعتبر مركز التصوف للمتصوفين في القرن السابع الهجري .

والجدير بالذكر توجد هناك قصة عن (رابعة الشامية) في التاريخ، ولو لم تخن الذاكرة فقد كتب الشيخ جامي ترجمة لها في كتاب النفحات، ولكن عهده تأخر عن هذه الحادثة ولا يمكن تصور وجوده في الشام في ذلك العهد .

٤- والفرض الأخير الذي يمكن تصوره هو: إنه كانت هناك امرأة معروفة تمارس الرياء وتمثل دور مسرحية الصوفية في الطرق، والتقت لابرتيان وعندما سمعت أن الوفد المسيحي سيحضر إلى عكا جاءت في طريقهم عن قصد، ولكن هذا الرأي هو أبعد الصور عن القرائن التي تأتي في الذهن .

ونقل جون ويل قصة أخرى عن وفد شيخ جبال جبال "الموت"، وكما تعلم أن أول من لقب بشيخ الجبل كان حسن بن الصباح؛ ثم أصبح جميع خلفائه وورثته يلقبون

بهذا اللقب من بعده، وتعتبر دعوة الفرقة الباطنية العجبية نظامًا غريبًا في تاريخ أحداث العالم، وقد ظلت هذه الفرقة الباطنية حتى قرن ونصف القرن تقريبًا دون قوة عسكرية كبيرة، مع أن جميع دول غرب آسيا قد انحنت أمام هذه الفرقة المخيفة؛ فإنها لم تحصل على حكم عن طريق حجوم الجيش أو عن طريق الوراثة بل من خلال حملات القتل التي يضطلع بها الفدائيون ما جعلها قوة لا يمكن تسخيرها، ولم يكن هناك أحد من الوزراء الأمراء والحكماء والملوك وكبار الناس إلا وقد وصله خنجر الاغتيال، ووصول هذا الخنجر يعتبر علامة لو لم ينفذ أمر شيخ الجبال فإنه يقتل بلا ترو وكان الفدائيون منتشرين في المدينة بأسرها ويراقبون كالظل، ويصلون إلى أماكن شديدة الحساسية، وقد لقي عدد من الجنود الصليبيين حتفهم من قبلهم، منهم تمبلر "Templer"، وهاسبيتلر "Hospitaller"، وفي النهاية أجبروا على تنفيذ مطالب شيخ الجبال، وعندما فتح الصليبيون أورشليم (القدس) وجلس بادوين على العرش بعث إلى شيخ الجبال بضريبة سنوية، وعندما حضر "فردريك الثاني" لزيارة القدس عام ١٢٢٩م بعد أخذ الإذن من سلطان مصر أرسل سفيرا بالتحف الثمينة إليه أيضًا، وقد وصلت قصة قلعة الموت العجبية إلى أوروبا عن طريق هؤلاء الصليبيين، نجد الحكاية نفسها في المؤلفات التي كتبت فيما بعد، وقد اقتبس كُتَّاب القصة القصيرة في القرن التاسع عشر من هذه الروايات في قصصهم، ورأى بعضهم أن شيخ الجبال شيخ غامض من جبال سوريا وكان مركزه الرئيسي في لبنان.

وكتب جون ويل (خضر وفد شيخ الجبال إلى الملك لويس) في عكا، ويتقدم الوفد أمير يرتدي ملابس جميلة، وكان خلفه شاب يرتدي ملابس جميلة أيضًا، وكان في يده ثلاثة خناجر ونصلها مغمود في جراب واحد، وكان الهدف من هذه الخناجر إذا رفض الأمير اقتراح الأمير، يقدم له تلك الخناجر إنذارًا بالحرب، وكان يسير خلف هذا الشاب شابا آخر يحمل على كتفه رداء بحيث إذا رفض الملك مطالب الوفد يقدم له هذا الرداء ليكف به، أي إنه إنذار وتنبه له بأنه لا محالة سوف يقتل قريبًا.

قال الأمير للملك : "لقد أرسلني سيدي إليك هل فخامتك تعرفه أم لا؟"، فأجابه الملك قائلاً : سمعت عنه، فقال الأمير : "فلما لا ترسل إليه الهدايا القيمة من خزائنك كما يرسل السلاطين الآخرون الهدايا كل عام؟ إن ملك ألمانيا، وملك المجر، وسلطان بابل كل هؤلاء الملوك يعرفون أن حياتهم مرهونة برضاء سيدي ويستطيع أن ينهي حياتهم في أي وقت يريد؟".

وقد ورد الحديث في هذا المقال عن هدايا ملك ألمانيا، وملك المجر وأنها تأتي كل عام، وعرفنا أنهم لم يرسلوا الهدايا مرة واحدة في أيام إقامته في فلسطين، وكانوا يرسلونها كل عام، والمراد بسلطان بابل هنا سلطان مصر؛ حيث كان الفرنج يطلقون اسم "بابل" على القاهرة في الحروب الصليبية ويظنون أن بابل التي ذكرت في كتبهم هي تلك المدينة، لهذا جاء ذكر "بابل" وتكرر أكثر من مرة في الأشعار الحماسية، ويعتبر أهم وأكبر إنجاز لمقاتلي الصليبيين أن يطاردوا الكفار (المسلمين) في كل مكان حتى تظهر المنارات السابقة في بابل .

ويكتب جون ويل بعد ذلك أن شيخ الجبال كان يدفع الأموال كل عام إلى تميل وهاسبتل؛ لأنها لا يخافان من هجمته القاتلة ولا يستطيع أن يمسهما بسوء، وقال سفير شيخ الجبال: لو لم يستجب الملك لأوامر سيدي، فعليه أن يدفع الخراج الذي يدفعه سيدي لهما ليبرئ ذمته وقد حول الملك هذا الطلب إلى تمبلر، وفي اليوم التالي دعا تمبلر السفير وقال (لقد أخطأ سيدك خطأ كبيراً حيث تناول بسوء أدب على ملك فرنسا، ولو لم تكن مجبورين على احترام الملك حيث يشملك بحصانته لأخذناك وقذفنا بك في أمواج البحار، وعلى كل حال أمرك الآن أن تعود إلى وطنك فوراً، ثم ترجع إلى وادي جبل آلموت خلال خمسة عشر يوماً وسلمه رسالة صداقة وتحفا) قيمة من شيخ الجبال.

ورواية جون ويل هنا محل النظر، لأنها تخالف رواية المؤرخين العرب؛ فمن المعلوم أن الجماعات الصليبية اضطرت إلى أن تدفع الهدايا وقت سيطرتهم وتقدمهم

حفاظاً على سلامة أرواحهم، حتى فيردريك الثاني اهتم بأن تكون هناك علاقة مع شيخ الجبال، وعلى هذا فكيف نفترض أن قوة الصليبيين عندما أوشكت على النهاية في عام ١٢٥١م وما عدا بعض المناطق الساحلية على ضفة فلسطين؛ فكانوا يعيشون حياة بائسة مقهورة، فكيف أن قلب الحال فجأة؟ وبدل من أن يأخذ شيخ الجبال الخراج من (تمبلر) فإن شيخ البلاد كيف يخاف منه إلى هذه الدرجة، وينفذ أوامره بلا جدال وحالة تمبلرليين و(وهاستبلرين) وبين شيخ الجبال؟ وعلى هذا كانوا يتآمرون مع أعوان شيخ الجبال، وعندما سمع ملك الجبال بقدوم لويس الذي دفع فدية لسلطان مصر كي يطلق سراحه - فأراد أن يرهبه كعادته وأرسل سفيره برسائل تهديد بحملات بالقتل، وعرف لويس أن العلاقات بين شيخ الجبال وتمبلرليين قديمة جداً، لذلك حول أمره إلى "التمبلرليين" وقاموا بالصلح بينهما، وأقاموا صداقة بينهما، ثم تبادلوا التحف والهدايا فيما بينهما، واستمرت المراسلات الودية بينهما، والصورة التي تظهر أمامنا توافق ما كتبه مؤرخو العرب؛ حيث كتبوا أنه كان بين شيخ الجبال والصليبيين روابط قوية؛ حيث إن الصليبيين استأجروا أعوان شيخ الجبال لقتل بعض السلاطين المسلمين.

ولكن كيف نؤول قول جون ويل؟

القضية لا تخلو من أمرين هما:

الأول: من الممكن أن يكون التمبلرليين قد أخفوا حقيقة الأمر، وتغير أسلوب شيخ الجبال وانصاع إلى حكمهم الوهمي، ولهذا لم تتضح حقيقة الأمر لجون ويل وكل ما سمعه كتبه في مذكرته.

الثاني: الظن بأن الحميتين الدينية والعصية القومية هما اللتان حالت بينه وبين حقيقة الأمر، وقد انعكس الأمر تماماً فصور تفوق الصليبيين وسيطرتهم، وقد كتب جون ويل عن هزائم الصليبيين في مذكراته بصدق وبلا خوف وأنا أرى أن الصورة الأولى من الصور الأقرب للصواب من الصور التي قدمناها.

ويظهر ضعف هذه الرواية من الكلام المنسوب للتلمبريين؛ حيث قيل للوفد بأن يعودوا معهم رسالة الشيخ خلال خمسة عشر يومًا - أي سبعة أيام ذهابًا وسبعة أيام عودة، والحقيقة أنهم لا يمكن أن يصلوا من عكا إلى جبال ألموت في سبعة أيام في ذلك الوقت، وقد صور "المستوفى" في "نزهة القلوب" منازل ذلك العهد، ومن المعلوم أن قوافل شمال إيران لا تستطيع أن تقطع المسافة إلى بيت المقدس في أقل من شهرين، وواد ألموت يقع بعد إيران بمسافة كبيرة، فكيف تكون مدة سبعة أيام كافية؟ نعم ممكن أن يكون ذهاب البريد وإيابه في مدة قصيرة، ولكن يستبعد أن يكون سفر الوفد كان عن طريق البحر .

ويكتب جون ويل أن شيخ الجبال أرسل هدايا للملك لويس ومنها فيلا من الكريستال، وزرافة، وتفاح من الكريستال، ولعبة الشطرنج وكلها مصنوعة من الكريستال التي كتب التاريخ أنها زينت حديقة جنة وادي ألموت، وكانت المصنوعات الكريستال تستورد من الصين في غرب آسيا، وبدأ العرب يصنعونها أيضًا فيما بعد.

بعد ذلك تتجلى لنا أحوال هذا الوفد في المذكرة التي كان قد أرسلها لويس إلى شيخ الجبال، ويظهر في هذا الوفد أيضًا صديقنا القديم (لا بريتان) مترجمًا، وقد نقل محادثة الشيخ إلى لغته، ولكن المحادثة بأكملها تبدو بعيدة عن العقل وليست لها أهمية، وواضح أن القصص موضوعة وغير جديرة بالاهتمام وبعيدة عن المنطق والقياس، أو هي مزيج من سوء الفهم، ومثال ذلك: خاطب شيخ الجبال سان بيتر بطرس وقدهه قائلاً: تجسدت روح هابيل في نوح عليهما السلام، تجسدت في إبراهيم من بعد نوح، ثم انتقلت من إبراهيم إلى بيتر، وفي ذلك الوقت نزل الله على الأرض - أي كان ظهور المسيح عليه السلام.

ومن الممكن أن يكون الشيخ قد قال ذلك ليظهر أمامه أنه يؤمن بالمسيح عليه السلام، ويمكن أن يكون الوحي الإلهي الذي ظهر في الأبناء السابقين قد ظهر في المسيح، ولكن لابريتان منحها طابعًا آخر.

كان جون ويل يعرف الاختلاف بين الشيعة والسنة، ولكنه يفسره كالتالى: إن جماعة الشيعة لا يتبعون شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، بل يتبعون شريعة "علي" كرم الله وجهه، وأن علياً كان عم "محمد" صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أجلس محمد على عرش العزة، ولكن عندما تولى محمد صلى الله عليه وسلم زعامة القوم، نظر إلى عمه نظرة احتقار وابتعد عنه، وبعد أن رأى علي كرم الله وجهه هذا الوضع حاول جمع عدد من الناس حوله، كي يعلمهم ديناً آخر مخالفاً لدين "محمد" صلى الله عليه وسلم؛ ونتيجة هذا الاختلاف فإن متبعي شريعة "علي" رضي الله عنه يعتبرون أن متبعي الشريعة "محمد" صلى الله عليه وسلم، صائبون، وكذلك متبعي "محمد" صلى الله عليه وسلم يقولون إن متبعي "علي" رضي الله عنه ملحدون.

ثم يواصل كلامه ويقول: عندما ذهب "لابريتان" إلى شيخ الجبال فعرف أن الشيخ لا يتبع عقيدة "محمد" صلى الله عليه وسلم، بل يتبع عقيدة علي رضي الله عنه.

وتفسير جون ويل لهذا كله مستمد من أفكار الكنائس في ذلك العهد، حيث ظلوا ينشرون هذه الأفكار في أوروبا جيلاً بعد جيل لعدة قرون، مهما كانت هذه الأقوال خاطئة لكنها أفضل من الأفكار السائدة في الحملات الصليبية الأولى التي كان يرددها كل وعاظ الكنيسة، مثلاً قولهم إن محمد "mohamet" هو صنم ذهبي يخيف يعبداه المسلمون، وعلى هذه الفكرة قدموا مسرحية فرنسية وإيطالية في المسرحيات القديمة، وأصبحوا يقدمون "تروجان" "Tetvagant" أو "trivigant" كتمثال يخيف للمسلمين، هذا اللفظ القديم نفسه تغير وأصبح باللغة الإنجليزية "Tervagant" وتستخدم كلمة "Termagant" الآن للمرأة المتحررة التي بلا قيود.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: من هو شيخ الجبال، وكان هذا العهد عام ٦٤٩ هـ تقريباً، وبعد فترة قصيرة انتشرت قوات التتار في غرب آسيا وقضوا على هذا المركز الملىء بالأسرار إلى الأبد، وغالباً هذا كان هو آخر شيخ للجبال ويدعونه بـ (حور شاه) ولا توجد كتب حتى أستطيع أن أتحقق بشكل كامل وقطعي.

وقد جعلت الحملات الصليبية أوروبا في العصور الوسطى تشبه الشرق الأوسط يتزعم الإسلام، ويتجلى التضاد بين الحالتين، فكانت أوروبا من مؤيدي مذهب المسيحية في ذلك العصر، والشرق الأوسط يتزعم الإسلام، فكانت أوروبا من مؤيدي مذهب المسيحية بشكل جنوني، والمسلمون كانوا يحملون راية العلم والفكر، وكانت أوروبا تحارب بأسلحة الدعاء، أما المسلمون فقد كانوا يحاربون بأسلحة الحديد والنار، وكانت أوروبا تعتمد على الله فقط، أما المسلمون فقد كانوا يعتمدون على "الله" ثم على خلق الله للجهاد، وأحدهما يعتمد على القوة الروحانية فقط، والآخر يعتمد على القوة الروحانية والمادية كليهما معاً، وانتظر الأول ظهور المعجزة، وانتظر الآخر ظهور نتائج العمل، ولم تظهر المعجزة ولكن ظهرت نتائج العمل، وحكمت بينهما نتائج النصر والهزيمة.

ويتضح في كل موضع من مذكرات جون ويل المقارنة المتعارضة، فعندما بدأت القوة المصرية تقذف كرة من النار بالمنجنيق "Detard"؛ صار الفرنسيون الذين لا يحملون سوى الأسلحة اليدوية القديمة ضعفاء ومهزومين؛ ويكتب جون ويل في هذا الصدد فيقول:

ذات ليلة كنا نراقب طرق البحر من على الأبراج التي كانت الحرس يحرسونها، وفجأة رأينا المسلمين وقد أقاموا منجنيقاً وظلوا يقذفون النار علينا به، وعندما لاحظ اللورد والتر هذا الوضع - وكان من أعظم المجاهدين - خاطبنا قائلاً: حدث أكبر خطر لحياتنا في هذا الوقت، ولو لم نترك الأبراج لأشعل المسلمون النار فيها ولصرنا رماداً بعد أن نحترق مع الأبراج، ولكن لو انصرفنا وتركنا الأبراج لضاعت سمعتنا وهيتنا لا محالة "لأننا كنا مأمورين بحمايتها وفي هذه الحالة لا يمكن أن نحفظنا سوى الله" وحده "ومشورتني لكم جميعاً هي: عندما يقذف المسلمون كرة النار علينا أن نركع على ركبنا وندعو "الله" أن ينجينا ويساعدنا في الخروج من هذه المصيبة، لهذا فقد فعلنا ذلك، وحين قذف المسلمون أول كرة النار تلك كانت كبيرة جداً مثل برميل

الخمير، وجمرة النار التي كانت تخرج منها مثل ذنب عظيم، وكأنها رمح كبير جدا، وعندما تنطلق من هناك تصدر صوتا كأنه صوت رعد في القلب، وتكون شكلا كأنها ثعبان ناري يطير في الهواء، كان ضوءها شديداً جداً فكان يضيء المعسكر وكانت الشمس قد سطعت.

ويكتب عن لويس نفسه بعد ذلك فيقول:

"كلما كان الملك صاحب صفات ولي الله يسمع إطلاق منجانيق كرة النار، كان ينهض من الفراش، ويرفع يده ويطلب النجاة باكيا مناجيا :يا مولانا الرحيم احفظ رجالنا وأعتقد أن دعوات ملكنا جاءت بفائدة، ولكن هذه الفائدة لم تكن أكثر من المعتاد وهمية، إذ إن الدعاء لم يجد، وأحرقت كرات النار الأبراج كلها وجعلتها رمادا.

كان هذا هو حال المسحيين في القرن السادس عشر، ولكن عندما اصطدمت أوروبا بالشرق بعد عدة قرون انقلب الأمر تماما، والآن تبادللت كلتا القوتين مواقعهما فأصبح الشرق يتمسك بالدعاء، أما الغرب فاهتم بالأسلحة وغيرها - أي اختار المسلمون وضع أوروبا واختارت أوروبا وضع المسلمين.

عندما هاجم نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر، طلب (مراد بك) اللقاء مع علماء الأزهر وشاورهم ماذا نفعل؟ فاتفق علماء الأزهر بإجماع الآراء أن يقرأ صحيح البخاري في جامع الأزهر، حيث إن قراءة صحيح البخاري مفيد لنيل المقاصد، وقاموا بقراءته بالفعل، ولم يكن صحيح البخاري قد انتهى بعد حتى استولى نابليون على مصر في حرب الأهرامات، وقد كتب الشيخ عبد الرحمن الجبريتي عبرة كبيرة عن تلك الوقائع حيث كان شاهد عيان عليها، وعندما حاصر الروس مدينة بخارى في أوائل القرن التاسع عشر أمر أمير بخارى أن يقرأوا أدعية "خواجه جان" في جميع المساجد، والمدارس وفي الجانب الآخر كانت مدافع الروس تهدم قلاع المدينة، والناس من ناحية أخرى يقرأون أدعية "خواجه جان" وتعلوا هتافاتهم بكلمات "يا

مقلب القلوب، ويا محول الأحوال"، وفي النهاية كانت النتيجة واضحة وهي الهزيمة، حيث كانت المدافع في جانب، وأدعية "خواجة جان" في الجانب الآخر، الأدعية مجدية لأولى العزم والإرادة، لا للعاطل والمتخاذل والمتوكل .

عبر جون ويل عن هذه النار بقوله: النار اليونانية "Greek fire"، واشتهر هذا الاسم في أوروبا، وغالبًا فإن سبب هذه التسمية أن الصليبيين شاهدوا المواد التي تشتعل هذه النار في القسطنطينية، ولهذا أطلقوا عليها اسم النار اليونانية .

ويستخدم زيت النفط - أي (كيروسين) للإشعال، وكان العرب أول من استعمل الكيروسين، وكانت حقول النفط في أذربيجان مشهورة في ذلك الوقت، وقد استوردته مصر والشام من هناك، وقد كتب ابن فضل الله والنويري كيفية استخدامه بالتفصيل .

وكانوا يستخدمون مكيئة من نوعين لإشعال النار؛ إحداهما من نوع المنجنيق الذى اخترعه لقذف الأحجار، والأخرى تشبه القوس الذى ينصب فى الأرض مثل قيود المدافع، وقوة دفع أقوى وأبعد من المنجنيق، وقد عبر جون ويل عن الأول بكلمة "Detard" والثانى بكلمة "Swirelcrossbow"، ولفظ "منجنيق" لفظ يونانى معرب، ويقابله باللغة الإنجليزية "Mechanic" باللغة العربية (المدفع) وباللغة الفرنسية "Mechan sicus" وباللغة الألمانية "Mechanicuss"، وقد استعار العرب هذه الآلة من الإيرانيين والرومان، ولكن النوع الثانى اخترعه العرب أنفسهم، ولهذا يسمى باللغة العربية "المدفع" - أي مكيئة الدفع، وأصبح المدفع يستخدم حتى الآن، وقد استخدم لفظ "نفط" - باللغة العربية بمعنى "كيروسين"، وقد استعمل اللفظ نفسه "نفط" Nafath أو Naptha line فى اللغات الأوروبية أيضًا.

خطاب - ١٤

قلعة أحمد نجر

١٧ ديسمبر سنة ١٩٤٢

الصديق العزيز

الوقت هو الوقت نفسه ولكن للأسف لا يوجد الشاي الذي يمنح الراحة والمتعة..

ثم انظروا إلى أسلوب حديث نشر الورود،
واتقوا على أي كأس للصباء أمامي .

(غالب)

وكان الشاي الصيني الذي تعودت عليه قد نفذ منذ عدة أيام، ولا يعرف أحد
هذا النوع الغالي في أسواق أحمد نجر وبونا..

لم نسمع أنات السكر والعريضة من أي مكان،
لتكن خبرة تلك المدينة التي ليست فيها حانة .

(كاظم القمي)

فاضطرت إلى أن أحتمي أوراق الشاي الهندية السوداء التي ينطبق عليها هذه
القاعدة في التعبير والتسمية ..

وعلى العكس يسمون الزنجى كافور .

(سعدي)

الناس يدعونه باسم الشاي، ويصنعون منه عصيرًا ساخنًا بعد إضافة الحليب إليه..

نحن عاجزون عن الصلاح والفساد؛ فحذار
من هذه العادات التي سنّها العقلاء .

(فغاني)

إن مصنع المكسب والخسارة هذا ليس فيه أي سعادة، ولا يرتبط بأي حسرة، ولم يمنع هنا أي كأس بالزلال الصافي، ولم يبار حتى ألم التكرار في الأعماق، ودائما ما يصاب الخمار بالفشل وخيبة الأمل في مطاردة خمر السعادة والإقبال، ودائما ما يأتي الخريف الباقي في عقب الربيع الضاحك، ما أجمل ما قاله أبو الفضل في هذا الصدد:

ما من قدح يُملأ حتى يُفرغ وما من صفحة تتم حتى تقلب.

(أبو الفضل)

لم يكن طيباً قط أن يصل المراد إلى الكمال،
فعندما تتم الصفحة تقلب الورقة .

(الخيام)

آمل أن تكون ذخيرة الشاي بالعنبر النادرة التي لديك والتي كنت قد ذكرتها لي ذات مرة في رمضان ، لا تزال محفوظة من الأضرار ..
عسى ألا تكون كالعبد الفقير ،
فشرب الخمر كل يوم من عادات الكرم .

(غالب)

ولا أعلم هل لديك اهتمام تبذله أحيانا في معرفة هذه المسألة وحقائقها أم لا؟
فماذا أخبرك عن حالي، والحكاية هي أنني في هذه المسألة - مثل كثير من مسائل العصر - لا يمكن أن أتفق في شيء مع مسلك السواد الأعظم، ودائما ما يقيم الضالون في هذا الزمان مأتماً..

لأن اتباع الخلق يؤدي إلى الضلال
فإنني لا أسير في الطريق الذي سارت منه القافلة .

(راقم المشهدي)

وأنا في مسألة الشاي لا أختلف مع أبناء عصري في شأن الفروع والوراق فحسب، بل يمكن أن يتعدى شكل التفاهم إلى الجذور، أي إن الخلاف ليس في الفرع، بل في أصل الأصول..

لقد ذكر الفم فتواتر الرأس في مجامع الثوب .

(غالب)

إن أول سؤال يتعلق بالشاي هو حضور الشاي نفسه، وأنا أشرب الشاي من أجل الشاي، والناس يشربونه من أجل الحليب والسكر، وبالنسبة لي فإن شرب الشاي يدخل في الأذهان ، وهو بالنسبة لهم وسائل، وعليكم أن تمنحوا النظر إلى أي طرف توجهي، وإلى أين يتجه الزمان ؟

فعليك بشجرة طوبى، وعلينا نحن بقامة الحبيب
فكل امرئ فكره على قدر همته .

(حافظ)

الشاي من محاصيل الصين ومنتجاتها، وطبقاً لما صرح به الصينيون فإنهم استعملوا الشاي منذ ألف وخمسة سنة، ولم يحلم أحد هناك ولم يتخيل قط أنه يمكن أن يلوث هذا الجوهر اللطيف بإضافة الحليب إليه، والدول التي ذهبت إلى الصين مباشرة مثل الروس والترك والفرس لم ترد هذه الفكرة على بالهم، ولكن عندما اكتشف الإنجليز الشاي في القرن السابع عشر لم يعرفوا كيف يفكر هؤلاء الناس واخترعوا بدعة مزجه بالحليب، ولأن رواج الشاي في الهند تم عن طريقهم لذا انتشرت هذه البدعة السوداء هنا في الهند، وبالتدريج وصل هذا الأمر إلى أن الناس أخذوا يضعون الشاي في الحليب بدلاً من أن يضعوا الحليب في الشاي..

لقد كان أساس الظلم في الدنيا قليل ولكن كل من جاء أضاف إليه المزيد .

(سعدي)

وأقوال الإنجليز الآن مختلفة وأنهم لا يرغبون في إضافة المزيد من الحليب إلى الشاي، ولكنهم هم الأساس في وضع بذرة الفساد هذه وانتشار ثمارها، ومن الذي

يستطيع أن ينتقيها، لقد اخترع الناس حلولاً مائعة بدلاً من الشاي، وكانوا يشربونها بدلاً من أن يأكلوها وسعدوا بذلك ويقولون: نحن نشرب الشاي، فمن قال هذا هؤلاء الغافلين:

يا لك من قليل الحظ لأنك لم تشرب

(داغ)

ثم إن هناك سؤالاً أساسياً يتعلق بنوعية الشاي، وقد انتشر في العالم سوء فهم عجيب في هذا الصدد، فمع من نتشاجر؟ ومع من نتفاهم؟ ولكن لا يمكنك أن تعربد مع خلق الله ليلاً ونهاراً

(حافظ)

وبشكل عام؛ فإن هؤلاء الناس لديهم أوراق الشاي خاصة نبتت في الهند وسيلان ويعتقدون أن هذا هو الشاي، ومن ثم أعدوا منها أنواعاً مختلفة ويفضلون أحدها على الأخرى، ويتنازعون بينهم في شأن هذا التفضيل؛ حيث تقول جماعة: إن الشاي السيلاني أفضل وتقول الأخرى: بل شاي دار جيلنج الأفضل، وكلُّ يتمثل برأيه:

ولم يعد أحد في طريق العشق محرماً للأسرار ،
وأضحى كل شخص يفكر على قدر عقله .

(حافظ)

ولكن من يفهم أولئك المخدوعين في اللون والرائحة بأن الشيء الذي يتنازعون عليه لا يمت للشاي بصلة..

فإنهم جميعاً لم يروا طريق الحقيقة فسلخوا سبيل الأباطيل^(١)

(حافظ)

(١) البيتان والشطرتان ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي: ص: ١٧، ٧٩، ١٠٥، ٩٩. (المترجم)

وفي الحقيقة كان هناك خطأ عالمي نشأ هكذا في القرن العشرين عندما تزايد الطلب على الشاي من كل صوب وحذب؛ ففكر بعض المزارعين الإنجليز في الهند تجربة زراعة الشاي في الأماكن الرطبة والمرتفعة في الهند وسيلان، وأحضروا فصائل الشاي وشتلاته من الصين، وبدءوا في زراعتها، هنا شجيرات الشاي ولكن نبت شيء آخر في الشكل والصورة نفسها تقريبا، وأطلقوا على هذا العمل المسخ اسم شاي، ولهذا السبب تميز عن الشاي الأصلي وبدءوا يدعونه باسم الشاي الأسود.. لا تسأل عن الموضوعات الزائفة فالناس الذين يكون يربطونهم بالجبال .

(غالب)

لقد كان هذا البحث في الدنيا بأي طريقة عن هذه البضاعة (الشاي) نادرة الوجود ويعتبرونه رخيصة الثمن، ويتهافتون عليها وكأن البشرية بأسرها قد أجمعت على هذا الخداع، والآن هناك آلاف ممن خدعوا، فمن يسمع ؟ بدأ أهل المدينة يقولون له لا تسأل في مكان ما طالب العدل .

(آزاره)

والمثير للألم أكثر في هذا الجانب أن بعض سكان السواحل في الصين نفسها تعرضوا أيضًا لهذه الخدعة العالمية؛ وبدءوا يشربون هذه الأوراق الأمر نفسه عندما اعتبر أهل بدخشان الحجر الأحمر ياقوتا، وعد أهل كشمير العشب الملون زعفرانًا وبدأوا يخضبون به عمامتهم..

عندما يخرج الكفر من الكعبة فكيف يبقى الإسلام .

(غني كشميري)

وظل هذا هو حال أكثر حكام البشر، لعل هذه الفطرة عند جموع البشر منفصلة دائمًا عن العقل الآدمي، سيظل جموع الحمقى يعتقدون أن البقرة إله أما المنكرون فسوف يشنقون المسيح شنقا، وقد ظل الحكيم سنائي طوال حياته يقيم مأتمًا ..

آمن العوام بالبقرة إلهًا
ولم يؤمنوا بنوح رسولا
ولهذا يقول العارفون بالطريق من الصوفية:
انكر الخلق ، فهذا هو التصديق
انشغل بنفسك، فهذا هو التوفيق
تبعية الخلق أبعدتك عن الحق
اترك التقليد ، فهذا هو التحقيق .

(بديل)

وهذا هو البحث في الأصول، والآن يأتي دور الفروع، ولا نجد في الأرض هنا أي
ناحية ممددة، والشكر هو أهم مسألة من حيث المقدار وأيضا من ناحية النوعية كذلك..

يا للحسرة فإن الطبيب يصبر
وهذه النفس الجشعة لا تشكر

(سعدي)

وفيما يتعلق بالمقدار اعتبر نفسي محروما منها وبقدر مرارة التجربة؛ فإنني نادرا
ما وجدت حلاوة التذوق وعذوبته، ليس في الشاي وحسب، بل وإنني لا يمكن أن
أستسيغ الحلاوة أكثر، والشيء الحلو بالنسبة للعالم هو بالنسبة لي مر، وعندما أكل
الحلوى يفسد الطعم فمي، فالناس يجدون في الحلوى لذة، وأنا أجدها في الملح، وهم
يضعون في الطعام ولكنني أرش فوقه المزيد، فأنا قتل الملاحه وليس الصباحة!
فالناس فيما يعيشون مذاهب

(المتنبي)

- وكأنني أستطيع القول إن "أخي يوسف صبيح وأنا أملح منه" فأنا أعرف
مكان اللذة..

إن كنت خيرا بنكات العشق، فاستمع إلى هذه الحكاية .

(حافظ)

يذكرني هذا الحديث برواية أصحاب القصص والمواعظ المصنوعة في البيت وأن "الإيمان حلو والمؤمن يحب الحلوى"، لكن لو حصلوا على المدرج الإيمانية وأكملوا المراتب اليقينية لما علموا بثبات هذا المعيار، وأي الآفاق يحصل عليها خاليو الوفاض من نقد الحلاوة؟ وإن كل متاع الذين يحبون الحلوى لا يزيد على عدة كتوس من الشاي وفيه أيضًا قليل من السكر؛ ومن ثم فإنهم يأسفون أيضًا على هذا السكر القليل ولو لم يكن لكان أفضل، وقد تذكرت بيتا أفضل أبيات المرحوم مولانا شبلي النعماني:

إن التردد في هذا الطريق هو أسوأ عيب للسالك
أنا خجلان من كفرى فإن له أيضًا رائحة الإيمان .

ويضرب المثل في حب الأطفال للسكر ولكنك ستعجب بعد أن تعلم أنني لم أكن أحب السكر أيضًا في طفولتي، فكان أصدقائي يسخرون مني لأنني أرغب في مضغ أوراق شجر النيم؛ ولهذا كانوا يعطونني أوراقا كثيرة في كل مرة. يقول ذوق: ولهذا السبب تطعم الداية الطفل أفبونا حتى يتعرف على اللذة من خلال المرارة ويعد أن رأيت أن عدم رغبتني في الحلوى تعد عيبًا؛ حاولت عدة مرات دون تكلف أن أرغب نفسي فيها لكنني كنت أفشل في كل مرة، وكأنني أتمثل قول جندربهان:

لى قلب عاشق للكفر ، فكم من مرة
يأخذنى إلى الكعبة فيعيدنى البرهمى مرة ثانية .

(برهمن كشميري)

على كل حال كانت هذه المسألة بالنسبة لكمية السكر لكن آن لهذه القضية أن تنتهي؟

فانظر إلى قصير النظر وقد اختصر الحديث^(١)

(حافظ)

(١) الشيرازي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ، الشواربي ص: ٥٤. (المترجم)

هناك سؤال دقيق مطروح حول نوعية السكر، ويعرف بشكل عام أنه يمكن وضع السكر في كل شيء، ويجب أن يوضع أيضًا في السكر، ولهذا أليس من الضروري الاهتمام بأي نوع خاص من السكر.. وهكذا فإن العارفين بالسكر الذين جاءوا به من جاوة وموريشيوس بدءوا الآن يصنعونه في الهند ويستعمل أيضًا للشاي، مع أن مسألة الشاي هي بعينها مثلما يقول الشاعر:

إن نسيم الصبح الذي يتضوع يعكر الألوان .

(إنشاء اللكهنوي)

وهذا السكر لو تم تكريره مرة ثانية يصنع منه العصير لكنه لن يكون صافيا بشكل كامل؛ ولهذا السبب لا تقلل الكمية وتترك المراحل الأخيرة من تكريره، ونتيجة لهذا فإن ما يوضع منه الشاي مع الحليب لا يجعلك تشعر به؛ لأن تذوق الحليب يحط من شأن الشاي ويتغلب على مذاقه وتسير الأمور، ولكن احتساء الشاي السادة يجعلك تصيح على الفور "إنني أريد السكر من أجل هذا" ويكون بلا شوائب مثل الزجاج، وشفاف مثل الثلج .. وهكذا يأتي السكر الشفاف الكبير واستعمله مثلما كان غالب يستعمل ماء الورد..

أراح الله بالك يا غالب فإن طبعه
هو مزج ماء الورد بالخمير الصافية .

(غالب)

وبالنسبة لي فإنني أشعر بالفرق في نوع السكر بشكل واضح مثلما يشعر الشاربون للشراب بالفرق بين السكر والسكر الأحمر، ولكن المصيبة العجيبة أن الآخرون لا يستطيعون أن يشعروا لهذا الأمر بأي طريقة؛ وقد قال أحدهم: إنك تحملنا على المبالغة أو إنك تدرك أنها وهم وخيال، ويتضح من هذا أن السكر يفسد التذوق الفمي أو أنه لا يصلح ذوق فم أحد ما في العالم، ولا تنسى أن البحث في الشاي، ليس من الشكليات بل في ذوق وإحساس لطفته وكيفيته، والكثير من الناس

يستعملون قوالب السكر ودرره الصافية من أجل الشاي ويروج استعمال قوالب السكر بين الأوروبيين، ولكن هذا الأمر ليس من تذوق الشاي، وليس شيئاً ضرورياً بل مجرد نوع من التكلف، لأن ثمنه غال نسبياً، فأت السكر العادي في الشاي وتشربه دون الشوائب، وسوف لا تشعر بأي تغيير في مذاقه.

فلو أراد أي شعب أن يسبر غور الحقيقة بالنسبة لمسألة الشاي لكان هذا الشعب هو الشعب الإيراني، فعلى الرغم من أنهم لا يشعرون بأي إحساس فيما يتعلق بنوعية الشاي لكنهم يأنسون به، وكان أهل إيران والعراق يهتمون بهذا الأمر بشكل عام، وكانوا يبحثون عن السكر من أجل الشاي وكانوا يفضلون السكر العادي، لأن السكر صافٍ ويستعملونه هكذا ولا أحد يستطيع القول كيف هو الحال الآن هناك.

ولو أننا نسأل بناء على قاعدة "تعرف الأشياء بأضدادها" فمن هو الشعب الأكثر تذوقاً في مسألة الشاي، وسوف أذكر اسم الإنجليز بلا تردد، والأمر العجيب هو أن الشاي وصل إلى أوروبا وأمريكا عن طريق إنجلترا وراج رواجاً عالمياً في الدنيا بأسرها بفضل كرم الإنجليز، ولكن عديمي النظر ينافقون إلى حد ما فيما يتعلق بهذه الحقيقة لأن التذوق الحقيقي للشاي ولطافته لا يعيرونها أي اهتمام وعندما يكون هذا هو حال أئمة هذا الطريق فما بال أحوال الآخرين :

هذا هو حال القريب، ولكن وأسفاه على حال الغريب

(قطب أليك)

إنهم تعلموا شرب الشاي من الصين لكنهم لم يستطيعوا تعلم المزيد، فقد تذوقوا أوراق الشاي الهندي والسيلاي الأسود في بداية الأمر واعتبروها قمة الكمال في شرب الشاي وتذوقه، والأمر المفزع أنهم يفسدونه كلياً بعد إضافة الحليب البارد إليه، وانظروا إلى المزيد من العبث والسخرية؛ فالخبراء ينفقونها ببذخ من مستوى هذا المشروب العكر وقيمته، وعندما يسأل أحدهم عن تلك الأضرار لو أن الهدف من شرب الشاي هو تناوله

بعد وضع تلك الأوراق في الماء الساخن، فما أهمية توجيهات المختصين بالنسبة لهم ؟
فالأوراق التي تجعل لون الماء يميل إلى السواد وينبعث منه رائحة نفاذة هي الشاي
ويمكن أن تظهر فيه الشوائب بمقدار كافٍ بعد أن توضع ملعقة من الحليب البارد، فأَي
عبث أكثر من هذا يمكن أن يحدثه خبير في الشاي ؟
الكلام هنا هو الكلام نفسه فماذا نقول ؟

(مؤمن)

وعلى الرغم من أن الشاي راج روجًا عظيمًا في فرنسا وأوروبا؛ فمع ذلك فقد
نجد الطبقة العليا من الناس لديها شوق للشاي، وذوقهم على كل حال أفضل من
ذوق الإنجليز بدرجات، وهم يشربون الشاي الصيني في الغالب، وحتى لو احتسوا
الشاي الأسود ويكون في أكثر الأحوال بدون حليب أو معه قطعة من الليمون لا
تؤثر على لطافة الشاي وطعمه بل تمنحه المزيد من النقاء، وإضافة الليمون هذه
وصلت في الأصل من إيران وتركستان وروسيا، وهي عادة عامة في سمرقند وبخارة
فيحتسون الفنجان الثالث من الشاي والليمون، ويضع بعض الإيرانيين الليمون في
نهاية عهدهم، أما آفات الحليب سيئ الحظ فقد أتى بها الإنجليز .
إن رأس هذه الفتنة من الموضع الذي أعلمه أنا

(هاتف)

والآن أواجه مصيبة جديدة أخرى هنا، وكان البكاء حتى الآن إلى استعمال
النوع العام من السكر فقط، ولكن المسألة اتضحت الآن وصلت إلى السكر الأحمر،
فقد كان الناس في الهند القديمة عندما أرادوا تكرار السكر الأحمر فيبدءون في
استخراج السكر الأحمر بعد أن يصفوا السكر الخام بقدر ما، وكانوا بهذه التصفية
يبتعدون بمراحل عن السكر الأبيض، لكنهم كانوا يتقدمون خطوة عن السكر الأحمر
غير المصفى ومن ثم فإنهم عندما بدءوا في تصنيع السكر الأبيض، ظل استعماله محدودًا
في القرى بشكل أكبر ولكن العالم الآن عاد إلى استعماله مرة أخرى في تطوره العكسي؛
حيث كان قد حقق تقدما قبل مئات السنين، وهكذا إفادة هذا السكر الأحمر يطلب

بكميات كبيرة في أمريكا في الوقت الحاضر ، ويقول الذواقة هناك إن القهوة لا نكهة فيها بدون هذا النوع من السكر، وحسب العادة المقررة فإن أصحاب الذوق عندنا بدأت أصواتهم الآن ترتفع عاليا مطالبين بالسكر البنّي تقليدا لهم، وقد كتبت في نبوءتي السابقة فإنه في وقت قريب سوف ينضون الحباب عن السكر البنّي على استحياء وسوف يبدأ طلب السكر الأحمر على الملأ في كل مكان، وسوف لا يستمتع أصحاب الذوق الجديد بتذوق الشاي دون وضع السكر الأحمر فيه مثلما حدث مع القهوة.

والآن .. ماذا يبقى بعد هذا وماذا تنتظر؟
فوا ويلاه ٠٠ إذا كان بعد اليوم يوم آخر أو غداة مقبلة .

(حافظ)

وفي العالم هناك اختلاف في درجات كل من السكر الأبيض والسكر الأحمر، الإنسان الذي يستعمل أحدهما لا يستطيع أن يتقبل الآخر، وقد رأيت أن الناس الذين يتناولون السكر الأحمر مرة أو مرتين في حياتهم لا يبقى لديهم الإحساس بتذوق لطافة طعم السكر الأبيض، لأن جواهر لآل نهر و كان لديه ولع بالحلوى لهذا كان يحب السكر الأحمر، ولقد بذلت جهداً عظيماً في التفريق بين أنواع السكر ومعرفة درجة أيهما أفضل بالنسبة لي، ولكنني لم أستطع في نهاية الأمر وأنهكت قواي .. على كل حال كان لنا أن نقيم مأتما على نسيان حقيقة الزمن ..
فقصتها طويلة لا يمكن أن تقاصها^(١) .

(حافظ)

فتعالى لأخبرك ببعض أحوالي، وعلى حد أقوال أصحاب النظر فإنه يجب ألا يكون هناك دخل لعاطفة حب الوطن في مسألة الجمال والفن ..
فهو المتاع الحسن لأي دكان مهما كان .

(غالب)

(١) الشواربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٣٢٩، ٦٩ . (المترجم)

ويجب العمل طبقاً لهذا، وهكذا فإنني في موضوع الشاي معتقد في حسان الصين ولا أعتقد في حسناوات الهند:

أبحث الآن عن علاج ألم القلب في ذلك الشراب المبهج ،
ذلك الذي يوجد في الإبريق الصيني والزجاجة الحلبية .

(حافظ)

وإذا ذكرت الصين لدي في الجغرافيا؛ فإنني لا أتذكر أن كلاً من الجنرال
"شيانج كاي شيك" و"مدام شينج" ينحدران منها، بل لأن الشاي يأتي من هناك ..

تأتي الخمر الصافية من الفرنجة والحساء من التار

ولا نعلم من البسطامي ومن البغدادي .

(حافظ)

وفي تلك الفترة تعودت فيها على الشاي الصيني الذي يطلق عليه اسم
الياسمين الأبيض "white Jasmine"، أو ما يطلق عليه في الأردنية الدارجة اسم
الياسمين الجميل ..

إن الشخص الذي هو كاتم أسرار الصبا يعلم
أن عبير الياسمين ما زال يفوح برغم وجود الخريف .

(عرفي)

ورائحته الطيبة لطيفة إلى هذا الحد؛ حيث تجعل المزاج قوياً وحاداً، وماذا أقول
بالنسبة للونه ؟ الناس يستعملون تعبير لونه "ناري متدفق" ..

أنظر أيها الساقى إلى الخمر وسط الزجاجاة
وكان النار قد امتزجت بالماء .

(خسرو)

ولكن فكرة النار هذه فكرة أرضية وأنا أريد للشاي منزلة علوية أكبر؛ فأحاول
أن أربطه بحزمة من أشعة الشمس وأقول إنني أراها كأن شخصاً ما يذيب أشعة

الشمس ويضعها في فنجان بلوري، ولو احتسى ملا محمد المازندراني صاحب كتاب "بت خانة" - أي معبد الأصنام - هذا الشاي لما أنشد خان حافظ شعرًا في مدح الخمر المصنوع في البيت..

وهذه الخمر لا تشبه الماء أصلاً
فيخيل إليك أنهم قد أذابوا الشمس

وقد توقفت السفن عن الذهاب والإياب بسبب الحرب وتأثر الشاي بهذا التوقف وكنت أشتريه من متجر للشاي الصيني في كلكتا، وكانت كمياته قد بدأت في النفاد، ورغم ذلك عثرت على علب عدة من الشاي، كما أرسل لي بعض أصدقاء من الصين الشاي الصيني على سبيل الهدية فكان ذلك عونًا لي، فعندما خرجت إلى كلكتا كانت معي علبة من الشاي، وتركت علبة أخرى في المنزل وعندما تم اعتقالني في بومباي وأحضرت إلى هنا جاء متاعي كذلك، ووصلت علبة من الشاي من قبل أهل بيتي قبل أن تنتهي العلبة التي معي، وهكذا فإنني كنت أشعر بندرة الأشياء هنا، لكنني لم أشعر بندرة الشاي، وبما أنني لم أشعر بندرة الشاي فقد كانت النتيجة التي خلصت إليها أنني لم أشعر بندرة أي شيء:

ويا حافظ ٠٠ أي أمر آخر تطلبه من نعم الدهر؟

وأنت الآن تمسك بطرة المجنون وتتمتع بلذة الشراب والخمر.

ولم أفكر في هذا الأمر مطلقًا وهو متي ستنتهي آخر علبة لدي لأن نصيحة حافظ الشيرازي ظلت دائمًا أمام عيني:

ومتى امتلأ كأسك بالخمر، فاسق الآخرين واشرب معهم في هناء^(١).

إن قافلة المعتقلين لدينا هنا لا يعرفون أي شيء عن هذه البضاعة (الشاي) وأكثرهم يشتاق إلى الحليب والزبادي، وتستطيع أن تدرك كم يتعبد عالم الشاي عن

(١) الشواربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٣٤٢، ٢٨٠. (المترجم)

عالم الحليب والزبادي؟ لقد انقضي عمرنا ولم نستطع طي هذه المسافة، فأين مدينة
النشوة والسرور من تذوق الشاي اللطيف، وأين لهم البطن وشرهها من
الحليب والزبادي!

أريد عمرا آخر كي أستطيع طعم العشق فأين منه اليوم لذة جرح الكبد .
(حالي)

ولا غرو فإن جواهر لآل نهرو كانت لديه عادة شرب الشاي، وكان يحتسى
الشاي على مذهب هواس أوروبا ويتذوقه دون حليب، ولكنه فيما يتعلق بنوعية
الشاي لم يستطع أن يخرج عن النهج العام مقدار قدم واحد، وظل قانعًا بالأنواع
والمحلية المتداولة، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة ألا يجد هؤلاء الناس أي معنى في
شرب الشاي، بل وكانوا يدخلون في حكم وضع الشيء في غير محله..
لا تقدّم الخمر للزهاد فإن هذا الجوهر الخالص
عند هؤلاء القوم لا يصل إلى زمزم بالمشورة

(غالب)

وقد ظفرت بصديق واحد فقط من بين هؤلاء السجناء، وكان قد سافر معي
ذات مرة وشرب من هذا الشاي، ويرى أنه طيب ويشني عليه كذلك وأعلم أنه غنيمة،
وكنت أدعوه أحيانًا ليشرب قدحًا من الشاي ويقول: "هذا طيب" ..

أطال الله في عمرك فهذه أيضًا غنيمة

(فرسي)

فهذا الأمر بالنسبة له أمر طيب فحسب، وهنا تنتهي جميع أمور الشاي، ومع
أنها انتهت نهاية طيبة فما أطيب ما قاله غالب:

إلى متى الغضب منا أيها الزاهد، لا تنظر بالعين الضيقة

ألا تعلم أننا أنقصنا مكيالا

ولكن إلى متى أستطيع استعمال علبة واحدة؟ وقد شارفت أخيرًا على الانتهاء وقد بحث جيتا خان عن هذا النوع من الشاي هنا أيضًا، وطلب يشتريه من مدينة "بونا"، لكنه لم يجد أثرًا لهذا النوع من الشاي، وقد طلبناه من بومباي وكلكتا فانظر بأي نتيجة خرجنا بها، أنا منذ أسبوع أحسسى الأوراق الهندية السوداء ولدي آمال بالعثور عليه في المستقبل ..

ألن نجد حلاً لشفاء الإسلام الجافة
يا من جعلت الخمر الصافية سبيلاً للأطفال المسيحيين.

(غالب)

وقد انتشر الصينيون في الوقت الحاضر في جميع مدن الهند، وافتحت المطاعم الصينية في كل مكان ، وقد افتتح مطعم صيني في مدينة "أحمد نجر"؛ لأنه يوجد فيها أكبر معسكر للجيش الإنجليزي ، وقد اعتقد مدير السجن بضرورة وجود هذا الشاي عند هؤلاء الناس، فأرسل إليهم علبة فارغة يستفسر منهم عنها، فشاهدوا العلبة فقالوا: أنى لنا نجد هذا الشاي الآن ، ولكن من أين عثرتم على هذه العلبة؟ وما الحاجة الماسة لضرورة وجود هذا الشاي هنا؟ وهل سيأتي هنا شخصية في الصين عظيمة؟ وكان "جودراد" قد ذهب إلى السوق وتحدث معهم بكل الطرق لكنه لم يقنعهم، وفي اليوم الثانى انتشرت الشائعات في كل أنحاء المدينة بأن زوجة "شينج كاي شيك" قد حضرت للقاء سجناء القلعة، ومن أجل هذا جرى الاهتمام بالشاي الصيني .

ودائمًا ما يستقر في قاع علبة الشاي بعض فتات أوراق الشاي وكنت قد قذفت بها مع العلبة، ومع نهاية هذه العلبة الأخيرة قد تجمع في قعرها قليل من فتات الشاي فتركها فمًا فائدتها؟ لكن جيتا خان رأها وقال :لا تضعيها وهذه النعرة على الألسنة بسبب الحرب الدائرة هذه الأيام، فلماذا لا تستعمل هذا الفتات أيضًا، ففكرت أنا أيضًا:

ولا حكم لك على الخمر الصافية أو الممزوجة فاشرب واهنأ

فكل من صنعه ساقينا هو عين الألفاف^(١) .

(حافظ)

وهكذا فقد استعملت هذا النوع من الشاي، وأخذت أحتمي كل ذرة من ذراتها
وكنْتُ عندما أصنع الشاي في الفنجان كان لسان حال تلك الذرات يصيح قائلاً:
رغم أنني ليس لي لون ولا رائحة
فإنني في النهاية من نبات روضته

(سعدي)

وهذا التخيل قد أخذ كأسى الكيف والسرور من يد تلك الذرات، ويؤدي عمل
السوط لجولان الفكر وأوصلني فجأة إلى عالم آخر، وكان ميرزا بيدل قد قال على لساني:

لو أن نفسي لا يأخذها حياء العدم في حانة الخمار هذه
سأخذ الكأس من عين الذرة بعظمة لم تكن لجمشيد نفسه
حفنة ترابي في هذا الميدان ليس لها قرين عند أي أحد
يكفي كمال ميزان اعتباري، لا يتقص ذرة

(بيدل)

وبعد هذه التجربة فكرت تلقائياً لو لم تكن لدينا رغبة في مثل هذه الأعمال
وتعطش إليها؛ فيا ليتنا نجد بضع رشفات من تلك القارورة غير الصافية، وما أجمل ما
قاله غالب:

يطلبون من الساقى الحياء وإلا فلديّ ألم كبير في قعر الكأس .

(غالب)

وكنْتُ قد بدأت التفكير هنا في مسألة السكر، ولكنني وجدت الحل لها فوراً،
والآن أنا مطمئن من هذا الجانب، فقد كان في متاعي قليل من حبات السكر
الصافية، أخذت أستعملها لعدة أيام وعندما نفدت فكرت في أنه من الضروري أنني

(١) الشوربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٣٧. (المترجم)

سأجدها هنا، ولو لم أجدها فسوف أجدها بالضرورة في صندوق الأشياء الصغيرة، ولكنني عندما بحثت عنها في السوق علمت أن هذه البضاعة لم تكن متوافرة أيضًا في أوقات الأمن والآن كيف نستطيع أن نجدها بعد أن أغلقت الحرب الطرق، فاضطرت إلى أن أبحث عن سكر النبات وأستعمله في الشاي بعد أن أطحنه إلى قطع صغيرة مثل السكر، وكان لا بد من وجود هاون من أجل طحن السكر، وقلت لمدير السجن أن يحضر لي الهاون، وعلمت في اليوم الثاني أنه لا يوجد هنا هاون ولا يد هاون فبقيت في حيرة من أمري، ألم تدعو الحاجة إليه شخص ما في هذه المدينة؟ وفي نهاية الأمر كيف يعيش الناس؟

لا يدرى حديث العشق من لم يضرب
طوال عمره باب الدار برأسه^(١).

(سعدي)

واضطرت إلى أن أستعمل طريقة أخرى، حيث وضعت بلورات سكر النبات في قطعة قماش نظيفة، ووضعت عليها أوراق مستعملة كثيرة بعضها فوق بعض؛ ثم رفعت حجر وسلمته لأحد المساجين الذين أحضروا هنا من أجل أعمال العروة فوضعه على بطنه بدلاً من رأسه..

أى كلام يُقال في أن الحجّار قد أسلم الروح من الذوق
الكلام باقٍ فقط حتى ضرب البلطة على رأس الدير .

(أصف تراني)

ولكن هذا كان بعض آلات الأسر ووسائله،
كانت هذه رسوم وعادات نشوة الرأس .

(غالب)

(١) منصور، محمد علاء الدين: ترجمة غزليات سعدى الشيرازي، ص: ٥٨.

فلم تستطع أن تحافظ على صورتها بضربة واحدة، وظلت قطع سكر النبات ولا شك أن الأوراق قد تحطمت وتمزقت إربًا ورفض القماش أن يضع النقباب على وجه الصبيح..

كان الرمح قد انطلق على شخص ما بعزة وكبرياء .

(ذوق)

على كل حال؛ فإنه بعد عدة أيام أطل علينا الهاون بوجهه القبيح بعد جهد ولأني، وأقول القبيح لأنني لم أشاهد إناء مثله قط، وقد صدر في الوقت الحاضر كتاب يخبرنا بأنه كانت إحدى قبائل وسط الهند قد عرفت الحديد ومهنة الحدادة قبل آلاف السنين، وليس من العجيب أن يكون هذا الهاون أيضًا من الآثار الباقية لتلك القبيلة، وقد دارت الأيام والليالي في انتظاره فمتى تصل قافلة إلى هنا عند سجناء قلعة أحمد نجر؟ ومتى تدعو الحاجة إلى يد الهاون بدلاً من الفأس لشج رءوسهم؟
كان حيران مضطرباً شعره على كتفه ويده على رأسه،
يا إلهي لا يوجد أي جدار في الصحراء .

حسنًا فلديّ بعض قطع السكر النبات، ولكن بلورات سكر النبات الموجودة الآن لا فائدة منها ولا بد أن تطحن:

وإذا أخرجت يدًا لا أجد الجيب

(صائب)

انظر أنني كنت أريد قول هذا الكلام فقط لأن الشاي نفد، لكن اثنين وعشرين صفحة انتهت ولم يكتمل الكلام حتى الآن :
إن حديث الشوق من أوله إلى آخره ليس أكثر من كلمة واحدة والأعجب أنها لا تنتهي أبدًا .

(كليم همداني)

أبو الكلام

خطاب - ١٥

قلعة أحمد نجر

٧ يناير سنة ١٩٤٣ م

صديقي الكريم

الساعة الآن الرابعة صباحاً، ذلك الوقت المنعش للروح، وقد بلغ البرد منتهاه، ولم أعد أفتح باب الغرفة أو نافذتها، وتهب علينا زجات الهواء المفعم بالثلج كل لحظة، وقد وضعت الشاي للتو، وأنا جالس منتظر حتى تمضي خمس أو ستة دقائق حتى يصل إلى مستوى عالٍ من اللون والنكهة، ثم أبدأ في احتسائه، وقد ألقيت عليه نظرة عميقة مرتين، ولكنه لم يصل إلى مرحلة النضج في خمس دقائق بأي شكل من الأشكال، وقد تدوى في قلبي ودماغي أغنية الصباح تواجه حافظ الشيرازي، وأريد أن أتغنى بها تلقائياً، ولكنني أفكر في أن ذلك يحدث خلافاً في نوم جيراني، فلم أسمح بفتح شفتي فاضطرت إلى أن أتوجه إلى لسان القلم:

هذا هو وقت الصباح ، وقطرات الندى تقطر من سحب الشتاء

فهنيء لي أسباب الصبوح وناولني رطلاً ثقيلاً من الصهباء

وإذا أصابك الخمار في الصباح الباكر بالصداع فالأفضل أن تحطم رأس الخمار

ويا أيها الساقى ، كن على أهبة الاستعداد فالأحزان كامنة لنا في هذا الطريق ويا أيها

المطرب ٠٠ حافظ على هذا اللحن الذي تضربه لنا في صوت رقيق

ويا أيها الساقى ٠٠ باستغنائك عن المعربدين ٠٠ اعطني الخمر وناولني

حتى تسمع صوت المغنى وهو يقول : " هو الغنى " (١).

(١) الشواربي ، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٣٥٩ . (المترجم)

والبرودة في تلك المنطقة قليلة جدا بشكل عام، ولا أعلم هل مررت على هذا المكان بوانا أحيانا أم لا؟ ولو مررت ففي أي فصل من الفصول ؟ لكنك ستذهب إلى بوانا مرارا، وأنا أيضًا أتذكر رحلتي في ديسمبر سنة ١٩١٥م عندما سنحت الفرصة لي للقائك في جلسات مؤتمر التعليم الإسلامي، وبوانا تقع على مسافة ثمانية أميال من هنا، وجميع مناطق الدكن تقع على سطح مرتفع، ويمكنك أن تقيس حالة الطقس هنا على غرار بوانا، علاوة على هذا فإنني في فترة الاعتقال كنت أظل في بوانا بعض الوقت، وهنا بعض الوقت ولهذا فإنها عند أهل القياس على حد قول عر في حكمها واحد:

والقياس الشيرازي والبدخشاني واحد

(عر في)

وعندما أرسل أكبر فيض في سفارة هنا، لم تهزه المشكلات والصعوبات لمدة عامين وسنحت له الفرصة لتجربة كل الفصول هنا، وكان يمتدح كثيرا اعتدال مناخ أحمد نجر في رسائله، وهناك واقعة حدثت قبل فيض بسنوات طويلة عندما دعا ملك التجار الشيرازي مولانا جامي للمجيء إلى الدكن، وكتب له: إنه يمكنك أن تتمتع بالهواء المعتدل لهذه البلاد لمدة اثني عشر شهرا، حسنا ! فأنقول اثني عشر شهرا كان مبالغة صريحة لكن لا شك في أن أيام الحر هنا قليلة، ويمكن الاستمتاع هنا بفصل المطر مثل فصل المطر في مالوه، وفي الغالب فقد حدث في سنة ١٩٠٥م أنني التقيت في بومباي مرزا فرصت الشيرازي صاحب كتاب (آثار العجم)، وكان قد عاد إلى شيرازي بعد أن أمضى فصل المطر في بوانا، وكان يقول إن اعتدال مناخ بوانا جدد لديّ ذكرى هواء شيراز ومناخها..

إنني سعيد بك أيتها الزهرة، فإن لك غير شخص ما .

(سنجر سخبري)

وأنا هنا لا أتحدث عن تجربتي الشخصية في هذه المسألة، ولكن على كل حال فأنا كنت مسافرًا إلى شيرازي، وكان ميرزا فرصت صاحب البيت، وصاحب البيت أدرى بما فيها .

وعندما جاء أورنجزيب إلى الدكن لطف اعتدال المناخ هناك من طبعه الجاف، لعلك قرأت في مواضع عديدة من تاريخ خاني خان ومآثر الأمراء وغيرها أنه كان يقضي أكثر مواسم المطر في بوانا أو أحمد نجر، وكان يسمى بوانا "محبي نجر" لكنها لم تشتهر على الألسنة، وكان وفاته في أحمد نجر .

وبقدر ما ارتبط هذا الاعتدال بفصلي المطر والصيف فلا كلام عن حسنهما وجهلهما، ولكن المصيبة تكمن في فصل الشتاء هنا معتدل أيضًا مع أن فصل الشتاء فصل فيه مثل هذا القدر من الوفرة الكثيرة، إن جمال الفصل ومتعة الحياة تعد في قلتها في حكم النقص والفتور، وبعد القول بالاعتدال لا يمكن الثناء عليه والإشادة به..

نحن عاجزون عن الإصلاح والفساد فحذار

من هذه العادات التي سنّها العقلاء .

(فغاني)

ولعلك لا تعلم أنني منذ أوائل عمري ظلت طبيعتي في حالة عجيبة في هذا الشأن ، فبقدر ما يكون الصيف معتدلاً لكنه سرعان ما يجعلني مضطرباً، وأظل دائماً خائر القوى في فصل الشتاء، وفصل البرد هو الثروة الحقيقية لحياتي، وعندما ينتهي هذا المتاع تنتهي معه بقية أمور الحياة، ولأننا نحيا الحياة على كل حال، لهذا أظل أجتهد أن أكون متوافقاً مع كل فصل شتاء في الهند بضاعته فقيرة، فهو حتى الآن لم يأت لكنه يبدأ في الرحيل، وينتهي بمجرد أن تشاهده، وطبيعتي قلقة ومزعورة من أجله، وفي هذه الحالة تتولد لديّ تجربة عجيبة من الصبر والتحمل، وعندما لا يأتي فإنني أنتظره، وعندما يهل علينا فإنني أغيب عن الوعي من السعادة والسرور بمجيئه، ولكن إقامته تكون قصيرة، وحتى الآن لم أفرغ من برودة قبوله وفجأة يقف على رأسي مأثم الحجران والوداع.

مثل العبد الذى جاء ورحل فى أيام الربيع

(غالب)

وأنا أخبرك بأنني أستطيع تخيل الحياة بأفضل تصور، فالهواء والصقيع يقتربان من درجة التجمد في فصل الشتاء، وأظل أذكى الشعلات المرتفعة في المجرمة في أوقات الليل، وأترك جميع أرائك الحجر، وأجلس بالقرب منها وأنشغل بالقراءة أو الكتابة..

فلو تسرت لى هذه الأمور لما استبدلت مقامى بالدنيا والآخرة

ولما فعلت ذلك ٠٠ ولو لاحقتنى فى كل لحظة محافل الأنس الزاخرة^(١) .

(حافظ)

ولا أعلم حال فصول الجنة، وقد تردد على مسامعي كثيرًا ذكر النهار هناك وأخشى ألا يكون فصل الصيف في موضع ما:

نسمع أن مدح الجنة كله صحيح ولكن أخشى ألا تستجلى .

(غالب)

الأمر العجيب أنني أمعنت النظر مرارًا، لأنه في تصوري أن لوجود المجرمة أهمية إلى هذا الحد لكنني لا أستطيع أن أخبرك بشيء، والحكاية هي أن هناك صلة قرابة بين البرودة والمجرمة ولا يمكن لأحدهما أن ينفصل عن الآخر، وأنا لا أستطيع أن أرسم في ذهني صورة لفصل الشتاء لو لم تؤجج المجرمة، ويجب أن تكون المجرمة طبقًا لطريقة القديمة حيث يمكن إشعالها بالأخشاب، فأنا لا أحبذ المجرمة الكهربائية، بل إن طبيعتي تتأذى من رؤيتها، ولا أشعر بأي معنى لتركيب المجرمة التي تعمل بالغاز؛ لأنهم يصممون شكلها من خلال قلة من الجذوات بعد وضع قطع الحجر فيها وتخرج الشعلات من أسفلها وتبقى على الأقل نوعية اللهب؛ وعلى الرغم من هذا فإنني لست مستعدًا لتفضيلها، فأنا في الحقيقة لست عاشقًا للمجرمة من أجل

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٣٢٤. (المترجم)

الدفء فقط، فأنا أريد منظر اللهب، وعندما لا أرى تأجج الشعلة لا يروي عطش قلبي، فمن يكون قلبه بلا آلام يختبئ في صدره ألواح الثلج، فأني علم لديك لتلك الأمور؟

ليس لك صدر ساخن لزوم حديث العشق
ما دام ليس في مجمرتك نار فلا تشتري العود .

(نظيري)

وستتسم بعد أن تسمع أنني ينشأ لديّ الإحساس أكثر من البرودة بسبب هذه الفكرة، فأنا أجلس تحت السماء في ليالي شهر يناير وأظل أحتسي الشاي في الصباح، وألقي في نفسي هذا الخداع لأن البرودة اليوم جيدة.

من حديث لطف كان إفكًا أيضًا
محونا الليلة مئة باب من دفتر الشكوى .

(عرفي)

وأحوال طبيعتي عجيبة أيضًا، فأنا نفسي في البداية أضحك على أحوال الآخرين فقد عشت في مرحلة الطفولة عدة الشهور في (جنسورا) مركز (هيجلي)، لأن الطاعون قد انتشر في كلكتا، وأخذت أسبح في النهر لساعات في الصباح والمساء ومع ذلك لم يشبع قلبي، وحتى الآن فإن طبيعتي تحشى دائمًا من السباحة.. سبحان الله انظر إلى الطبع متعدد الألوان وما فيه من مكر وخداع؛ فهو من ناحية لديه شوق ورغبة عارمة بالبحر، ومن ناحية أخرى يروي عطشه بإشعال النار ولعل هذا لأن الماء يسيل على سطح إقليم الحياة، وتتأجج النار وتشتعل في قعره، ولهذا يقول أصحاب النكات الحقيقة:

كن سمندر وكن أيضًا السمكة التي تعيش في إقليم العشق
فسطح البحر سلسبيل وقعره نار .

(عرفي)

الناس يذهبون إلى الجبال في أوقات الحر؛ حيث يقضون وقت الصيف هناك، وأنا أيضًا سلكت طريقي إلى الجبال في فصول الصيف عدة مرات؛ لأن الذهاب هناك هو الفصل الحقيقي، فهل كان المتنبي أيضًا فاسد الذوق؟ حيث لم يستطع أن يقدر مناخ لبنان، فأفضل أسابيع حياتي قضيتها في لبنان :

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهى الشتاء وصيفهن شتاء

وفصل الشتاء الذي قضيته في الموصل لا يمكنني أن أنساه، وعلى الرغم من أن الموصل لا تخرج على المنطقة المعتدلة في الخطوط الجغرافية لكن التجول والتنزه فيها يجعلها داخل حدود البرودة، وأحيانًا يسقط ثلج شديد على ديار بكر، ولا يمكن أن تفتح مصارع أبواب المنازل ما لم تتم إزالته من الشوارع، وكان قد سقط ثلج غير عادي في السنة التي ذهبت فيها هناك، فإذا أصف لك بعد أن تسقط الثلوج وتفتح السماء، ويبه هواء جبال أرمينيا، فأى عالم من البرودة هذا؟ وأتذكر أن هذا العالم يكون أحيانًا شديد البرودة لدرجة أنه عندما نرفع غطاء الدنان تترأى لنا ألواح الثلج بدلًا من الماء، ولكنني مع هذا لم أشك من شدة البرد، وكان أطفال الشيخ الذي يستضيفني في بيته يلعبون بكرات الثلج طوال اليوم، وأحيانًا كانوا يضعون في أفواههم كرات الصغيرة من الثلج، وكانت "ستي" الكبيرة - والددة الشيخ - تأمر الجوّاري بأن يجعلوا مجمرتي مشتعلة أربع وعشرين ساعة في اليوم، وكانت هى أيضًا تناديني مرتين في اليوم وتسالني عن أحوال المجرمة، ويوجد إبريق براد (براد) شاي معدني مثبت بسلسلة في محراب المجرمة، والماء يغلي فيه طوال الوقت، فتستطيع أن تصنع القهوة في الوقت الذي تريده وتشرّبها ساخنة، لأن الماء يغلي فيه لفترة طويلة فإن إعداد الشاي أو القهوة على ما يرام، ولهذا أرفع البراد وأضعه جافياً، إلا أن الجارية تضعه مرة ثانية وتقول: "لقد أمرت ستي أن يكون هكذا"، ولقد رأيت هذه الطريقة نفسها في إعداد الشاي أيضًا في جميع منازل شمال إيران؛ فهم لا يأتون بالمجرمة من

أجل استعمال النار في تدفئة الغرفة فقط، بل وتؤدي المجرمة نصف أعمال المطبخ أيضًا، فالناس يسخنون ماء الشاي على نار المجرمة ويطبخون الطعام عليها، ولو لم يكن الناس في شمال إيران هكذا فمن أين يحضرون مثل هذه الأدوات لإشعالها حيث يحافظون على تدفئة الغرف، ويشعلون أيضًا موقد المطبخ، والمنازل هناك مفتوحة إلى هذا الحد للمجرمة؛ بحيث تستطيع أن تضع عليها قدورا عدة في وقت واحد، ويصنعون الحلقات في الوقت الذي يشيدون فيه محراب المجرمة، بالضبط مثلما تضع الأسقف في بيوتنا، يضعون سلسلة في تلك الحلقات ويثبتون فيها إبريق شاي أو قدر، وفي بعض بيوت المدن يشيدون مجرمة في كل حجرة، وفي أيام الشتاء يقوم الخادم بإعداد الأرز واللحم على مجرمة ويطعمك منها ويقول:

تناولوا الطعام واشربوا الشاي الساخن !

وعندما حضرنا هنا في شهر أغسطس كان فصل الشتاء في أوج ازدهاره والهواء عليل، وكنا نمكث في مثل هذا الجو تمامًا تشاهده حضرتك في بوانا في شهري يوليو وأغسطس، أما الماء هنا فلا يمطر أكثر من عشرين أو خمس وعشرين بوصة بشكل عام ولكن اثنتين أو أربع بحيرات كافية لخلق جو رائع، وكان المطر أمسي قليلاً جداً، وظل الهواء يهب باستمرار.

وقد أمضيت شهري سبتمبر وأكتوبر في هذا العالم، ولكن ما أن بدأ شهر نوفمبر إلا وقد بدأت طبيعتي في الذبول من فكرة أن فصل الشتاء هنا قصير جداً، وكان قاعد العسكر الذي أمضى هنا الشتاء الماضي يقول إنه كان أكثر برودة من بوانا، ولكنه استمر لمدة عشر أو اثنتي عشر يوماً بصعوبة، ويظل موسم الشتاء هنا في ديسمبر ويناير بشكل عام، مثلما تكون الأيام الأولى للشتاء في دلهي والبنجاب، وكانت هذه الأخبار قد أصابت طبيعتي باليأس تماماً، ولكن لأنه يبدأ في شهر ديسمبر فإن الموسم يتقلب فجأة ذات اليمين وذات الشمال، وظلت السحب تخيم لمدة يومين ثم صفت السماء صفوا وكان شيئاً

لم يحدث، وفاض الموسم بما لديه، من خبرات وتذكرت مدة المشي في دلهي ولاهور، فأين المجرمة الموجودة في الغرف هنا؟ فلو أنها موجودة لكان الموسم بالضرورة هكذا بحيث أبدأ في جمع الأخشاب، وكان جيتا خان الذي يرتدى طوال الوقت حلة خفيفة كاكي (أي قصيرة)، جاء فجأة وهو يرتدي حلة ثقيلة وبدأ يقول: بدأت ركبتي تؤلمني من البرد، وقد وصل خبر إلى المعسكر أن أحد الجنود الإنجليز جاء للحراسة ليلاً، وقد ابتلينا به كقدوة في الصباح وانتهت في المساء، أما أحوال المعتقلين في القلعة فقد كانوا يتشبثون بغطاء على أجسامهم حتى وقت الظهر ومن ينظر عليهم يشكون من البرد في غير محله، ويجلسون في الشمس ويدلكون أجسامهم بالزيت وقد تشقق جميع أجزاء أجسادهم وتقشرت جلودهم، حتى إن السادة الذين يعيشون في دلهي ويوبى والذين تعودوا على طقس "نيني تال" يؤكدون البرودة هنا أيضًا..

لقد حدث جفاف شديد في دمشق ،

لدرجة أن الأحباب قد نسوا العشق .

(سعدي الشيرازي)

حاكم المديرية هو أيضًا من سكان هذه المنطقة، وقد جاء وبدأ يقول إنني أمضيت هنا سنوات طويلة ولم أر مثل هذه البرودة في هذه المنطقة، لقد انخفضت درجة الحرارة تحت أربعين درجة، الجميع هنا مندهش، فما الأمر الجديد الذي حدث هذا العام؟ لقد وصلت برودة البنجاب فجأة إلى أحمد نجر، فقلت من قبل ألا يعلم هؤلاء الجهلاء أن هذه آثار دعائنا نحن السجناء .. "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره".

أنا فداء أسلوب الرحمة الذى فى ثوب الربيع

فقد اشتعلت الخمر احمرارًا معتذرة عن السجن .

(نظيري)

الناس هنا يشكون من شدة البرد، وأتمنى من قلبي الآن أن أرفع عقيرتي وأقول.
"هل من مزيد"، وقد أحضر معي ملابس ثقيلة من كلكتا وأنا حتى الآن لم أرتدها،
وأخشى أنني لو أرتديها سوف تقلل من إحساسي بالبرودة ولن تسنح لي الفرصة لخيالي
بالانطلاق والتجوال، وحتى الآن أستعمل ملابس الصيف، ولا شك أنني عندما أستيقظ
في الصباح أجعل ردائي الصوفي مزدوجاً وأضعه على كتفي، فالعلاقة بيني وبين فصل
الشتاء مثلما قدمها نظيري النيسابوري..

هو في الوداع وأنا في الجزع لأنه لم يبق من الخمر والربيع
إلا ثلاث أو أربعة كتوس وثلاثة أو أربعة أيام حلوة .

(نظيري)

وكنْتُ قد كتبت حتى الآن أن الفكرة في بدايتها استغرقت إحدى عشرة
صفحة في المقدمة، وحتى الآن لم ترد الفكرة المقصودة على لسان القلم وأحدث واقعة
هي أننا بعد انتظار وحرمان لمدة شهر أخبرنا "جيتا خان" ببشرة طيبة أن متجر
الجيش والسلاح البحري في بومباي أحضر الشاي والباسمين الأبيض من مكان ما،
ويحوله إلى المشتري بالبريد نظير جنيه واحد للطرد، وهكذا وصل الطرد أمس، وبدا
جيتا خان في الشكوى من ثمنه ويقول: أتدفع جنيهًا واحدًا من أجل الشاي مع إنني
مندهش من رخص الشاي، فهذه السلعة نادرة في هذا الزمن ولو طلب المتجر ضعفي
الثمن لكان هذا الشاي غالي الثمن رخيصًا..

يا من تسأل لماذا تشتري كأساً بروح

قل هذا الكلام لساقينا ربما رخصها لنا

(فغانى الشيرازي)

انظر من حسن الصدف؛ فقد وصل الطرد إلى هنا، وأرسل لي بعض الأصدقاء
أيضاً علب عدة من الشاي أخذوها من أصدقاء صينيين لهم في بومباي، والآن مهما
طال زمن الاعتقال فلن أفكر في قلة الشاي.

على كل فالكلام الذي أود قوله إن هذه الحادثة قد بدلت أجواء معاملات الصباح بشكل كامل، وعاد الرونق والبريق مرة ثانية إلى الطبع الكئيب والحزين، ورجعت زينة مجلس طرب الصباح مرة أخرى، وكان هذا الطبع الأسود والنشوان لعالم النسيان ، وهذا الفكر العاجز هو معيار سماوي..

ما زال جوهر الأسرار على حاله .. كما كان

وما زال " صندوق الحب " مختومًا بخاتمه .. كما كان

فيا " حافظ " حدثنا ثانية بقصة هذه العين الفارقة في الدماء

فما زالت، كما كانت، تفيض بالدماء كما يفيض النبع بالماء^(١).

(حافظ)

أبو الكلام

(١) الشواربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ١٧٠. (المترجم)

خطاب ١٦- قلعة أحمد نجر

٩ يناير سنة ١٩٤٣ م

صديقي الكريم

أبدى بعض النقاد هذا الرأي بالنسبة لأدب الأنانية (Egotisti Literature) أو الاعتداد بالنفس في الوقت الحاضر، وهو إما أنهم يشجبونه ويستاءون منه كثيراً وإما يرغبون فيه ويفضلونه أكثر، وهو هنا لا يتسع لي درجة متوسطة، والمقصود من أدب الأنانية هو جميع الكتابات التي يعتز بها المؤلف ويعتد بنفسه (ego) ويتعالى بشكل واضح، ويرتبط هذا التدوين السير الذاتية والكتابات الشخصية والمذكرات وفي الانطباعات والأحداث والملاحظات والمشاهدات والتجارب والأساليب الشخصية في الفكر والتمتع بشكل ملموس، ولو لم يرتبط بذلك فسوف تتسع الدائرة جداً، لأن المؤلفات يمكن أن تغص بالأنانية بجميع أشكالها بشكل غير ملموس وتظل تمتلئ بها، ولو أننا ألقينا نظرة على الصورة الحالية من هذا الاعتبار لوجدنا بعض الأحوال العجيبة في عمزنا ونستطيع إنقاذ آثارنا العقلية بكل طريقة، لكننا لن نستطيع أن ننجو بأنفسنا، وكم نحن نسير مستترين بستار الضمير الغائب والضمير المخاطب ولكن ضمير المتكلم سيظل يحيم علينا، ويقدر ما يمشي يتبعنا ظلنا، وكم لدينا من إنكار الذات الذي يتولد في الحقيقة من تكبرنا وغرورنا ولهذا السبب قلنا الحقيقة ..

فقلت لها: ما أذنبت، قالت مجيبة: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب .

(أوس بن حجر)

كنت أمس أكتب جزءاً خاصاً في كتاب تحت التأليف، فإذا بالمبحث يتلاءم مع القول المذكور ويتجدد في بؤرة العقل، وفي ذلك الوقت جلست للكتابة في الصباح

حسب العادة فوجدته واقفًا شاخصًا أمامي بلا ترتيب، وقد بدأت التفكير في هذا الأمر بعد التوقف لفترة وجيزة اليوم .. ما أنانية الأديب "egostim" الشاعر، والرسام، والكاتب ؟

إن مذهب الفلسفة والأخلاق الآن لا يتجه ناحية الأنا "egoism"، ولا يوجد مذهب الذات "Lamness" في مصطلح التصوف بل تنظر فقط لهذه القضية من ناحية تحليلية عامة، وسوف يتضح لك أن هذه الأنانية في الحقيقة لا تمثل شيئًا ما وأن انفرادها الفكري حماس طبيعي ولا يستطيع إخضاعها، ولو أردنا الضغط عليها لبدأت في الامتلاء أكثر لتثبت وجودها، وكان أبو العلاء المعري قد قال في لاميته الشهيرة :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

أو عندما أنشد أبو فراس الحمداني رائيته الخالدة :
أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر .

أو عندما كان ابن سناء الملك يخاطب زمانه :
وإنك عبدي يا زمان، وإنني على الرغم مني أن أرى لك سيدًا .
وما أنا راض أنني واطئ الثرى ولي همة لا ترتضي الأفق مقعدًا .

أو عندما رشح قلم الفردوسي بقوله :
ولقد تعبت كثيرًا خلال هذه الثلاثين عامًا،
وأحييت العجم بهذه الفارسية .

أو على سبيل المثال عندما ينظم فيضي منظومته "نل ودمن" وينشد هذه الأشعار :

اليوم أنا لست شاعرًا وأنا أنا حكيم
كل شعرة منى كلها آذان
إن هذه الخمر التي تفور من كأسى
مئة عين سقطت في ورطة القلب
أن صهرت زجاجة القلب
أنا الذى بسحر عظيم
وصوت قلمى في هذه الليلة المظلمة
بسحر عظيم كانت تتساقط
كل نغمة عزفتها على هذه الروتية
هذا الورد المنشور في البستان

أو عندما قال مير أنيس :

أعرف الحادث والقديم
صمتى بمئة صرخة
هى دمء تنقطر من رأسى
فألقي هذا الموج الجواهر على الساحل
سأعطى المرأة في يد المحفل
قمت بنحت الكلام من الشعلة
أيقظ الكثير من المعانى النائمة
من الصبح النجوم ومنى الكلمات
أخفيت معها الناقوس في الزنار
هو تذكار منى للربيع .

إنني أكدر الموضوعات الجديدة فاعلم المغترفون من فضالة مخزن

لم يكن هذا مجرد تفاخر شاعري، بل كان هذا يغص بالفردية والأناية وظل يتادي به تلقائيًا، ولكن إلى جانب هذا نرى هذا النوع من الشعور بالأناية واقعًا حقًا، فلكل فردية وأناية صورة منعكسة في مرآته الداخلية وبدأت المرايا الخارجية تنعكس عليها وهى مقلوبة تماما ويتراءى الوجود الكبير في المرأة الداخلية، ويظهر شكل متناهي في الصغر في جميع المرايا الخارجية.

إن النفس لها مرآة وهى محرومة من إظهارها .

(غالب)

هذه هى حقيقة الأمر بالنسبة لكل مؤلف يريد أن ينسب أي كلام لنفسه، ويبدأ جميع الأشكال في الظهور ما دامت صورته نفسها تظهر في مرآته الداخلية، لا

نستطيع تكذيبها عندئذ ماذا نشاهد فجأة؟ نجد أن جميع المرايا الخارجية تكذبها وأنا نفسي أعيرها اهتمامًا منقطع النظير، وهى نفسها تظل غير مهمة تمامًا في نظر الآخرين، وتبدأ هى نفسها تشعر بمثل هذه الحالة مثل: الرسام الذي يشحذ قلمه من أجل رسم صورة؛ لكنه متأكد من أنه يستغل العديد من قوته التصويرية، وليس هناك أي نظرة سوى نظره لذا فإنه سوف لا يستطيع رؤية هذه الصورة الخلابه..

إن المرأة لا تعكس طلاسـم الخيال

فأنا أن قش صورتي في اللوح الآخر .

وبصعوبة النادرة ما يستطيع المؤلف أن يجدها وإن وجدها فإن هؤلاء الناس يزينون أي وضع تظاهري دون أنانياتهم أمام الدنيا، ولكن مثلهم في إظهارها مثل رجل غير متكلف يقف في الصدارة دون تصنع العظمة والكبرياء، وهذا الوضع الذي يواجهه فيه رجل ما صورته دون أي تصنع يحمل جاذبيته الخاصة لظهور الحقيقة؛ ولهذا فإن أنظار الدنيا تنجذب نحوه طواعية مثل الذي يستطيع أن يفعل خواص الأدباء عندما يضحمون أنفسهم وذواتهم في حقيقة الأمر، ويحقرون ما للآخرين، ولكن الدنيا لا تستطيع إنكار قبوله، ولم تسنح له الفرصة لقياس مقدار أنانيته في الدنيا، ويصبح بلا وعى بعد أن يرى واقعيته غير متكلفة.

فالإنسان الذي يريد أن يرسم صورته لنفسه فإنه يرسمها سواء كان لديه شعور أو ليس لديه شعور، لكن رغبته من الأعماق تبدأ في الحديث بصوت خافت عن أنانية.. وللتصوير حالات مختلفة، وإحدى هذه الحالات نفسها التي يعبر عنها بالتصوير في الوضع المتصنع "Pose" - أي اختيار طريقة متكلفة بشكل خاص من أجل تصوير أي وجه أو جسم وفي أي وضع، وأنه لن يستطيع التصوير ما دام أنه لم تظهر ملامح وضعه وجلسته، ولهذا تكون هذه الرغبة تسعة وتسعين إنسانًا حيث يتم التصوير بعد تزيين الجلسة والشكل، ولكن افترض أن شخصًا ما جاء أمام آلة

التصوير بدون أي استعداد وتم تصويره على هذه الحالة فبأي نظرة سوف ترى مثل هذه الصورة؟ إن مثل هذه الصورة تقدم تعبيراً دقيقاً لواقعيتها وعدم تصنعه، وسوف ينشأ تقدير خاص وحقيقى لها، وعندما تظهر أمام صاحب بصيرة فإنها سوف تجذب انتباهه نحوها، وهو لن ينظر إلى هذه الصورة وكيفية بحد ذاتها، وسوف ينمحي فيها، لأن الصورة نفسها كما هي مرتجلة.

وتدرك هذا المثال بعينه في حقيقة الأمر هذه والتي يستطيع المؤلف فيها تصوير أنانيته مرتجلاً، وهو في هذه المسألة يتغلب على جميع المشكلات، ويرسم بقلمه صورته ذاتها ولكن هذا الأمر لا يمكنه أي يخل بشيء من خلاسته وتأثيره، لأن التصوير مرتجلاً وبلا تكلف سواء منح العظمة للناس أم لم يمنحها لكن ارتجاله الأخاذ سوف يجلب جميع الأعين، ومثل هذا المؤلف يلبس أنانيته ثوب الرغبة الأبدية وهي غير فانية.

ولكن يجب أن ندرك هذا الأمر أيضًا؛ وهو أن ظهور فردية الإنسان مثل جميع المشاعر المعنوية متنوعة بأشكال مختلفة وأحوال متباينة فهي تظل نائمة أحياناً، وتستيقظ أحياناً أخرى، فأحياناً تنهض وتجلس، وأحياناً تبدأ بالقفز بشدة وعنقوان ومثلها مثل بقية قوة الإنسان تحتاج إلى تربية ورعاية، وكما أن الإنسان لا يحمل درجة متساوية من العقل والإدراك فكذلك أيضًا حماس الفردية؛ فإنه لا يغلى في كل إناء بالدرجة نفسها، وهذا هو الفرق في الدرجات التي نجدتها في جميع الأدباء والشعراء والرسميين، والموسيقين، وأكثرهم يتحدثون عن الفردية، لكنهم يتحدثون بصوت خافت، وانفرادية تكون مليئة بالحماس إلى هذا الحد حيث عندما يتكلمون يدوي المكان كله بهتافاتهم.

علا صوت أنيني ذات مرة من لوعة الاشتياق ،
ولا يزال يمكن سماع الصوت من الجهات الستة .

(خليل كاشي)

ولهذا كان أحد شعراء العرب يقول:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا .

فمثل هؤلاء الأفراد لا يمكن أن يحمّد الحماس داخلهم بأي طريقة، فصمتهم صباح وسكونهم اضطراب وحركة، وعندما تحمّد فرديتهم يبدءون في القفز أكثر، فمثل هؤلاء الأفراد عندما يتحدثون لا يكون هدفهم أي دخل في التظاهر والتكلف، وهم يصرخون جميعاً بحقيقة الأمر دون التصنع، وكان لفيض مثل هذه الصرخة التي ما زالت تدوي في أسماعنا حتى هذا الوقت:

إن الشعلة تطل برأسها من قلبنا الممزق

فقد كان فوران النار اليوم في نافورتنا

(فيض)

ولكن هنا أيضًا استثناءات مثلما هو في كل قانون، ونحن نسلم أحيانًا بظهور مثل هذه الشخصيات على خشبة مسرح الدنيا، والذين ليس لديهم مقدار إضافي من الأنانية فحسب، بل ولديهم نوعية مطلقة أي إن أنانياتهم نفسها كما تترأى لهم متضخمة ويبدأ الآخرون في رؤيتها كبيرة إلى هذا الحد، وتخيم عليهم أنانيتهم، وعندما تظهر أحيانًا سواء في المرأة الداخلية أو الخارجية ستظهر أبعادها الثلاثة دائمًا على هيئة واحدة.

وسوف ننظر إلى مثل هؤلاء الخواص من الناس بنظرة معيارية عامة مختلفة وأن فكر هؤلاء الناس ونظرهم لا يمكن أن يوزن بموازين العامة، ويسلم لهم الزمان بهذا الحق ويتحدثون مثلما شاءوا وبمرات عديدة أيضًا، وأن الأناني في كل مرة أكثر خلاصة من: هم وأنتم .

خذ عندك أي نوع من أدب الأنانية، مثل: كتابات السيرة الذاتية، واختر عدة أشخاص دون جهد كأمثلة مثل: سانت أوجستين "Augustine" و"روسو" و"استرند برج" "Strandberg"، وتالستوي، وأنا تول فرنس، وأندريه جيد

Andre gide " فسيرهم الذاتية الست مختلفة النوعية عن بعضها بعضا وتصير ست حالات مختلفة، لكنها جميعا نالت مكانة خالدة في الآداب العالمية على حد سواء، لأن تصورها واقعي بلا تكلف في الآداب الشرقية يمثل أمامنا كتابات السيرة الذاتية لكل من الغزالي، وابن خلدون، وبابر، وجهان جبر، وملا بعد القادر البايوني، وكم نحن نطالعها بوجهات النظر المختلفة ولكننا لا نستطيع إنكار معانيها الجذابة، فالغزالي يقص سيرته وانفعالاته، وابن خلدون يحكي حكاية علاقته التعليمية والسياسية، وبابر دون أحداث الحرب والسلام ووارداتها، وقد طلب من جهان جبر تسجيل الوقائع بعد الجلوس على العرش الملكي، وظل هؤلاء جميعا يتحدثون ويهتمون بلا موارد، ونحن لا نستطيع أن ننظر بأعينهم، ومع ذلك ننظر، ولا نستطيع إنكار خيالهم الخالدة لأنها تأتي أمامنا دون أي تصنع أو تكلف .

ويختلف بدايوني عن الآخرين في هذه المسألة، فهو فرد من طبقة العوام استطاع أن يحتل مكانة في حلقة العلماء بعد أن نال قسطا من التعليم في وقت قصير وظفر بالحضور في البلاط الملكي، ومع أن كل شيء في أنشطة حياته جميعا يمتلئ بالخصوصية؛ فإنه راسخ الاعتقاد في شدته وضيق أفقه، وتعصبه، ونحن لا نعرض القليل والكثير من أنانيته فحسب، بل وندعو إلى الرفض والإنكار لكل خطواتها، ومع هذا لا نستطيع منع أنظارنا من التطلع إليها، ونحن لا نفضلها لكن رغم ذلك نقرأها، ونطالعها بعد أن يتعلق القلب بها، وعليك أن تمنع النظر في هذا الأمر نفسه الذي كنا نفكر فيه الآن منذ وقت قصيرة، فالشخص الذي تكون هذه صورته لا تكون هي نفسها جميلة لكن الصورة جميلة من حيث كونها تمنع أنفسنا من جاذبيتها.

كان تالستوى يعد في الغالب من بين خواص أولئك الأدباء الذين كانت لديهم نوعية مطلقة ومقدار إضافي من الأنانية، وكان هو نفسه يضخم من أنانيته فكان العالم يراها ضخمة إلى هذا الحد، وسع نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن لم يستطع أي مؤلف حديث بهذه الثقة بالنفس مثلما ظل يتحدث باللغة الروسية

العجبية والغربية، فهو في حالة سيرتها الذاتية، وفي واردته وتأثراته الشخصية، وفي حواراته و أحاديثه الصحفية في مختلف الأوقات، وفي أبحاثه الأدبية والفنية كلها يواجه الدنيا بأنانيته دون أي نقاب، والعالم يجمعها مع الكتابات العالمية وسيرته الذاتية التي كتبها فكتبت ببساطة دون التكلف ولا ثقل في قبولها وانتشارها عن رائعتيه "الحرب السلام" و "أنا قرنينا"، وفي الحقيقة أننا سمعنا بأصداء أنانيته في كلا الروايتين، ولا يستطيع الزمن حتى الآن أن يخفي إنتاجه الفكري الرائع، وكان الناس يبحثون من جديد عن روايته "الحرب السلام" في أيام الحرب الأخيرة، وما زالوا حتى الآن يبحثون.

وتستطيع الكثير من العقول أن تهتم بعظمة تالستوى مفكرًا كبيرًا في العصر الحاضر، وسوف يظهر العديد من الأدباء مثله بين طبقة المفكرين في أوروبا وأمريكا، ويكونون مستعدين للنظر إلى أفكاره الاجتماعية والفلسفية والجمالية "Aesthetic" من وجهه النظر هذه التي كان الناس ينظرون إليها في أوائل هذا القرن، مع هذا لا يستطيع أحد حتى الآن إنكار روعة أدبية الأناني، ولا يزال لغز حياته العجبية حتى الآن الموضوع المحبب في البحث في التفكير، ولا يزال يصدر كتاب جديد لمؤلف ما عنه كل عامين أو ثلاثة .

ولقد ألقت العديد من السير الذاتية والمذكرات الشخصية في نهاية القرن الماضي وبدايات هذا القرن، ويقال إن كل أربعة مؤلفين في عهده يرون أنه لازمًا أن يتكرر مرة أخرى في نهاية عمره وحياته المنقضية، وقد أفسحت مكتبات العالم دواليها جميعًا لمؤلفاته، ولكن قليلاً من عقول العالم استطاع أن يستوعبها .

لقد استعملت كلمة "إيجو" (Ego) في بداية تلك الرسالة، وهي تعريب لكلمة اليونانية "Ego" نفسها، وكان المترجمون العرب لأرسطو قد وقع اختيارهم عليها في بادئ الأمر وظل الفارابي وابن رشد وغيرهما يستعملانها باستمرار واعتقد أنه من المناسب أكثر استعمال كلمة "Ego" بدلا من "أنا" في البحوث الفلسفية، وأن هذه

الكلمة تظهر المصطلح الفلسفي بطريقة مباشرة وتؤدي هذا العمل نفسه بشكل كامل مثلما تؤديه هذه الكلمة "Ego" في اللغات الأوروبية؛ ولذلك يبعد هذا الغموض الذي يمكن أن توحى به كلمة "أنا" في مصطلح فلسفة، و"أنا" في مصطلح التصوف. ونستطيع أن نأخذ كلمة "إيجو" في الأردية لأننا لا نحترز بالضرورة من الكاف الفارسية .

أبو الكلام

خطاب - ١٧ حكاية الغراب والبلبل قلعة أحمد نجر

٢ مارس سنة ١٩٤٣م

الصدیق الفاضل:

كُنْتُ بالأَمْس أرتب حكاية الغراب والبلبل في العالم الخيالي، وكانت مجموعة الخيالي منفردة حتى الآن .

وأفكر في هذا الوقت أن ألقى على مسامعك فصلاً منها:

ما دمنّا قد كتبنا فصلاً عن حقيقة الأشياء

فقد كتبنا الآفاق مرادفاً للعتقاء .

(غالب)

في يوم من الأيام لم أحتس الشاي صباحاً وعلمت ماذا فكر سيد محمود، لقد خرج وأخذ معه قليلاً من السكر في (سكرية) وأخذ يبحث في كل مكان في الفناء:

وكان هذه الطائفة قد وجدت هذا المكان جوهراً

(فيضي)

وعندما تعقبته علمت أنه يبحث عن جحور النمل، فكان يضع قبضة من السكر في أي جحر يتراءى له، وعندما رأيت هذه الحالة قلت إنه يضرب فرس السعي بالسوط:

وللأرض من كأس الكرام نصيب .

(محمد بن يحيى)

فأخذ يقول وما ترجمتها، فقلت هذا البيت لحافظ الشيرازي مع بعض الإضافات:
إذا أخذت في شرب الخمر، فأهرق جرعة على سطح هذا التراب المغبر
فلا خوف من ذنب يصل نفعه إلى الغير^(١).

لقد قامت أزواج العصافير ببناء أعشاش لها في كل مكان في أسقف الغرف
هنا، ويستمر صخبها وضجيجها طوال اليوم، وبعد بضعة أيام ظن سيد محمود أنه من
الممكن مجاملتها ومداراتها هي أيضًا، وقد استرعى لسان حال العصافير انتباهه ..
نحن أيضًا نأمل في نظرة لطف

(ذوق)

وكان قد قام بتربية الدجاج في كوخ ذات مرة، ويأخذ الحبوب في يده ويتجول
بها وكان الدجاج يجري يتجول في كل مكان، فأراد تجربة هذه الوصفة أيضًا على
العصافير ولكنه أصابه التعب والإرهاق، فظل جالسًا وأخذ يقول: هذا أمر عجيب
إنهم يذهبون عند الحبوب بعد رؤيتها؛ لكنهم يبدؤون بالهرب بسرعة وكان عرض
الحبوب يعد جرما أيضًا:

يا إلهي! لديه عاطفة القلب لكن تأثيرها معكوس ويقدر ما أجذبها فنجذبني .

(غالب)

قلت له: قم بخطوة في سبيل الطلب والحاجة، وعليك أن تبدى الصبر والجلد
من أجل أن تنسى الغنج والدلال، ومع دعاوى عجز العشق فإن الذين يشكون من
دلال الحسن لا يكسبهم ذلك جمالاً.

(١) الشواربي، إبراهيم أمين: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٢١٧. (المترجم)

لا تأخذني بالغنج والدلال إلى المنزل المقصود
أصر فني عن كل شيء إلا طريقه
إذ طردك بالدلال فلا تذهب فإنه نهاية الأمر
لقد دعاك بمائة تضرع وأنت تدلل

(الخيام)

وأحياناً يأتي هنا في الصباح زوجان أو ثلاثة من طيور القمرى الصحراوية،
وتملاً آذاني بفجيج أصواتها وغنائها، والآن ينشد السيد محمود قصائد في عشق
العصافير لكنه ينصب فنح الضيافة من أجل الغزال الصحراوية..
أنا وغزال الصحراء الذي يهرب مني دائماً .

(خسرو)

وخرج في صباح اليوم بعد أن أخذ في يده قطع صغيرة من الخبز، وذهب إلى الغناء
ووقف وأخذ يصيح بحنجرته بقدر ما يستطيع: تعالوا... تعالوا... هلموا ويشرق قطع الخبز
في الهواء، ولم تستطع طيور الحجلة أن تلتف إلى هذه الدعوة العمومية ولا غرو فقد بدأ
مستجدو المدينة من رجال الآفاق - أي الغربان - في الهجوم من كل ناحية، لقد رأيت
استجداء غربان المدينة ولذلك قلت إنني لم أر مثل هؤلاء الضيوف في مكان قط، ونادرا ما
تراءى لي أسراب وجماعات الطفيلين، ويوجدون دائماً في مثل هذا العالم فكانوا يصلون على
الأبواب جميعاً مثل الفقراء وينادون ويصدرون أصواتاً ثم يرحلون.
حضرُوا الفقراء ورحلوا بعد أن نادوا .

على كل حال جاء السيد محمود بعد أن غلبه التعب، وعندئذ بدأ أصحاب
الأكمام القصيرة المستجدين بالتلوي وشمروا عن سواعدهم فوراً، وأخذوا يبسطون
المائدة بأيديهم الطويلة..

و يا من قصرت أكمالمهم إلى متى تطول أيديكم.... وإلى أي زمان ؟..

(حافظ)

وتوجد شجرة نيم ضخمة في الركن الشمالي للغناء يقفز عليها أسراب
السنجاب وعندما رأيتها قلت:

أيها الأصدقاء هذه دعوة عامة من أجل بعد النظر .

(غالب)

عندئذ بدأوا يقولون بصوت عالٍ لبيك لبيك وأحسنت صنعًا، وانقضوا على
مائدة كرمه:

وهذه هي دعوة العشاق إذا شئتم أن تقبلوا على أمر أيها الأصدقاء

(حافظ)

وكان ما تبقى من أصحاب الأيدي الطويلة من الغربان يبحث عن أصحاب
الأكمام القصيرة فكان يمضغ كسرات الخبز في أفواهه أولاً ثم يرفع رقابه، ويمضغون
قطع الخبز ويشير كذلك بعد هز الرأس وكأنه يثنى على حسن ضيافة السيد محمود
وهذه الطريقة يقال لها أيضًا حسن الطلب:

طيب وجميل ولكني أطلب ما هو أطيب منه

(حافظ)

حسنًا! كانت هناك أعداد من السنجاب المسكين على فتات سفرة الكرم هذه،
لكنها بعد أن قامت بهذه الأعمال الطفيلية لم يتعرض لها المضيف على المهمة بأي اعتراض
على تزايد هذا الجمع فجأة، واتضح أن خبر هذه المنحة العامة قد انتشر في جميع أنحاء
أحمد نجر وعندئذ ودع جميع غربان المنطقة منازلهم وأخذوا يبحثون عن مقر لهم أما طيور
الحجلة المساكين التي كانت المضيف الحقيقي لهذه المأدبة فلم يكن خبرها قد وصل إليهم
حتى الآن ، ولو وصلت الآن أنى يدع لهم الطفيليون الكرماء مكانا في هذا الزحام؟

لقد تجمع الكثير من المتطفلين لدرجة أن مكان الضيف قد ضاع

(نظري)

وكان نعيب الغربان ونعيقها ستمر هنا قبل الدعوة العامة للسيد محمود؛ وحتى الآن فإن دقائق الطبول مستمرة بعد فرش مائدة كرمهم وقد صبر الناس عليهما ليوم أو يومين، وفي النهاية قالوا له : لو لم تستطع منع منح أيادي كرمكم فأوقفها على الأقل لعدة أيام وإلا لن ينعم الزهاد المعتكفون في غرفهم بالراحة بسبب أسواط أصدقائهم التركمان ، وقد وصل الخبر حتى الآن إلى غربان أحمد نجر فقط، فلو ظل هذا الكرم العام للمطبخ العمومي مستمرا هكذا قلت : نندش عندما يهجم جميع غربان الدكن على قلعة أحمد نجر، وأذكرك ببيت شعر لصائب:

أن تذكر البعيدين بالإحسان فهذه عين الهمة

وإلا فإن أي نخلة تسقط الثمر تحت أقدامها .

(صائب)

وكان سيد محمود ما زال يفكر في هذا الطلب (الانتهاس)؛ فإذا بواقعة أخرى تظهر له، فني صباح ذات يوم رأى نسرين عجوزين قد خطا رجليهما أعلى جدار السطح..

أحدودب الظهر قليلاً من الشيخوخة وهو صورة مجسمة للتوقير .

(شبلي)

وقد رفع النسران رقبتيهما في انتظار دعوة المائدة

يا من تحجب المنزل إن الحديقة تكون هنا قليلا .

(سودا)

وعلى الرغم من كرم السيد محمود وسخائه هذا؛ فقد بدأ يقول إن مجيء الضيوف غير المدعويين قد أثقل عليه، وقد قال أجدادنا إن مجيء النسور نحس .

على كل حال؛ فإنه فيما يتعلق بهؤلاء الضيوف فإن هذا بعض ما كان يعتقد كبار السلف، لكن الحقيقة هي أن قدومهم الشريف مصدر بركة كبيرة لنا؛ لأن حضورهم المبارك هنا يجعل وجود السيد محمود هنا بشكل دائم ويدأ في فرش مائدة كرمه ويمكن النظر إلى هذه المسألة من هذا الجانب، فقد كان بيئتهم مستترا في خراب ضجيج الضيافة، وانظروا فيالها من مناسبة نذكر فيها خرابا بسبب حضورك فلا تقصد الكعبة بيمين قدومك هذا.

حسنا! فقد ظل الحديث محتدما لعدة أيام لكن أنى لنا النجاة الآن من أسراب الغربان؟ فالمستجدون عرفوا باب الكريم، ويأتون في وقت محدد في الصباح ويجأرون بالدعاء للمضيف حتى لا ينسى عادته.

عش سعيدا أيها السيد فسنرحل بعد الدعاء .

(مير)

وفي تلك الأثناء تغيرت الفصول وبدأ فصل الشتاء يللملم متاع سفره، وأثار مجيء الربيع ضجة وصخباً ومع هذا لا يزال حتى الآن ..

كان الخبر قد شاع على ألسنة الطير .

(غالب)

وعندما حضرنا إلى هنا في أغسطس من العام الماضي كان الغناء عبارة عن ساحة قاحلة جرداء، وقد حاول المطر مراراً أن ينبت فيها الخضرة لكن التربة لم توافق في هذا، وقد ملت الأعين من هذا المنظر عديم اللون وبدأت تشوق للورود والخضرة وفكرت: لماذا لا يختارون مهنة البستاني كي يمارس هذا العمل ويزود أصحاب الصورة وأصحاب المعنى كليهما بمتاع الذوق..

تعرف أصحاب المعنى بالراحة وأصحاب الصورة باللون .

(حسن القزويني)

وكان جواهر لآل نهرو الذي كانت لديه كفاءة وفاعلية دائمة؛ يترقب السبيل إلى مثل هذه الاقتراحات، وعلى الفور فقد شمر عن ساعد الجسد وبدأ إعداد المواد الأساسية لتعمير هذا الخراب باللون والرائحة..

وفي طرفة عين عم نور القمر في القلب الموحش .

(آتش)

وهناك شرطان ضروريان من أجل تزيين لباس الحياة وإحياء الوجود في كل ناحية من عالم الألوان والرائحة هذا؛ وأولهما سلامة البذرة..

ولو جاء "الحجر الأسود" بروح لما أضحى ياقوتا،

وماذا يفعل بطينته الأصلية وقد قدر لها أن تكون رديئة العنصر والجوهر .

(حافظ)

والشرط الثاني هو استعداد التربة:

إن جوهر طينة آدم من معدن آخر ،

وأنت تتمنى الأمانى من طينة صانعى الكيزان

(حافظ)

ولهذا فكرت هنا في هذين الشرطين أولاً، وطلبنا البذور من "جيتا خان" الذى كتب إلى "بونا" ليحضرها من هناك؛ وهى مشهورة بجمال مخزون بذور الحدائق وصلاحية نوعها، لكن مسألة صلاحية التربة لم يكن أمراً يسيراً إلى هذا الحد؛ لأن أرض الغناء كلها في الأصل عبارة عن مباني القلعة القديمة؛ وعندما حفرناها قليلاً بدأ يخرج منها في كل مكان قطع كبيرة من الحجارة وأجزاء صغيرة من الجير والرمال، والجزء الأوسط منها كأنها قباب ومقابر للدفن، ولا أحد يعلم لمن من الحكام تلك؟ وكم من عظام للوجوه الملائكية في تراب هذا الخراب؟ وتقول بلسان الحال:

وتناول القدح في شيء من الأدب فإنه مركب

من جمجمة رأس "جهشيد" و"بهمن" و"قباد" .

وقد احتفرت ثلاثة أقدام من التربة بعد وضع الأساس للأحواض البور، وتم استخدام الطمي والسماد من الخارج ثم تم ملأها به، وأخرج منه بعد عدة أسابيع، ظل جواهر لال نهرو يحمل في يده الفأس والمول ليل نهار ويحفر في الصخر من أجل خروج العشب..

لقد لطنخنا كل سن شوكة بدم القلب ،
وكتبنا قانون بوستانى الصحراء .

(غالب)

بعد ذلك واجهتنا مرحلة الرى، وتم إمعان النظر في هذا الأمر من خلال الحقائق الكيميائية وكيف يمكن أن تساعدنا في أعمال فن الزراعة، وقد أبلى المتخصصون في هذا الموضوع بلاءً حسناً ويوجد بيننا معتقل من البنغال يسرف بشكل فياض في عرض معلوماته العلمية في كل مناسبة بداع ودون داع، وهو الذي أبلغنا بهذه المعلومة وهى لو أن مسائل الورود وشجراتها سقيف بالدم الحيواني، ترعرع فيها الدرجة النباتية وتخطو خطوة نحو الدرجة الحيوانية ومن ثم سوف تطوي حقبة أسابيع في غضون أيام، ولكن في الوقت الحاضر كانت هناك حاجة ماسة إلى دماء البشر بسبب الحرب وتم افتتاح بنك لها "بنك الدم"، فمن ذا الذي يكون مستعداً من أجل التضحية بدمائه لتحسين الأشجار؟ وقال رجل آخر: يذبح الدجاج هنا يوميا في المطبخ العسكري للقلعة، فلماذا لا توضع دماؤها في جزور الورود، وقد جعلني هذا الرأي أفكر في ارتجال بيت شعر مع أنني كُنت قد نسيت عادة قرص الشعر منذ أزمان:

إن البراعم تراقص طربا من تخليق الجمال من ذا الذي روى الحديقة بدماء الدجاج .

ولو ذكرنا كلمة "بلبل" بدلاً من "دجاجة" لكان أسلوب بيت الشعر أفضل، وبعد أن استمع السيد آصف على إلى هذا البيت استيقظ لديه الحماس الشعري؛ وبدأ يقرض الشعر في الغزل بهذه الأرض (التربة)، ولكنه بدأ يشتكي ويقول: أعيتني القافية، فقلت له: أعيتني القافية مثلك أيضًا.

فانظر إن توحش حصان فكر الذي يمشي الهوينا ويريد إزاحته مرارا عن طريق الشعر وبعد الفزع سحبت العنان، والأمر الذي أريد قوله هو أن البذور بذرت في سبتمبر وأكتوبر، وفي بداية ديسمبر تغيرت صورة الغناء كله وعندما حل شهر يناير كانت هناك باقات بائعات الورد في كل مكان في هذا العالم وكان كل خيلة في يد بائع الورد.. وكان :

الآن ظهر الورد في الخميلة من العدم إلى الوجود

فوضع البنفسج رأسه على أقدامه في خشوع وسجود

أقم دين "زرداشت" في روضة مخضلة فقد أشعلت لك شقائق النعمان نار "نمرود"

فأسرع إلى حسناء لطيفة الخد ذات أنفاس كأنفاس عيسى

واشربوا الخمر من يدها ودع عنك حديث عاد وشمود .

اعتراه شيء ما، لكن أين هنا متاع تجديد الشريعة الزرداشية؟ وأين يمكن أن يتيسر إعجاز أوامر "حسناء لطيفة الخد ذات أنفاس كأنفاس عيسى"، ولهذا أكملت ناقصه من جولات عالم التصور، وهم يقصرون إلى هذا القدر في تضيق بضاعة العصر وثروته، لأن الرخاء ورغد العيش لفكر واسع الصدر وكبير المهمة يتزايد إلى هذا الحد..

ما دامت أيدينا لا تصل إلى طرف وصاله

فقد كسرنا قدم الطلب وجلسنا بجانب طرف ثوبه

(نوري القنדהاري)

كانت أكثر الورود الفصلية (الموسمية) مراعاة للوقت، وكان يمكن إحصاء أنواعها بأكثر من أربعين نوعاً، وكانت ورود من نوع مارننج جلوري "Morning Glory" قد لونت بورودها المتفتحة هذه الخرابة التي لا لون لها، وعندما بدأت أشعة الشمس تبسم في السماء صباحاً، وأخذت براعم ورود "مارننج جلوري" تقهقه على الأرض، وما أجمل التشبيه الذي خطر ببال أبو طالب كلیم:

لا تسأل عن حلاوة تبسم كل برعم،

ففي الصباح الباكر يسقط السكر من ضحكات الزهور .

(كلیم همدانی)

كانت إحدى الأزهار تسمى "كأس الباقوت" والأخرى "الكوب الأزرق"، وإحدى الأزهار مكتوب عليها "جنجا جهنا" وكان بعض الزهور يجتفي في ألوان مختلفة مثل: القطرة، وبعض الورود متنوع الألوان مستلقى مثل قطرات المطر، وكان يعتقد أن خالق الطبيعة قد أغدق عليها بألوان كثيرة من ريشته، ونفض يده من أجل تنظيفها وألقى برشاشات الماء على طرف عباءة الورود..

الجمال الذاتي برىء من التكلف أين قوة الورود في عباءة الورد .

(آنس)

إنك لن تحرر نجاحاً عند ترجمتك لكلمة "جلوري" في الأردية، ونستطيع أن نطلق عليها "إجلال الصباح" أي إجلال الصباح وغيرها، ولكن الذوق السليم يعترض ولهذا أسميت "مارننج جلوري" بـ "بهار صبح" - أي ربيع الصباح:

هذا هو وقت تفتح البراعم المدللة .

(غالب)

وقد انتشرت مدادات زهور "ربيع الصباح" حتى وصلت إلى السقف، ثم امتدت ناحية الداخل، وبعد عدة أيام ألقينا النظر إليها فوجدنا أن الأغصان منتشرة على السطح بأسره وهي محملة بالأزهار، وأخذ الناس يفترشون مضاجع الورود، ويطأون جوانبها المختلفة، وكان بساط الشوك من نصيبنا فرفعنا فراش مضجع زهورنا وقلبناه على السطح، وكانت الأشواك تغرز في نعائنا ولكن أنظارنا كانت تتجه إلى أعلى دائماً..

لقد مر علينا فصل الربيع أيضاً

(رنكين)

كان يلوح أمامي حوضين من زهور زينيا "zinnia" تتعمم بألوان مختلفة، وزهور الزينيا تنقسم إلى عدة أقسام، وكانت هذه الزهرة أكبر زهور زينيا وكانت عرائسها ملفوفة ومرتبطة ومدورة إلى هذا الحد؛ حيث يتضح منها أنها لأحد المتدربين عممها في قالب بعد أن أحكم طيات العمامة بقدر ما، وكانت عرائسها تزداد ضخامة بقدر ما يتقدم أعمارها، وبدأ يتضح أنها مثل صفوف من الحراس واقفين يرتدون عرائس ملونة مثل سجاني القلعة ويجرسون أيضاً هذه الحديقة الجديدة..

فإن البلابل كلها سكري والبستاني وحيداً .

(صائب)

كانت زهرة الخطمي بين أحواض الزهور تلك وهي الزهرة المعروفة بـ "Holly Hock" وكانت تقف ممسكة بأيديها كأس السعلة الملون، وكان كل غصن يحمل مثل هذا الكأس فيظل القلب في حالة رعب لا مثيل لها في مكان ما، وركضت أعاصير الهواء وحطمت الكأس إرباً إرباً، وكانت دانش مشهدي قد أنشد هذا الشعر بعد أن رأى أحد أغصان الورود:

رأيت غصن زهرة فقلت في نفسي وأنا حزين: ليتني

كنت أستطيع حمل كل هذه الكؤوس بيد واحدة .

(دانش مشهدي)

وهذه الفكرة في الأصل مأخوذة من أمير خسرو الذي قال عن هذه الأرض:
والصحراء مثل كف اليد وقد أخذت الكأس من الشقائق
مما أحلى كف اليد وقد أمسك العديد من كئوس الصهباء .

(أمير خسرو)

إن تشبيه زهور الخطمى كم هو جذاب وساحر، لكن سوف يعتقد هنا أنه لا
يمكن أن يتوفر هنا أداء جمال الطبع، فالكأس أنيقة بديعة المنظر لكنها ليست رقيقة،
وكانت زهور "البتونيا" "Petunia" قد لونت حواشي كل زاوية في الفناء أيضًا،
ولكن أنى لنا أن نستطيع إطفاء عطش تخيل بساطة ألوانها، وكانت مصطبة الأعلام
والرايات تقع وسط الفناء، وعلى الجانبين تظهر أجسام صغيرة لزهور "أيستر"
Aster، وزهرة الذرة Corn flower، سويت بيز Sweet peas، وزهور
"كوكنار"، وفلكس "Phlax"، و"كليوبسيس" "Calliopsis"، و"كاسميس"
وكان خضر الفناء قد ربط برباط مزاركش لكنه كان يرى أيضًا متاع عين المتنزهين،
لكن لم يكن هناك متاع ذوق النظر لأهل الظاهر مع أن:

أهل النظر كانوا أيضًا في المحفل، وكانوا يتنزهون أيضًا .

(حالي)

ولهذا السبب كنت أولى وجهي نحو أحواض زهور بينكس "Pinks"،
وسلويا "Silvia"، وبينزي "Pansy"، وغيرها التي كان بائعو الجلوة لديها يمنحون
دعوة النظر للعين والقلب كل لحظة، إن قلم صانع الطبيعة صاحب معجزة عجيبة؛
فهو يرصع بفرشاة الرسام الرقيقة أوراق الأزهار وأجنحة الفراشات ويستعمل
الدواتين بلون واحد .

وعندما تشاهد أوراق الأزهار تبدو لك كأنها أزهار كبيرة تم قرض بعض
أوراقها الداخلية، فلو نتج عنها أي شيء رقيق وجميل فإننا نقول هذه زهرة، لكن لو

أننا نريد قول أي شيء عن الأزهار نفسها فباي شيء نشبهها؟ الحقيقة هي أن اللسان العاجز ليس مكانه هنا أصحاب الكلام ولا حيلة له سوى الصمت، وتكون رسالة ذهول وشغف لجلوة الحسن، وهي ليست بحاجة إلى كتابة وتحدث:

خلت العين من النظر وبقيت المشاهدة لم يبق الكلام على اللسان وبقي الكلام..
(ظهوري)

وتسمى هذه الأزهار أزهارا موسمية؛ لأن ميلادها وحياتها تظل محدودة في موسم واحد فقط، وعندما ينتهي الموسم هنا تودع هذه الزهور الدنيا، وكان نصيبها من الدنيا قميص واحد هو نفسه استعمل باعتباره كفنًا واحدًا أيضًا..

لم يكن لي رداء سوى الموسم مثل السمكة
كان عندي هذا الثوب نفسه الوحيد حتى وقت الكفن.

(كليم همداني)

وكان مير مبارك الله واضح عالمجيري قد رأى هذه الفكرة في حباب الماء
فانظر ما أجمل ما قال:

أتحسد قلبي وليس له إلا العمر القصير
لقد وجد قميصًا للوجود وهو أيضًا الكفن .

وفي الربيع تحمل الأشجار السورود، وتخفي في الخريف، ثم تدور دوائر الفصول وتأتي مرة أخرى، ولكن انظر إلى عادة مسائل الأزهار الموسمية أنها بلون واحد وبشكل واحد حيث إنك عندما تراها في الدنيا مرة واحدة، لا تريد رؤيتها تموت مرة ثانية، وكان أبو طالب كليم يشير إليها:

لا يمكن رؤية وضع الزمان مرة ثانية
ولا يعود كل من رحل عن هذه الدنيا .

(كليم همداني)

ولكن لو صرفنا النظر عن المنظر الجمالي للزهور "Aesthetic" فإننا نواجه أمامنا ركنًا آخر هو ركن العجائب الذى يظل يقيم عرضاً لألوان من الأفعال والخواص؛ تظهر فيها أنواع مختلفة من الأجسام والهياكل مثل: الروح الحيوانية والروح النباتية أيضاً، وهى ترى نائمة في مكان ما وتبدأ تنقلب ذات اليمين وذات الشمال في مكان آخر، وتنهض في مكان ما ثم تجلس، وتوجد في ركننا الصغير من الحديقة الآن زهرة واحدة فقط يمكن أن تعد من بين الزهور غير العادية في هذا النوع من الزهور، وأعنى بها زهرة جلوري أوساسيوبربا "**Gloriosa superb**" حيث يوجد لها خمسة جذور تنبت منها الورود، أربعة منها مثمرة، وأغصانها الآن مثقلة بالبراعم، وزهورها تتفتح في البداية على شكل مخلب الحيوان ثم تبدأ على شكل فانوس مدور وبعد فترة وجيزة تمتع من التنفس ثم تبدأ في العودة بأقدام مقلوبة وتمر من المراحل التي مرت بها من قبل؛ وفي العودة ينطفئ الفانوس، وتنتشر الأغصان مكونة كأساً، ثم ينقلب هذا الكأس فجأة، وكان كأس الحياة المنحوس لم يبق منه الآن أي شيء..

يبقى لي أيضاً كأس، كأسان، أربعة كنوس منحوسة .

(غالب)

كانت كل زهرة تطوي في سفرها هذا ما بين عشرة إلى اثني عشر يوماً في المجيء والرحيل، فيبدأ مجيئه في ستة أيام، وعودتها في ستة أيام، وفي الحقيقة فإن مجيئها أيضاً يكون من أجل ذهابها..

لم يكن مجيئك يا ظالم، بل تمهيد للرحيل .

(غالب)

أما من حيث اللون فقد كانت ملونة وعجيبة الأطوار، فعندما تنمو البراعم فإن لونها يميل إلى الأخضر قليلاً، وعندما يحين وقت تفتحها يبدأ اللون الأصفر في

الظهور ثم يبدأ اللون الأصفر يميل إلى الأحمر تدريجيًا، وتظل في البداية نصفها أحمر ونصفها أصفر، ثم يختفي اللون الأصفر بسرعة ثم تصبح الوردة حمراء اللون بالكامل، وتبدأ في اللمعان مثل ثمار الفلفل، ومن الأمور العجيبة أن هذه الزهور تنسب إلى الهند لكن ليست لها شهرة هنا..

العالم عنده كل حكايتنا ونحن لا شيء عندنا .

(يبدل)

وهذه الوردة تدخل في قسم النباتات، وتتطلب تدخلًا خارجيًا من أجل التلقيح، وقد أخذت الفطرة هذه المهمة على عاتقها من خلال هبوب الرياح أحيانًا، ومن خلال جلوس الفراشات والذباب عليها، ونجد أن جانب الرجولة في هذه الوردة لا علاقة له بجانب الأنوثة وأن مادة التلقيح لن تصل من مكان إلى آخر ما لم تحملها يد خارجية ولا يمكن أن يؤدي التلقيح دوره، وأن الورود تثمر عندما تجد هذه المساعدة الخارجية، وتتخلى عن بذورها التي لا تجد المساعدة فتصبح عقيمة وعاقراً وتموت دون تكوين البذور، وهناك مجموعة من الفراشات تصل في الوقت المناسب من أجل تلك الشجيرات وهكذا نجد أكثر الزهور لها ثمار.

حسنًا لقد كان ذكر تنسيق الروضة هذه جملة اعتراضية وقد أسهنا فيها إلى هذا الحد دون قصد، والآن يجب العودة إلى الحكاية الأصلية، ففي شهر فبراير استمر موسم الارتفاع والانخفاض بمجيء السحب والعواصف وانحسارها؛ وما أن وصل هذا الشهر إلى نهايته حتى جاء فصل الربيع ونصب خيمته - أي بدأت أنسام الهواء المعتدل، ثم رأيتها في يوم من الأيام تهب بهدوء وتتهادى، وكان الربيع نفسه موجودًا أيضًا وبدأ شباب الروضة إقامة مهرجان للترحيب به..

ستنثر أنفاس الصبا عبر المسك والطيب،

فيصبح العالم العجوز غض الإهاب نضير الشباب .

(حافظ)

وبعد أن خرجت خارج الغرفة؛ رأيت زوجا من البلابل جالسا بين جموع
أزهار الخطمي المفتحة، ويعزف لحنه ويرفع منقاره، فتذكرت تلقائيا غزلية حافظ
الشيرازي:

وعلا صفير الطائر: أين إبريق الخمر؟
ووقعت صرخة من البلبل: من مزق نقاب الزهرة؟

(حافظ)

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة لم تكن باردة لأنها تقع على منطقة مرتفعة؛ ولهذا لا
تخلو من البلابل الجبلية، وهذه البلابل على الرغم من أنها لا تحكي ألف قصة مثل بلابل
إيران لكن لها أنغاما جميلة لا تقل عنها، وكان قد بقي فنجان أخير من شاي الظهيرة
الذي أحسبه بعد القبلولة فهضت كي أستمع إلى نغمة العندليب هذه:
فتناول الشراب على نغمات الصنج وخذ طريقك إلى الصحراء
فإن الطائر الغريد أخذ يغرد لحنًا طيب الأنغام .

(حافظ)

وفي اليوم الثاني؛ كنت أجلس عند شروق الصبح، فإذا بصوت ألحان البلبل
ترتفع مرة أخرى، فلفت انتباه أحد الأصدقاء ليستمع إلى صوت البلبل، وكان
صديق آخر يقوم بعمل ما في الغناء فتوقف قليلا وألقى إلى البلبل السمع؛ ثم قال: نعم
هناك عربة نقل تسير في القلعة، وينبعث صوت من عجلائها، سبحانه الله انظر إلى دقة
تميز ذوق السماع فإنك لا تشعر هنا بأي فرق بين نغمات البلبل وأصوات عجلائ عربة
النقل..

وقل لطير هما: "لا تلق بظلالك الشريفة"
على الديار التي تقل فيها البغاء عن الغراب الأسحم .

(حافظ)

لقد أنصفنا الله، فلو أن مثل هاتين الأذنين أقفل عليهما قفص لاستمعت إحداها إلى
نغمات البلبل، والأخرى إلى أصوات عجلات عربة النقل، فأين أنت من هذا؟

ويا أيتها الوردة كيف تستطيعين غناء البلبل من أجلك

وأنت تستمعين إلى الطيور التي تتحدث بفارغ القول وتنصتين لها بأذنك وعقلك .

(حافظ)

والحقيقة هي أن كل دولة ينشأ لديها ذوق غريزي خاص في الطباع والأمزجة
والبيئة والمحيطه بها، ولهذا فالذوق الغريزي العام في الهند لا يعرف أنغام البلبل، لأن
بيئة الهند تمتلأ بأصوات عديدة أخرى، فالطيور المشهورة هنا هي البيغاء والحجلة؛
وتعد أجنتها التي تطير بها من عجائب الدنيا..

وجميع بيغاوات الهند تلتقط فتات السكر

من هذا القند الفارسي الذي يذهب إلى بنغاله .

إن فن الشعر هنا في الهند يعرف أصوات اليمامة بدلاً من البلبل، ولا شك في
أن ألحانها العذبة لا تقل إحساساً عن صيحات الغم والألم للقلوب التي تعرف
الحزن، إن ذوق ألحان البلبل تأتي من نصيب إيران، وهي لا توجد في الحديقة
والصحراء في فصل الربيع فحسب، بل وتجابو صدى ألحانها في الحدائق المنزلية
لكل بيت، وينام الأطفال على الأراجيح بمجرد سماع ترانيمها؛ وتشير الأمهات إلى
البلبل وتخبر أطفالها: انظروا هذا هو البلبل الذي أسمعتكم قصته، إن سحر الفطرة
هذا يزداد بهذا القدر من الجنوب ناحية الشمال ويكون أكثر عمومية وعمقا.

والحقيقة هي أنه ما دام المرء لم يتنزه في روضات ورود شیراز أو قزوین؛ فإنه لا
يمكن أن يدرك من أي عالم يتقطر هذا الشعر على لسان حافظ شیرازی؟

ليلة أمس أخذ البلبل في صيحات بهلوية

يتغنى من بين غصون الورد بدرس المقامات المعنوية

فقال: تعال، فقد أظهر الورد صورة من نار موسى

فأسرع واستمع إلى نكتة التوحيد من هذه الشجرة البرية

وطيور الحديقة يزنون القوافي ويتندرون بأطيب الأقوال

حتى يحتسى "السيد" شرابه على أنغام الغزليات البهلوية .

وليست هناك مبالغة عندما قال إن طيور الحديقة يزنون القوافي، والحكاية أنني سمعت بنفسي في حدائق إيران ومنتزهاتها إلى الآلاف ممن يزنون القوافي وتتغير عندما تتوقف، وتنتهي عندما تهبط، ومن يستمع إليها يشعر بالتوازن والتجانس وبأن قوافي أشعارها مضبوطة، وإذا استمعت لساعات إليها لا ينكسر تسلسل هذه القوافي، وعندما ينكسر الصوت تنكسر القوافي.

والحقيقة هي أن نغمات البلبل أغنية ملائكية لفردوس الربيع، والبلد الذي يحرم من هذه الجنة يحرم أيضاً من ذوق الأغنية، فهل تعلم البلاد الحارة هذا العالم؟ وعندما يبدأ الفصل شتاء يولى وجهه بعد تساقط الثلوج وتساقط أوراق الأشجار ويخيم الربيع على الحدائق والصحراء بكل ما لديه من فتنة خلابة وجمال، في ذلك الوقت تبدأ الدنيا فجأة بالإحساس بالتجمد والانكماش من ظلم الثلوج، ويظهر عالم جديد من نشاط الحياة بدلاً من كآبة الموت وذبوله، وينظر الإنسان داخل جسمه، فيترأى له دماء الحياة الجديدة تتدفق وتغور في كل عرق من عروقه، ينظر خارجه فيرى كل ذرة من ذرات البيئة المحيطة به ترقص وهي سكرى من السعادة والسرور، وكل شيء في السماوات والأرض وكان حتى الأمس في حالة حداد المحرومين، وفاجعة المكتبيين قد فتحوا أعينهم اليوم وأرهفوا السمع إلى دلال الحسن، فكانت النعمة مربية للروح وتشم أريج الفواح في كل مكان :

لقد أقبل نسيم الصبا يحمل التهئة لشيخ الحان
بأن موسم الطرب والصفاء والصفو والهناء قد أقبل وحن
وأن الهواة أصبح مسيحي الأنفاس وأن النسيم غدا معطر بالأريج
وأن الأشجار قد خضرت وأن الأطيوار أخذت تغرد بالغناء الهيج
وأن نسيم الربيع قد أشغلت تنورها في شقائق النعمان
وأن البرعمة غرقت في مائها ونداها وأخذت الورد في الإتقان والغليان .

(حافظ)^(١)

وتبدأ نغمات البلبل في حالة سكر في تلك العوالم الثملة وهى في حالة غليان،
ويبدأ غناء هذه الأغنية من أغاني اللجنة بهذا الوله والذهول وإنكار الذات، ويتضح أنه
نفسه بدأ عزف الأنغام على أوتار لحن الفطرة، وتبدأ المشاعر الإنسانية في ذلك الوقت
إثارة الفجيج والصدى، ومن المستحيل معرفة التعبير عنها بالصوت والحرف، ولعل
الشاعر مضطرب في البداية عند تصوير هذا العالم، وعندما لا يستطيع تصويره فإنه
يصوره نفسه مرة ثانية وهو واقف أولاً على ساحل هذا البحر وينظر إلى اللحن واللون
والرائحة، ثم يقفز ويجعل من حياته نفسها موجة فيه ..

تعال حتى نثر على وجهك الورد والزهر، وحتى نصب في كأسك
الشراب والخمر

وتعال حتى نحطم فلك الجوزاء ونبنى في مكانه بناء مجدداً آخر
وقد تمهأت لك أيها المطرب قيثاره فاضرب عليها لحن طيب الأنغام
حتى نرقص ونغنى ونطوح بالرؤوس .. نضرب بالأكف والأقدام

(حافظ)^(٢)

(١) الشواربي، إبراهيم أمين، ديوان حافظ الشيرازي، ص: ١١٥. (المترجم)

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٦١. (المترجم)

وفي الهند مكان مثل هذا المكان في كشمير فقط؛ حيث يمكن رؤية تجلي هذا العالم ولها مكان فيض يقول:

إن قوافل الشوق الألف تتحرك منذ الصباح الباكر؛

حتى تنشر خيرات العيش في منطقة كشمير .

(فيض)

لكن للأسف إن الناس مشتاقون لتناول الفاكهة، وليس لديهم الشوق لرؤية جنة عالم الرب، وسوف يذهبون إلى كشمير ولن يكون هناك فصل الربيع، وبأتي فصل الفاكهة بعد فصل المطر، وليس معلومًا في كل أمر من أمور الدنيا لماذا تكون محبة للطعام إلى هذا الحد، لقد منحت الروح للإنسان مع المعدة وقلب وعقل أيضًا.

وفي جبال الهند يمكن سماع ترنم البلبل الجبلي أكثر في "نيني تال" و"كان جرا"؛ ولم يكن يستطع أن يولد هذه الجاذبية الكافية له في البيئة الصخرية لمسوري وشملة.

وتوجد في الهند أربعة أنواع من البلابل بشكل عام، وأعذبها صوتًا ذلك النوع الذي تحتوي وجنتيه على نقوش بيضاء؛ ولهذا يسمى باسم "White cheeked" في تقسيم التاريخ الطبيعي المعاصر، وعلى الرغم من أن "شامكو" لم يعرف البلبل بشكل عام لكنه أراد تصوير البلبل البري، وتوجد أنواع عديدة منه في البنجاب الولاية الشمالية.

وشاهدت حتى هذا الوقت هنا ثلاثة أزواج من البلابل، وثلاثتها من الأنواع الجبلية العادية، التي يطلق عليها في اللغة الإنجليزية اسم **White Whiskered**، أحدها بينى عشه مداد الزهور ويظل صامتًا تمامًا قبل الظهر، ولأنني بعد أن أتمدد لبعض الوقت أنهض وأجلس للكتابة تبدأ ألحان البلبل معي وكأنه يعلم أن أصوات الطيور تفتح لفافة جروح قلبي وكبدتي، ولهذا يبدأ في الأنين والصياح المتواصل وحالتي هي نفس حالة أحد شعراء العرب الذي أشد:

ومما شجاني أنني كنت نائما
إلى أننى رعت ورقاء من غصن أيكّة
فلو قبل مبكاها بكيّت صباة
ولكن بت قبلي فهيج لي البكاء

أعلل من برد بطيب التنسم
تفرد مبكاها بحسن الترئم
بسعدي لشفيت النفس قبل التندم
بكاهها فقلت الفضل للمتقدم (عدى بن الرفاع).

أبو الكلام

خطاب - ١٨

قصة الطيور

قلعة أحمد نجر

١٧ مارس سنة ١٩٤٣م

صديقي المكرم

إننا نحكي كثيراً من القصص في الحياة، والحياة نفسها مثلها مثل قصة:
إن ســـــيرتي اليـــــوم ســـــيؤلف منها القصص غداً
(أمير)

تعالوا اليوم لأقص عليكم قصة الطيور:
واصغ إليها كما أصغيت إلى غيرها من قصص عجاب .

(الفردوسي)

إن الغرفة التي نعيش فيها هنا نموذج لعمارة القرن الماضي، فالسقف مبنى من
أعمدة خشبية وضعوا محاريب تتكأ عليها الأعمدة؛ ونتيجة لهذا ظهرت أركان
طبيعية لبناء الأعشاش في كل مكان وصارت مستوطنات للعصافير، وتظل معركتها
محمّدة طوال اليوم، ولأن منطقة (بالى كنج) في كلكتا مفتوحة وتغص بالأشجار لهذا
توجد هناك أماكن للأروقة والظلل تهجم عليها دائماً أسراب العصافير وتعيش فيها،
وقد تذكرت خراب المنزل بعد أن رأيت الخراب هنا:

لو تعيش في البيت لصار محلاً أخضر يا غالب
نحن في الصحراء، ويحل الربيع في المنزل .

(غالب)

وعندما جئنا إلى هنا في أغسطس من العام الماضي كانت مؤامرات أعشاش تلك العصافير قد جعلتني مضطرباً جداً، وقد وضعت منضدة في مقابل الجهة الشرقية للحجرة، ولا أعلم منذ متى تم بناء أحد الأعشاش القديمة فوقها تماماً، وطوال اليوم تنتقى أعواد القش وتحملها في الفناء وتريد فرشها في العش وكانت الفضلات والقمامة تسقط على المنضدة، وقد وضعت هنا إبريقاً مليئاً بالماء، وهناك بدأت أمطار من أعواد التبن، وكان في الناحية الغربية سرير مثبت بجوار الحائط وكان فوقه عمل مستمر على قدم وساق من أجل بناء أعشاش جديدة، وكان ضجيج تلك الأبنية الجديدة قد جعلني أكثر تعباً وإرهاقاً، إن تلك العصافير التي رزقت منقاراً صغيراً ولا يزيد جسمها على قبضة لكنها تجد في هذا البلاء حماس السعى والطلب، وأنها في خلال عدة دقائق تتأذى في حفر مقدار شبر وتنظفه، وللفيلسوف أرشميدس مقولة شهيرة هي: امنحوني الوقوف في الفضاء (العراء) وأنا سأمحو الكرة الأرضية من مكانها، وقد رأيت جهود تلك العصافير مصداقاً لهذه المقولة، فهي تنقر الحائط بالمنقار أولاً وتبنى لها مكاناً وتقوم بهذا العمل اعتماداً على قبضتها، وبعد أن تثبتة بقبضتها تبدأ في تشغيل معول منقارها، وتشغل هذا المنقار بقوة لدرجة أنها تهتز وترتعد بعد أن ينكمش كل جسمها ويتقلص، وإذا نظرت إليها بعد فترة قصيرة قد أنجزت بعد جهد جهيد عدة بوصات، ولأن البناء قديم لهذا لم يكن معروفاً كم طبقة من الجير والرمال فيها، فتصعد على الحائط فتجد طبقة سميكة من مواد البناء وعندما تسقط غملاً الغرفة بأسرها بالغبار والتراب، وعندما تشاهد الملابس تجدد الغبار قد تمكن منها.

وكان علاج هذه المصيبة سهلاً، يعني أن يرمم البناء من جديد ويغلق جميع الأعشاش، ولكن الترميم لم يكن ممكناً دون استدعاء المرمم ولا يمكن لأحد من الخارج أن يدخل هنا، وكان صنوبر الماء قد كسر عندما وصلنا هنا، وكان أي سباك

عادي يمكنه إصلاحه، لكن لم يكن إصلاحه ممكناً ولا أن يأتي السباك ما لم يحصل على تصريح من رئيس مهندسي الجيش الإنجليزي، وقد تحملت وصبرت لعدة أيام، لكن التحمل أجبني بوضوح وقرر أنه لا حيلة بغير القتال..

فأنا والدبوس والميدان وأفراسيات

(الفردوسي)

وقد جئت بمظلة هنا من بين أمتعتي فرفعتها وأعلنت الحرب، ولكنني أدركت بعد فترة وجيزة أنني مع قصر ذات اليد لا قبل لي بمحاربة أعداء السقف والمحارب، وأصبحت في حيرة من أمري وأنا أرى المظلة لا تصل لهم أبداً، وأعشاش الأعداء عالية.. عندئذ تذكرت بيت حافظ تلقائياً:

إن خيال قوامك المشوق يملأ قلبي

انظر إلى يدي القصيرة وكمي الطويل .

(حافظ)

والآن عليّ البحث عن سلاح آخر، وقد وجدت في الرواق (الظلة) قصبة طويلة كانت تستعمل لتنظيف العنكبوت فأسرعت إليها وحملتها، والآن لا أسأل أحداً عمن أقوى في حومة الوغى وفي ميدان القتال، وكان العدو يطوف في أركان الغرفة الأربعة وأنا أحمل القصبة وأهرع خلفه هائماً على وجهي؛ ويتردد على لساني تلقائياً رجز نظام الفردوسي:

بالخنجر أجعل الأرض بستان الدم

وبالرمح أجعل الجو محيط العدم

(الفردوسي)

وقد سيطرت في النهاية على الميدان، وبعد فترة وجيزة نظفت الحجرة تماما من أعداء السقف والميدان ..

وإلى أين وصلت بحملة واحدة
وكم المتمردين الذين أطحت برءوسهم .

(الفردوسي)

ألقيت الآن نظرة على انتصاراتي على جميع زوايا السطح وانصرفت إلى الكتابة وأنا مطمئن البال، لكن لم تنقض الآن خمس عشرة دقيقة كاملة فإذا بي أستمع إلى الأعداء ترجز وتنبعث أصواتها في الهواء مرة ثانية؛ فرفعت رأسي ورأيت أن جميع زوايا السقف في حوزتها فنهضت على الفور وحملت القصبه وبدأت معركة حامية الوطيس.

وسأدمر كل جيشه
وأحرق كل بلاده بالنار

(نظامي)

وفي هذه المرة أبدى الأعداء جهودا منقطع النظير، فكانت إذا اضطرت إلى ترك زاوية فإنها كانت تقاوم في الأخرى، لكنها في النهاية أدبرت من ميدان القتال، وهربت من الغرفة وجاءت إلى الرواق (الظلة) وأعادت إرساء قواعدھا وتنظيم جيشهم من جديد، وقد تعقبتها هناك أيضًا ولم أترك السلاح من يدي لأن الميدان لم يكن صفوا من الحدود حتى مسافة بعيدة.

والآن تشتت شمل جيش الأعداء ولكن التفكير ما زال قائمًا وأن تتجمع مرة ثانية في مكان ما تولى وجوهها من المعركة، وكُنْتُ قد علمت من التجربة أن الخوف من الرمح قد سيطر وتغلب تمامًا على الأعداء، وكنت كلما انجهمت إلى ناحية كنت أراها تزداد فرارا ولهذا فإنني قررت أن أظل مقيمًا في الغرفة لفترة من الوقت؛ حتى لا تتجرأ شرذم الأعداء للتوجه إلى هنا فتضطر إلى الهروب وتنكص على أعقابها بعد رؤية

الرمح الشامخ.. وهكذا أدت هذا مع جميع الأعشاش القديمة التي كانت فوق منضدة حوض الغسيل، وقد جعلت القصبة واقفة مشرعة هكذا وكان رأسها يصل عند فتحة باب الأعشاش تماما، الآن مع أنني كنت أفكر في المستقبل لكن مع هذا كانت نفسي مطمئنة؛ لأنني من جانبي لم أقصر في شيء من عتاد المعركة، وبيت شعر مير هذا يتردد على الألسنة، ومع أن فيه انتهاكا كبيرا لكن المناسبة تقتضي عدم الماطلة والتسريف:

يا مير إن النصر والهزيمة حظوظ ولكن، ما أجمل محاربة القلب العاجز

(مير)

والساعة الآن الحادية عشرة فتوجهت لتناول الطعام ورجعت بعد فترة وجيزة، وما أن وضعت أقدامي في الغرفة حتى رأيت أن الأعداء استولوا على الغرفة كلها مرة ثانية وأنا مشغول بأعمالي بهذا الفراغ والاطمئنان وكأنه لم يقع أي حادثة وقد تفاقم الأمر لأنني كنت معتمداً على هيبة السلاح إلى هذا الحد، وقد أثبت الأعداء أنفسهم أنهم يبحثون عن سلاح جديد، فكانت رأس القصبة التي تلتصق تماما بالأعشاش فبدءوا يستعملونها الآن كدهليز للذهاب إلى الأعشاش ويجمعون أعواد القش والتبن ويفرشون جميع الأعشاش باطمئنان ويجلسون على الدهليز المبنى حديثا، ويغردون إلى جانب هذا، وليس عجيبا أن يتغنوا بهذا المصراع:

وسيصبح العدو سبب الخير إذا أراد الله

(سعدي)

وبعد أن رأيت عاقبة انتصاراتي المثيرة للحسرة أجابتنني عزيمتي تلقائيا، واتضح لي جيدا أنه من السهل أن تجعل العدو عاجزا بضع لمحات، لكن من الصعب مراجعة حماسة، والآن لم يبق لي عمل أي حيلة سوى الاعتراف بالهزيمة في هذا الميدان.

هلم فقد ألقينا دروعنا واستسلمنا لك في الحرب

(سعدي)

وأفكر الآن في أنني يجب أن أختار هذا النهج؛ وهو أنني من الممكن العيش في منزل واحد مع هؤلاء الضيوف الآمنين، فكانت مسألة السرير أولى المسائل التي واجهتني وكانت من آثار ضرر الأبنية الجديد كلياً، وكان ذلك القدر من القمامة والأتربة التي نتجت عن أعمال الأبنية الجديدة، وسقوط الأبنية القديمة قد سطت كلها على السرير لهذا أزحته قليلاً عن الحائط حتى لا يتضرر مباشرة، وقد أفسد هذا التغير الغرفة بالضرورة ولكن كان هذا هو العلاج الآن، فعندما لا يظل بيتي نفسه في حوزتهم كنت أستطيع التفكير في تزيين شكله وترتيبه، ولا غرو فإن مسألة المنضدة التي كانت على الحوض لم تكن سهلة إلى هذا الحد؛ لأن الزاوية التي كانت قد أوضعت فيها قد أعدت في هذا المكان من أجلها فقط، وكانت لا تتحمل نقلها قليلاً هنا أو هناك؛ فاضطرت إلى هذا الترتيب بأن أطلب الكثير من مكاس من السوق، وأن أضع مكنسة على كل شيء في حوض الغسيل، وبعد فترة وجيزة حملتها وكنست بها ثم وضعتها مرة ثانية ووضعت إحدى المكاس لأجل هذا الغرض وهو أن تظل باستمرار لتنظيف سطح المنضدة، وكانت مسألة تنظيف السجاد أكثر المسائل صعوبة لكنها حلت بأي شكل من الأشكال، وقد قررت أنه يجب كنس الغرفة مراراً علاوة على النظافة العادية في الصباح، وقد طلبت مكنسة جديدة أخفيتها وراء الدولاب، وقد دعتني الحاجة إلى استعمالها مرتين في اليوم وأحياناً ثلاث مرات أو أكثر من هذا، وقد أعطى هنا كل سجين نظافة ما خلف حجرتين، ومن الطبيعي أنه كان لا يستطيع البقاء واقفاً من أجل الكنس كل وقت، ولو استطاع البقاء لكان قد وضع هذا العبء عليه خلافاً للعدل، وقد اخترت هذه الطريقة حيث أحمل المكنسة بنفسني وأتخاشى أنظار الجيران وأكنس بسرعة عدة مرات، وقد بلغ التواضع إلى درجة الكنس من أجل خاطر هؤلاء الضيوف الأمناء:

لقد فعل العشق أكثر من هذا وما زال يفعل .

(دانش)

و ذات يوم فكرت في أنه ما دام قد تم الصلح؛ فإنه يجب أن يكون الصلح كاملاً، وليس من المروءة بشيء أن نعيش في بيت واحد ونظل مثل الأغراب، فطلبت من المطبخ قليلاً من الأرز غير المطهى، وجلست على الأريكة وبعثرت بعض حبات الأرز على البساط أمامي، ومن ثم جلست على حذر مثل صياد يجلس بعد أن نصب شباكه، فانظر إلى أي مدى ينطبق بيت شعر عرفي على هذه الحالة:

القيت المصيدة على العصفور وأنا سعيد بتلك التهمة

وهي أنه لو وقع في المصيدة ثلاثون طائرًا كنت سأطلقها .

(عرفي)

لم يهتم الضيوف بهذه الفترة من الوقت، وإذا اهتم فإنه لا يتقدم بطريقة نظرة خاطئة ولكن يتضح بطريقة جديدة أن المحبين يغفلون عن احترام الظلم، وهذا التغافل أيضًا هو حجاب عبادة الجمال، وإلا كان البساط أزرق اللون قد امتلأ باللون الأبيض ولم تكن جاذبية الحبوب على ما يرام فلم تمارس العمل ..

تتجلى الجنة والخور للزاهد في طريق الحبيب

والعشق يأتي بالغريب على الطريق شيئًا فشيئًا

(نظري)

جاء عصفور أولاً وأخذ يقفز هنا وهناك، وكان مشغولاً في الظاهر بالشقشقة ولكن أنظاره على الحبوب، وما أجمل ما قاله وحشي اليزدي:

أي لطف في هذا الأسلوب الخفي

ولا بيان لتلك العناية التي لك .

(وحشي اليزدي)

ثم جاء العصفور الثانى والتقى العصفور الأول، وأخذا يطوفان حول البساط ثم وصل الثالث والرابع، فكانت أحياناً تلقى بنظرها على الحبوب أحياناً على واضع الحبوب، وأحياناً يتضح أنه كان هناك تشاور فيما بينها، ويتضح أحياناً أخرى أن كل فرد غارق في التفكير والتدبر، ولعل حضرتك قد أمعنت النظر في أن العصفور عندما ينظر بعينه بتفحص ويبحث تعلو وجهه نظرة عجيبة ووقورة؛ فهو أولاً يرفع رقبته أمامه ثم يبدأ النظر يميناً ويساراً بعد أن يدير رقبته، وأحياناً يلوى رقبته ويرفع نظره إلى أعلى ويظهر عليه أسلوب الاستفهام وتفحص الوجوه، مثل إنسان يلقي نظراته المتعجبة في كل مكان ويقول لنفسه ما الأمر في النهاية، وماذا يحدث؟ وفي ذلك الوقت أيضاً كانت تظهر على وجهه مثل هذه النظرات المتفحصة..

إن قدمي لن تغادر ناصية هذا الحي
فأخبروني أيها الرفاق من هو مظهر التجلي هذا .

(نظري)

ثم بدأت الأقدام تتقدم تدريجياً وبيطء بعد فترة وجيزة من الوقت؛ لكنها لم تكن تميل ناحية الحبوب بل تنحني وترتفع وتتجنبها، وكأنها كانت تعرض هذا الأمر ولا سمح الله لن تتقدم ناحية الحبوب، وبعد أن شاهدت هذا العرض - الكذب يشبه الصدق، تذكرت بيت الشعر هذا الظهورى تلقائياً:

قل حديث الوفاء، قله من داخلك بصدق

فأنا فداء الكذب الذي يشبه الصدق .

(ظهوري)

وأنت تعلم أنه في موقع الصيد يكون هناك صيادون كثير يراقبون الصيد، فعندما تتقدم أقدامهم نحو الحبوب فإنني أتمسح الفخ وأشيح بناظري إلى الناحية الأخرى، وأجعل جسمي كله بلا شعور وبلا حركة مثل حجر كأنه تمثال حجري لراهد بدلا من إنسان، لأنني كنت أعلم أنه لو اضطربت نظرة الشوق فإنهم يتعجلون ويهرولون عند فخ الصيد، وكان هذا الأمر أولى مراحل شئون دلال الحسن وغنج العشق:

نظرت إلى وجهه في الخفاء دون أن يدري
ولما وجه نظره إليّ شعرت بالخجل .

(أشرف قزويني)

حسنًا أفقد طوت العصافير المراحل الأولى لدلال هذا التغافل، وولى هذا
الصنم الساخر وجهه شطر الحبوب في صراحة، لكن هذه الوجهة أيضًا يا لها من
وجهة القيامة فقد كان ألف بتجاهل يسير أمامها وقد جلست بلا حس ولا حركة
أقول من أعماق قلبي:

في كل مكان يتباهى ويتدلل ولا يحتاج للرفيق الأقل
أنت والتبختر ومئة تغافل، أنا ونظرة ومئة أمنية .

(يبدل)

كانت العصافير تتقدم خطوة وتراجع خطوتين، وكنت أقول من شغاف
قلبي: ما أجمل هذا الامتزاج بين الالتفات والتغافل، يا ليتني أتمكن من إحداث تبديل
طفيف فيها، فتتقدم خطوتين وتراجع خطوة، وما أجمل ما قاله الغالب:

إن الهجر والوصال لكل منهما لذة على حدة

ارحل ألف مرة وتعال مئة ألف مرة

(غالب)

كان التفات أولئك المتدللون وتغافلهم يظهر الآن بتجلي، وفجأة كان هناك
أحد العصافير الأقوياء قد تميز عن بقية أوساط العصافير من حيث جرأته المتحررة
وصوفيته وفقره الفاقد للوعى، سأم من سلسلة العمل الطويلة هذه وتقدم بجرأة بلا
خوف وعلى لسان حاله هذه النعرة السكرى، وانقض على الحبوب مرة واحدة:

ولقد ضربنا في صفوف المعريدين وليكن ما يكون .

(حافظ)

كان العصفور قد خطا خطوة فاتضح له أن جميع قيود الأقدام المكبلة قد انفتحت فجأة، ولم يعد هناك أي تلكؤ وهيبة في قدم، ولا تردد وشك في أي نظرة وانقضت جموع العصافير على الحبوب مرة واحدة، ولو استعير التعبير الإنجليزي فإنه يمكن القول إن كل ثلوج الحجاب والتأمل قد تحطمت فجأة، أو نقول إنها قد ذابت، وعليك بتمعن النظر فستجد أن كل خطوة قدم في زاوية هذا المعمل ظلت تنتظر دائما هذه الخطوة نفسها؛ وما دامت لم تتقدم فستظل جميع الأقدام راسخة في الأرض، فإذا خطت فكأن الدنيا بأسرها قد خطت فجأة..

بين الخسة والرجولة قدم واحدة

(سعدي)

إن كأس العمل بالمكسب والخسارة في هذا المحفل لا تملاً أبداً من أجل أصحاب الأيدي القصيرة؛ فهي دائما تكون من نصيب الذين يتجرأون ويحملونها ويسمون بها، وما أجهل هذا البيت الذي أنشده شاد عظيم آبادي - رحمه الله:

هذا محفل خمر وهو محرم على أصحاب الأيد القصيرة

الذين يحملون الكأس بأيديهم ويسموا به

أن هذه الأقدام الجريئة لهذا العصفور قد وقعت موقعا محببا من القلب، وقد عقد القلب العزم منذ ذلك الوقت على أنه يجب أن يتقدم على خطى هذا البطل المغوار، وقد سميت الصوفي الفقير لأنه فاقد الوعي ومتحرر، وكان يلتقي معه بشكل خاص من التدلل وكان وضعه الصوفي الفقير يمنحه الرونق والبرق..

يظل الاعوجاج مع فقد الوحي جميلا

فأكثر من هدوء أداء الحاجب مائل القلنسوة

(داغ)

ظل خاطرها في تواضع هكذا لمدة يومين أو ثلاثة، وأنا أضع الحبوب على البساط مرتين أو ثلاثة كل يوم، فكانت العصافير تأتي إليها الواحدة تلو الأخرى

وتلتقط الحبوب حبة حبة، وكنت أحياناً أتأخر في وضع الحبوب فيأتي الصوفي الدرويش ويبدأ في الشقشقة لأن الوقت المعهود قد فات ومضي، والآن فقد اطمئننت على هذا الوضع؛ لأن ستر الحجاب قد تمزق وانكشفت، ولم يكن بعيداً في ذلك الوقت فكان يتلکأ في الخروج بفضلات الطعام.

ستكشف بعد عدة مرات من التلاقي

(أن شاء)

وبعد بضعة أيام تقدمت خطوة أخرى في هذا الأمر؛ حيث أخذت غطاء علبة سجائر فارغة وضعت فيها حبات الأرز، ووضعت الغطاء على ركن من أركان البساط؛ فوقع أنظار الضيوف عليه على الفور وجاء أحدها عند الغطاء وأخذ ينقره بمنقاره، وأحدها يصعد على حافة العلبة، بينما الجموع الحاشدة مشغولة في التقاط الحب وظلت المناقشة فيما بينها على أشدها، وعندما رأيت أن طبائع العصفير قد تعرفت على طريقة الضيافة هذه فإنني في اليوم الثاني أزحت الغطاء من على ركن البساط، ثم أزحته في اليوم الثالث أكثر ووضعت أمامي تماماً، هكذا ظل هذا الأمر يزداد من البعد إلى ناحية القرب بالتدريج، وقد تذكرت مطلع عالية بنت المهدي عندما رأيت معاملة البعد والقرب هذه:

وحجب، فإن الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

وقد تأمل الضيوف أولاً بعد رؤية هذا الحد مكان القرب، فجاءوا عند البساط لكن كانت أقدامها تتلکأ وكانت أنظارها مترددة ولكن تصاعدت تغريدة الصوفي إلى هذا الحد من صوفيته، فزال التلكؤ عن الجميع بعد أن رأت هذه الجرأة المتحررة، وكان الصوفي القلندر مرشدها في هذا الطريق، فحيثما يخطو خطوة بخطوها الجميع، فهو ينقر الحبوب بمنقاره ثم يرفع رأسه وترنم بلسان حال نغمة صده:

وما الدهر إلا من دواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً .

(المتنبي)

وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد خطوات خطوة أخرى وحملت وعاء الحبوب من على البساط ووضعت على المنضدة، وهذه المنضدة ملصقة بالأريكة من ناحية اليسار وقد أضرت بيدي بشكل كامل، وبدأت التأخر بعض الوقت في النعور على تغييرها، وكانت تأتي مرارًا وحومت حول المنضدة، وفي النهاية يخطو الصوفي أولى خطواته أيضًا، وكان يتقدمها وكان هذا المنزل يفتح مثله مثل كل المنازل الأخرى السابقة، وصارت المنضدة الآن إيوان الطرب لمجلس زيتها أحيانًا، وأحيانًا أخرى ساحة لمعاركها وصراعاتها.

وعندما اعتادت التقرب إلى هذا الحد؛ فكرت في أنه يمكن أن نتقدم خطوة أخرى في هذه المسألة، ففي صباح ذات يوم وضعت وعاء الأرز بجواري تمامًا على الأريكة وانشغلت هكذا في الكتابة، كان هذا الأمر لا يعينني في شيء.

قلبي وروحي بك مشغولان وانظر حواليك

حتى لا يعرف الرقباء أنك منظوري^(١).

(سعدي)

ماذا أسمع بعد فترة قصيرة من الوقت؟ وصلني صوت النقر بمنقار بقوة، ورأيت فتات الأرز فاتضح لي أن صديقنا الصوفي القديم قد وصل وظل ينقر بمنقاره بغير تنسيق، ولأن الغطاء كان بجواري تمامًا لهذا ظل ذيله على ركبتني، وبعد فترة وجيزة وصل أصدقاء آخرون وهم يسرون سيرًا حثيثًا وصاروا على هذا الحال؛ ففي كل وقت كانت هناك مجموعة من اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء تثب في حضني وتقفز تحت إبطي، أحيانًا يصعد على ظهر الأريكة، وأحيانًا تبدأ القفز وتقف الكتب، وأحيانًا تصعد من أسفل فتغرد ثم تعود أدراجها، هكذا كانت تقفز وتنظر عدة مرات بدون تكلف وبعد أن اعتبرت كتنفي أحد أغصان الأشجار أرادت أن تجعله هدفًا

(١) منصور، محمد علاء الدين: غزليات سعدي الشيرازي، ص: ٢٨٦. (المترجم)

لنشاطها وهوها ولكنها تنقلب على أعقابها بعد أن أنتبه وأفزع منها، أو تلامسه بمخالبتها وتصعد فوقه وكأنها قد تشجعت في التعامل مع هذه المسألة الآن وقد صور وحشى اليزدي هذه الصورة:

ما زال العشق وسلب القلوب لم يحدث بعد
ما زالت القوة ومعركة الرجال لم تحدث بعد
والحسن له نفس التواضع العام مع العشق
وما زال التوافق غير موجود بين التمتع والتضرع .

على كل حال تأكدت تلك الغزلان الهوائية أن الطعام دائمًا على الأريكة، وعندما تهذبت وتربت لم تكن خطيرة مثل البشر، انظر إلى سحر الحب الذي لم يستطع أن ينتصر على البشر، وسحر الطيور الجارحة..

لو كان درس الوفاء هو ترنيمة المحبة
لأحضر الطفل المذعور إلى المدرسة يوم الجمعة

(نظيري)

وقد تكرر هذا الأمر مرارًا، عندما أكون منهمكا في الكتابة ومنغمسا في أفكاري، وفي تلك الأثناء يرد على لسان القلم فكرة راسخة في الذهن أو عبارة ملائمة تتوارد بها فجأة بيت أو بيتين من الشعر المنعش، فأبدأ في هز رأسي وكتفي وأنا ذاهل عن نفسي بلا وعي، أو يخرج من فمي كلمة "نعم" أو استمع فجأة إلى صوت طيران الأجنحة بقوة، وما رأيته اليوم علمت أن هؤلاء الأصدقاء دون تكلف منه مجموعة جلست في حضني بلا تفكير وأنهمكت في القفز والوثب، وشاهدت فجأة أن هذا الحجر بدأ في الحركة فطارت بعد أن فزعت؛ وليس عجيبا أنني أقول من أعماق قلبي إن هناك حجرا جالسا على الأريكة لكنه أحيانا يبدو إنسانا .

أبو الكلام

خطاب - ١٩

قلعة أحمد نجر

١٨ مارس سنة ١٩٤٣م

صديقي المكرم

القصة التي بدأت أمس إلى أين تنتهي اليوم؟ فلتفضل الآن لأقص عليك جزءها الثاني (منطق الطير)، ولا أعلم هل تبدى استياء أم اشتياقا عندما تسمع إليها؟ ولكن عندما أتأمل طبيعتي أدرك أنني نسيت المعاناة تمامًا عند سرد هذه القصة، ويقدر ما تتضاعف القصص، بقدر ما يزداد الشوق لسرد القصة:

أحتاج إلى ليلة مباركة وقمر ساطع جميل
حتى أحكي معك في كل الموضوعات .

(علامة ناجبوري)

لقد انكشف نقاب الخوف والتردد الذي كان حائلاً بيني وبين أصدقاء السقف والمحاريب في أيام قليلة.

وكانت تلزمها عدة مراحل للنزول من السقف إلى الأرض، فاختارت هذا المسلك وجعلت من أجنحة المروحة المرحلة الأولى، وكانت رأسي وكتفي هما المرحلة الثانية، ودخلت إلى الغرفة طائرة من الخارج، واتجهت مباشرة إلى وكناتها، ثم أخرجت رءوسها منها لمراقبة جميع الجوانب، وتفقدت الغرفة بأسرها، ثم طارت من هناك ووصلت مباشرة إلى أجنحة المروحة، ثم قفزت من على هذه الأجنحة بأقدامها تارة على رأسي كقبة المنارة، وتارة أخرى على كتفي لجلوسها، وأنظر فأجد تلك العصافير قد ذكرتني دون قصد بشعر (مؤمن خان) بعد عدة سنوات:

لقد أضاع هدفه في التحليق أيها التراب إنها بشرى السعادة

لقد أفزعني نزولها المفاجئ في المرة الأولى، وأعترف خجلاً بأنني قد ارتجفت من الفزع، وبطبيعة الحال لم تروقها تلك الرجفة، ولكن كل ما حدث كان مجرد سهواً، ومن ثم تنبّهت على الفور، وبعدها فقد بقيت رأسي وكنتي بلا حراك، عندئذ بدأت تستخدم كسفرة بدلاً من قبة المنارة، وبعد النزول إلى المروحة، وصلت مباشرة إلى الأكتاف وأخذت تغرد للحظات، ثم تقفز وتصل إلى الأريكة بعد ذلك، وكم من مرة قفزت من على الأكتاف وجلست على الرأس أيضاً، وأنت تعلم أن الشاعر "أنثى قندهاري" كان قد شيد سفينة في عينيه، ونقل "بدايوني" شعره هذا:

بدونك صارت دموعي بحرًا شيئًا فشيئًا، فانظر وشاهد

تعال واجلس في سفينة عيني وتجوّل في البحر .

واعترض شاعرنا (سودا) على هذا التأمل:

أعطه العينين وافسح له مكاناً في مرآة الوجه

ففي هذا البيت كثير من البلب الذي يتقطر .

ولكن لسان. حالي احتاج إلى أن يستعير التماس الشيخ سعدي الشيرازي:

لو جلست على رأسي وعيني سأكون طوع هواك فأنت الحبيب الغالي .

(سعدي)

وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد فكرت: لما لا أقوم بتجربة جديدة؟ وفي صباح ذاك اليوم لم أصنع وعاء الحبوب لفترة قليلة، وحضر الضيوف (العصافير) مراراً، وعندما لم تر سفرة الضيافة بدأت تخلق هنا وهناك صارخة، وعندما أخرجت الوعاء وضعته على كنتي ووضعت كفي على الأريكة، وحالما وقع نظري (قلندر) عليها قفز

وبدأ يخلق في دائرة ثم وقف على إبهامي، وبدأ النقر على الجيوب بسرعة ضربات المنقار، وقد وقعت حبة تحت إصبعي فنقرها في الحال أيضاً، وماذا أقول عن شدة نقره، ولو لم أكن معتادا على جفاء الظالمين ما تأكدت من انطلاق الصرخات تلقائياً..

أنا قتييل غنج الأهداب التي ألفت الخنجر

على الكبد ولا علم للنظر بذلك

(وحشي)

رفعت كفي بالوعاء لأعلى الآن، وعلقتة في الهواء، ولم يكن قد مر وقت طويل حتى حضرت عصفورة أخرى - وستعرف فيما بعد أنني أسميتها موتى - وحلقت "موتي" فوق كفي مرة مرتين ثم طارت، كأنها تريد أن تتفقد أي مكان سيكون آمناً لها للنزول على هذه الجزيرة (كفي)، ثم جاءت مرة أخرى ونزلت على المرفق، واتجهت مباشرة إلى الرسخ، وبعد أن وصلت إلى حافة الكف، وباتت تمد منقارها بلا عناء، وإذا طارت منها أي حبة خارج الطبق، ينقض عليه المنقار كضربة السكين، ولتنتظر، فقد استبدلت بتركيب منقار "درازي" - أي الاعتداء بالمنقار، تركيب "دست دراзи" - أي الاعتداء باليد وأعرف أنه لا مجال لتغيير العبارات، ولكن ماذا أفعل؟ وقد اضطررت لمواجهة مثل هؤلاء الأصدقاء المشمرين الذين يتناولون باليد بدلاً من الفم ..

فانظر إلى هؤلاء الذين قصرت أكمهم وطال باعهم .

(حافظ)

ولكن أوقعنتي ممارسة هذه التجربة الأخيرة في فكر آخر، فقد خجلت من التعاطف مع هذا التساهل؛ لأنه مع وجود يدي أضيع فرصة مناقيرها الحادة كالسكين (بالنقر) على الغطاء الحديدي اليوم التالي، ووضعت حبات الأرز على كتفي، وبعد أن

بسّطت كفي وضعته على الأريكة، فكانت "موتي" أول من حطت فأخذت تنظر رافعة عنقها، لما لا ترى الغطاء اليوم؟ هي من أجل الطيور في هذه المنطقة، ففي الوقت الحاضر من تظهر حسننها وتبرز جمالها الفتان هي أكثر جمال البلاد، مثلاً ملكة جمال إنجلترا، وملكة جمال فرنسا تدعى "Mademoiselle" وكان وجو، البلاد بأسرها تتلألاً بإشراقه وجه فاتنة واحدة !

إنهم يفتخرون ويتباهون بجمالك

فلو مائة قبيلة فإنهم يتباهون بحُسن شخص واحد .

(نور جهان)

ولو طبقت هذه الطريقة على "موتي" أستطيع أن أطلق عليها لقب قلعة "أحمد نجر" .

هذه هي النظرة التي تستحق المشاهدة

(عرفي)

فهي نحيفة الجسم، طويلة العنق، مخروطية الذيل، ولديها براءة عجيبة في عينيها المستديرة، وعندما تأتي لالتقاط الحبوب تنظر ناحيتي في كل حبة وتعلمت ما تريد عيناها، وقد عبر الشاعر "وحشي الزيدى" عند تلك المعاني باستفاضة :

إذا كانت اللفتة سؤالاً فلا تغضبى أيتها الشفة

فلا لسان تمس حاجته إلى السؤال .

(وحشي يزدي)

وعلى كل حال؛ فقد تحدثت إلى عينيها البريئة في هذه المواقف أيضاً، ومن ثم قفزت بلا رهبة واقفة على جذع الإبهام، وبدأت النقر على الحبوب، ولم يكن هذا منقار، بل كان سن سكين، ولو أرادت لنفذ من الكف، لكن تكتفي بجرحه فقط..

إن شكة واحدة من قوس حاجبك لا تؤثر فيّ ،

فكل جرح منك يحتاج إلى جرح آخر .

(عرفي)

وفي كل مرة كانت تنحي عنقها وتنظر إلى، كأنها كانت تتساءل: ألا تتألم ؟
وكيف أجيبها : وقد غاب الوعي من لذة الألم ..
أى جواب لهذا الكلام وأنت تعلم أيضًا

(خسرو)

ولتقرأ هذا البيت لـ "مرزا صائب":

رميت نفسى على سن أهذاب أهل الظلم

فكان الجرح عميقًا لدرجة أن القلب لم يكن يريد الاقتراب من الخنجر .

(صائب)

واضطرت إلى هذا القدر من التصرف لكى يناسب مع العصفورة، حيث
استبدلت بـ "مزكان " أي الخد كلمة " منقار":

رميت نفسى على سن منقار أهل الظلم

فكان الجرح عميقًا لدرجة أن القلب لم يكن يريد الاقتراب من الخنجر .

لا أعلم حال الألم إلا أن كل ضربة منقار تنقرها، كانت تترك جرحًا غائرًا على
وجه اليد..

لقد وصل سن منقار " الهما " إلى العظام يا غالب
وذكرنى بعد عمر بما كان يفعله السهم .

(غالب)

ولو بصرف النظر عن عامة سكان هذه المنطقة، فيجدر ذكر خصائص بعض
الشخصيات المميزة، وكما تعرفت على "قلندر" و "موتى" فلتسمع الآن بإيجاز عن
حياة "ملا" و "صوفي"، هناك عصفور ضخم، قوي البنية ومشاغب، وحينما تراه تجده
مطلق اللسان بسرعة، رافعًا الرأس، متمردًا، ولا يترك من يأتي أمامه إلا ويصارع،

ولا مجال لأي عصفور من الجيران للدخول في هذا الحي، وحاول كثير جدا من المغارين ولكن كانوا مهزومين في المباراة قبل أن تبدأ، وكلما انعقد مجلس أصدقاء المدينة (عصافير المساكين)، نجده يحرك جسده وينظر يمينا ويسارا ويحضر على الفور ويصل إلى أي مكان مرتفع، ثم يبدأ عادته الخاصة بالصراخ بهذا التسلسل " صو ... صو .. صو " ويصور هذا المشهد كأنه واعظ للجامع " قا أي " :

دخل المسجد الجامع يوم أمس واعظ

كل ثيابه بيضاء كالثلج من الرأس إلى القدم

إحدى عينيه تتجه ناحية اليسار والأخرى ناحية اليمين

حتى يتلقى السلام من الغنى والفقير

كأنها يمشى على الحبل كلاعب الحبال

يتبختر بهدوء واتزان كأنها ووقار

وبينما لم يفرغ الناس من التشهد والتسليم

قفز كالقرد وجلس على المنبر

وبعد ذلك بالرأس والرقبة واللحية والشفاه والأنف

تشنى وتمايل كثيرا ثم بدأ في الكلام

فقل لي، لو لم أطلق عليه اسم "ملا" - (أي شيخ) - فماذا أطلق

عليه؟ وعصفور آخر على النقيض منه تماما، "لأن تعرف الأشياء بأضدادها" وعندما تراه تجده في حالة ساكنا صامتا..

فإن صاحب الخبر نفسه لا يعرف خبره .

(سعدي)

وكثيرا ما يصدر صوت "صو" خافتًا هامسًا أحيانًا، وهذا الصوت الخافت (صو..) لم يكن أسلوب محادثة، بل كان الرجل الذليل الذي اضطر إلى أن يعيش منزوبا، وأحيانًا يهر رأسه كأنه يقول "نعم" ..

رفعت صوت الأنين حتى تنتبه وتستيقظ ، وإلا

فإن العشق هو الشيء الذي يمارسونه بدون الآه والأنين .

(خسرو)

وتحاول العصافير الأخرى متابعتها، وكأنها أصبحت عاجزة من حديثه الخافت؛ ثم بعد ذلك لا ينطق لسانه أيضًا، والحقيقة إذا أمعنت النظر فيه، تستطيع أن تسمع صوت الصمت..

أعد النظر ؛ وإلا فإن التغافل هو النظر

تحدث بلغة مفهومة؛ وإلا فإن الصمت هو الكلام .

(وحشي)

وعندما رأيت هذا الحال أطلقت عليه اسم "صوفي"، وفي الحقيقة هذا اللقب ينطبق عليه ..

وهي عادة لاصقة به كالثوب حيك على قامته^(١) .

(حافظ)

وفي الصباح عندما يخرج جميع سكان هذه المنطقة، كانت أروقة السجن وساحته تعج بالحركة، فيقفز بعض على باقات الزهور، ويتأرجح بعض على أغصان زهرة (كروتن)، وعزم زوج منها على الاستحمام، وانتظر حتى تسقي باقات الزهور بالمياه، وعندما نزلت المياه نزل في الحوض على الفور، وظل يفتح جناحيه، ويغلقه بسرعة، وزوج آخر لم يجد ماء في الجوار "فتيمم صعيدا طيبا" وبدأ يغتسل بالتراب،

(١) هذه الشطرة ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ١٤٢ . (المترجم)

وحفر الأرض بمنقاره أولاً ليغوص فيها حتى صدره، ثم جلس في هذه الحفرة وأخذ
يثر النقع كأنه طوفان ، وعلى مسافة قصيرة ينهمك "ملا" بمصارعة خصمها كالمعتاد
وينسى نفسه في الصراع في حالة عجيبة ..

يتحاربون وليس في أيديهم سيوف .

أي لو تنظر إلى أيديها، تجدها خالية من الأسلحة، بل لا توجد اليد أصلاً :

الفم يتذكر والرأس غائبة ومنزوية في مجامع الثوب.

لكن لو تنظر إلى المنقار فإنه يكفي لتعويض نقص الأسلحة (اليـد)، وعندما
يحدثم الشجار ويتشابكان، فيصعب التميز بينهما، وكأنك ترى مشهد جدال سعدي
مع الدرويش الغاضب ..

أمسك بي فأمسكت به واشتبكتنا معاً

(سعدي)

وعندما يتشابكان متصارعين في الهواء فلا يدركان إلى أين سيهبطان ؟ وكم
من مرة وقعا على رأسي، وذات مرة سقطا في حضني تماماً، وأمسكت أحدهما بيد
والآخر بيدى الأخرى.

استعدت يداي كليهما للعمل .

وكان كل جسمهما في قبضتي، ورأسيهما فقط مطلقين، وكان قلبهما يخفق بشدة
حتى كاد ينفجر ومع ذلك لم يستصعب الكف عن نقر أحدهما للآخر، وحينما فتحت
كفي طاراً بسرعة وجلسا على جناحي المروحة، وظلا يصرخان " صو .. صو " على ما
أظن أنها كانا يخاطبان بعضهما بعضاً.

كان قد وصل بلاء ولكنه مرّ على خير .

(سعدي)

وكننت أسمع صوت فرخ في عش "موتى" منذ فترة، وعندئذ كانت تنقر على الحبوب ولا تأخذ منها أكثر من حبة واحدة أو حبتين، وتوجه إلى عش على الفور، ويبدأ ضجيج الفرخ بمجرد وصولها إليه، وتأتي مرة أخرى بعد ثانية أو ثانيتين، وتطير بعد أن تلتقط حبة، وذات مرة أحصيت مجيئها سبع مرات في دقيقة واحدة .

وفي دراسة لعلماء الحيوان عن خصائص تلك الطيور يتضح أن العصفورة تطعم فرخها من مئتين وخمسين إلى ثلاثمائة مرة في يوم واحد، وإذا قارنا كمية طعام الفرخ طوال اليوم بالنسبة لحجمه، نجده لا يقل عن وزن جسمه أيضًا ولكن قوة هضم الفرخ تعمل بسرعة، حيث تدخل الحبة من جانب ويبدأ الهضم من الجانب الآخر وهذا هو السبب في أن معدل نمو أفراخ الطيور يفوق معدل نمو صغار ذوي الأرجل الأربعة، وتصل إلى سن البلوغ في مدة قصيرة جدا، وقد توثق تماما هذا الأمر عندي من سرعة عمل "موتى".

وبقدر ما تبدأ أجنحة الأفراخ في النمو، يأتي ملك الوجدان ويبدأ يهمس في أذن الأم: "عليك الآن تعليمها فن الطيران"، وأعتقد أن هذا الهمس كان قد بدأ في أذني موتى، فأراها في الصباح تنزل طائرة من عشاها ويصاحبها فرخ صغير يتعلم الطيران، يقع على الأرض وتذهب إليه "موتى" مرة وتبدأ في رفعه لأعلى بعد أن تشير له بالطيران، ولكن لم تكن ترى في الفرخ أي قابلية للتعلم، فكان مستلقيا على الأرض بلا حركة أو إحساس، باسطة جناحيه، مغمضًا عينيه، وعندما حملته ونظرت إليه، علمت أن جناحيه لم يكتمل نموها بعد، وأثر إصابة السقوط الجديدة أيضًا جعلت حالته يرثى لها وعندئذ تذكرت شعر نظيرى تلقائية:

حتى أصل إلى وصاله ألقاني الشوق مائة مرة على الأرض

رغم أنني مجدد ولي عش على فرع عال .

(نظيري)

على كل حال؛ فقد حملته ووضعتة على السجادة، وقامت "موتى" بتحضير فتات الأرز بقمها وأخذت تطعمه، وكان عندما يفتح فمه يصيح "صو.. صو" بصوت خافت ومحسرج ثم يلقي نفسه مغلق العينين، وانقضى النهار بأكمله على هذا الحال، وأمضى اليوم التالي على هكذا أيضًا، وحاولت الأم تعليمه مرارًا الطيران من الصباح إلى المساء، إلا أنه كان قد غلب عليه الإعياء فلا تجدد منه أي استجابة، وكنت أظن أنه سيموت، ولكن في صباح اليوم الثالث طرأ عليه أمر عجيب، فقد دخل شعاع من الشمس وتوغل في الحجرة، فوقف (الفرخ) في داخل هذا الشعاع بجناحين متدلين، وقدمين مقوسين، وكانت عيناه مغلقتين كالعادة، والمفاجأة فيما أرى، حيث ظل ينتفض بعد أن فتح عينيه فجأة، ثم مد عنقه، وأخذ ينظر ناحية الفضاء ثم ضم جناحيه المتدلين وفتحهما وأغلقهما مرارًا؛ ثم استجمع قواه وقفز وطار حتى وصل إلى الساحة مرة واحدة كالسهم، ثم غاب عن الأنظار بعد أن طار في الجو، وكان هذا المشهد بهذه الدرجة عجيبا وغير متوقع، حتى إنني أشك في رؤيتي فلعلي أكون قد خدعت ورأيت عصفورا آخر طائرا، ولكن الأمر الذي قد حدث لم يكن فيه مجال للتقاش؟ فحينما حاولت أمه أن تعلمه الطيران ولم يستطع أن يطير من الأرض شبرا واحدا ظل على هذه الحالة يومين، ومن ناحية أخرى كانت ثورة حماسه قد اخترقت كل الحدود والقيود في طيرانه الأول، وغاب في الفضاء المتناهي، وقد جعلني هذا المشهد في حالة عجيبة، وأنشدت بلسان حالي هذا البيت وردته بحماس شديد حتى تنبه الجيران :

انظر إلى قوة العشق فإننا في هذه الصحراء الشاسعة

لم نخط خطوة واحدة ومع ذلك فقد وصلنا إلى النهاية .

(نظيري)

وفي حقيقة الأمر لم يكن هذا شيئا، بل كان مشهدًا من مشاهد الحياة التي تمر دائما أمام أعيننا، ولكن لم نرغب في فهمها، لقد تولد استعداد الطيران في فرخ هذه

العصفورة، قد وقف أمام جو السماء من عشه، ولكنه لم يكن يظهر إحساس المعرفة لذاته حتى الآن، ولم يكن يعرف حقيقة نفسه، وكانت الأم ترشده مرة تلى الأخرى، وتمر أمواج الهواء ملازمة لجناحيه، وتنميه ضجة الحياة، والحركة من كل ناحية، ولكن موقعه الداخلي كان وما زال باردا ولم تستطع الحرارة الخارجية أن تثير حماسه.

عليك أن تحجل يا كليم من الشكوى من عدم التوفيق

ماذا يفعل المرشد ما دمت لا تضع قدمك في الطريق .

(كليم)

ولكن عندما هبت معرفته الخفية لذاته، وعرف حقيقة نفسه، بدأ يفكر ويقول: "أنا طائر من الطيور"، وفجأة نفخت الروح في قالب بلا روح، ونهضت كل أعضاء جسمه من جديد، واستقام الجسم النحيل الذي كان لا يستطيع أن يقف ولا يستطيع أن يتحمل عبئا على جسمه، وأخذ جناحاه اللذان لم يكن فيهما رمق الحياة يزنان نفسيهما، وقد كانت هذه صعقة برق حماس الطيران في الفضاء الفسيح مثل شجاعة الديك والعقاب - والله در من قال:

فافتح جناحك أيها الطائر وغرد بصفرك من شجرة طوبى .

فمن الحيف أن يظل طائر مثلك أسيرًا في الأقفاص^(١) .

وكان التغيير قد حدث في لمح البصر وتبدل من الضعف إلى القوة ومن الغفلة إلى النهوض، ومن غير جناح إلى الطيران عاليًا في الفضاء ومن الموت إلى الحياة، وإذا أمعنت التفكير في هذه القضية تجد أن وقفة لمح البصر هذه هي خلاصة قصة الحياة بأسرها :

يقطع هذا الطريق بضوء البرق

ونحن الغافلون ننتظر الشموع والمصابيح .

(أنيسي شاملو)

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٣٢٦. (المترجم)

كانت أسباب الطيران متاحة له، ولم ينقض منها شيئاً، وقد بعثه الله لكل عدته التي يحتاج إليها، وكانت إشارات الأم تحمسه وتحفزه لحظة بلحظة، ولكن عندما لم يتضح لديه شعور معرفة الذات والإحساس بها، ولا معرفة حقيقة أنه طائر طموح، ظل جناحاه عاطلين، وهكذا عندما تكون معرفة الذات للإنسان غافلة، لا تستطيع الضجة الخارجية أن توقظها، وعندما تنحصر معرفته الداخلية، ويعلم حقيقته المستمرة، ينقلب الحال تماماً في لمح البصر من تراب الأرض إلى رحابة الأفلاك بقفزة واحدة، ولقد أشار الشاعر خواجه إلى هذه الحقيقة:

وما عساي أقول لك عما سمعت أمس في الحانة وأنا خرب بالشراب

وأى البشارات أوصلها إلى ملاك التنزيل من عالم الغيب

فيا رفيع النظر أيها البازي الذي ماؤه في سدره المنتهى

لا يليق هذا الركن الأعزل الخرب بمقامك

إنهم ينادونك من شرفات العرش^(١)

وإننى لأعجب ولا أعرف ماذا دهاك فبقيت في هذه المصيدة .

(حافظ)

أبو الكلام

(١) الأبيات الثلاثة ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص: ٧٢ .

خطاب - ٢٠

قلعة أحمد نجر

١١ أبريل سنة ١٩٤٣ م

ما كان القلب يحترق من التفكير فيه كان هو الخوف من الهجر
وفي النهاية نحن نشفق عليه من قسوة الفلك

(ظهوري)

صديقي الكريم

الساعة الآن لا تشير إلى الرابعة صباحًا، بل بداية الليل، وقد استلقيت في الفراش الساعة العاشرة كالمعتاد، ولكن العين لم تذق النوم، فنهضت يائسًا ودخلت الردهة، وأضأت المصباح واستغرقت في أعمالي، ثم فكرت أن أمسك القلم وأحدثك قليلاً حتى أخفف عني العبء النفسي، لقد مضت ثمانية أشهر هنا، هذه هي الليلة السادسة التي تمضي هكذا بلا نوم، ولا أدرك كم ليلة ستمر هكذا؟!

العقل مع الفلك والقلب واله بحب الحسنات

كيف أتحدث أين القلب وأين العقل.

(كليم همداني)

كانت زوجتي مريضة منذ عدة سنوات، وفي عام ١٩٤١ م عندما كنت معتقلاً في السجن "نيني" لم تخبرني تحسباً "لقلقي"؛ ولكن علمت بعد إطلاق سراحني أن كل هذا الوقت قد مضى وهي طريحة المرض، وكانت تصلني خطاباتهما في السجن، وتخبرني فيها عن كل شيء، ولكن لم تذكر لي شيئاً عن مرضها، وبعد الإفراج شاورت الأطباء فأجمعوا على ضرورة تغيير الجو، وقد سافرت إلى "رانشي" وفيها يبدو أن

الإقامة في "رانشي" كانت مفيدة؛ حيث عادت في شهر يوليو وعاد عليها الرونق والبهاء على وجهها شيئاً فشيئاً .

كل تلك الأيام التي أمضيت معظمها في السفر، وكانت الأحوال تتغير بسرعة؛ حيث لم تسنح لي الفرصة لالتقاط أنفاسي في أي مقام، ولا أبلغ أي محطة، حتى تظهر أمامي على الفور محطة سفر أخرى ..

مرت مئة صحراء وأمانا أخرى .

(فيضي)

وكان آخر شهر يوليو حيث عدت إلى كلكتا بعد ثلاثة أسابيع ، ثم سافرت إلى بومباي بعد أربعة أيام لحضور جلسة لجنة مؤتمر عموم الهند، وفي ذلك الوقت لم يكن الطوفان قد وقع بعد، ولكن آثاره قد لاحت في الأفق، وكانت الشائعات تنتشر بشأن نوايا الحكومة، وكانت شائعة انتشرت بشكل عموم هي أنه سيتم اعتقال جميع أعضاء اللجنة بعد جلسة مؤتمر عموم الهند، وسيتم نفيهم إلى مكان مجهول خارج الهند^(١).

وكانوا يقولون إن تدهور أوضاع الحرب قد منح الحكومة صلاحيات غير عادية لاستخدام كل الطرق الممكنة لتحقيق كل ما يريدون، وكانت زوجتي زليخا تدرك الوضع الراهن أكثر مني وتعرف ماذا سيحدث بعد، وقد انحكمت في كثير من الأعمال في تلك الأيام الأربعة التي قضيتها للاستراحة بين الرحلتين ولم أجد الفرصة للحوار فيما بيننا، لأنها كانت تعرف طبعي جيداً حيث إنني دائماً ما يزداد صمتي أكثر في مثل تلك الظروف ولا أحب أن يزعجني أحد؛ لذلك فقد لزمتم الصمت هي أيضاً، ولكن هذا الصمت لم يخل من النطق ، فكل منا كان يسمع كلام الآخر ، كلانا صامتان ، وكنا نفهم ما يريده بعضنا البعض جيداً، وفي ٣ أغسطس عندما بدأت

(١) لم تكن التصريحات التي جاءت في الصحف بعد إلقاء القبض على شائعات كاذبة، وكان رأيي سكرتير الولاية، وحاكم الهند أن نفيها إلى إفريقيا بعد الاعتقال، وأعد بعض الخطط اللازمة لهذا الغرض؛ لكنهما بدلا رأيهما بعد ذلك، وفي النهاية استقرا على أن نسجن في "قلعة أحمد نجر" تحت حراسة عسكرية مشددة؛ حيث يحققان الهدف الذي كانا يريدانه من نفيها خارج الهند. (المؤلف)

أستعد للعودة إلى بومباي، ودعنتي كالمعتاد حتى الباب قائلة: "حفظك الله"، فقلت لها: هذا إذا لم تحدث أى وقائع جديدة، فسأعود في ١٣ من أغسطس ، ولم تقل لي أي شيء سوى "حفظك الله"، وحتى إذا أرادت .. أن تقول شيئاً فلم تكن تستطيع أن تقول أكثر من ذلك، لأن اضطراب وجهها كان يتحدث في صمت، وكانت عيناها جافيتين ولكن وجهها كان يدمع ..

أسكتنا أنفسنا بحيلتك السابقة .

(صبري الأصفهاني)

وقد سافرت كثيرًا في غضون الخمسة والعشرين عامًا الماضية، وكسم واجهت من اعتقالات عديدة، إلا أنني لم أرها حزينة ومهمومة لهذا الحد من قبل كما كانت في هذه المرة، حيث كانت عواطفها المؤقتة الضعيفة هي التي طغت على طبيعتها، وهذا ما كنت أظنه في ذلك الوقت، ولكن فكرت أنها بما كانت تشعر بإحساس مجهول بأن هذا آخر لقاء بيننا في حياتها ولم تكن تودعني لسفري أنا، بل قالت ذلك تودعني لرحيلها هي!

وقد كانت تعرف طبيعتي جيدا، فكانت تعلم أنها لو أظهرت شيئاً من القلق من جانبها في تلك الظروف فتكدرنى بشدة ، وستبقى مرارته في علاقتنا طوال الوقت، ففي عام ١٩١٦م عندما اعتقلت للمرة الأولى، لم تستطع أن تخفي قلقها، وظللت غاضباً عليها لفترة وقد غيرت هذه الواقعة أسلوب حياتها للأبد، فبذلت قصارى جهدي كي تعينني على ظروف حياتي، فهي لم تساعدني فقط، بل وصبرت على كم الظروف الحالكة بكل قوة وإرادة؛ فكانت شريكة أفكار ومعتقداتي على المستوى العقلي، وكانت رفيقة ومساعدة في حياتي العملية، فما السبب وراء عدم قدرتها على التغلب على طبيعتها المضطربة، وغالباً كان السبب الرئيسي هو أن ظلال المستقبل بدأت تسيطر على أحاسيسها الداخلية.

ولم تكن الفرصة متاحة لمراسلة الأقارب بعد الاعتقال لمدة قليلة، وبعد ذلك تم رفع الحظر عن هذا، فوصلني خطابها الأول في ١٧ سبتمبر، وظلت الخطابات تصل

بعد ذلك باستمرار، ولكنني كنت أعلم أنها لن ترغب في أن تخبرني عن مرضها فتقلقني ويضطرب حالي؛ بذلك كنت دائماً أستفسر عن أحوالها من بعض الأقارب الآخرين، وعموما كانت الرسائل تصل إلى هنا بعد اثني عشر يوماً من تاريخ الكتابة، لهذا لم أكن أستطيع العلم بأحوالها على الفور، وفي ١٥ من فبراير وصلني خطاب كتب في ٢ فبراير، وجاء فيه أن حالتها سيئة، وأرسلت تلغرافاً لأعرف المزيد عن حالتها الصحية وتسلمت الرد بعد أسبوع حيث لم يكن فيه ما يدعو للقلق.

وفي ٢٣ مارس وصلني خبر أن حالتها خطيرة، وقد أخبرت حكومة بومباي مأمور السجن عن طريق التلغراف بأن هذا الخبر قد حصل من كلكتا، ولم يكن معلوماً في أي تاريخ وصل هذا التلغراف إلى حكومة بومباي؟ وبعد عدة أيام قرروا إخباري بهذا النبأ؟

ولأن الحكومة قد أخفت مكان اعتقالنا عن العالم، لذلك اختارت مسلكاً منذ البداية حيث لا يمكن إرسال أي تلغراف من هنا إلى الخارج، ولا يمكن أن يأتي إليهم من الخارج، ولو سيأتي فإنه يصل عن طريق مكتب البريد، وبهذه الطريقة يطلع موظفو المكتب على محتوياته؛ ونتيجة لذلك فإنه لو لأمر مهم فلا يمكن أن يرسل عن طريق التلغراف، ولو يرسل بالبريد فينبغي تسليمه أولاً للمأمور بعد كتابته، ويرسل هو هذا الخطاب عن طريق بومباي، ثم يسلم هناك بعد التفتيش، ويرسل إلى المكان المراد، وقد قسموا السجناء هنا إلى قسمين للإشراف والرقابة على الخطابات، فبعضهم للإشراف على بريد بومباي فقط، وبعضهم يتحتم عليه إرسالها كلها إلى بريد دلهي، ولا يتم اعتمادها ولا إرسالها إلى المكان المطلوب حتى يتم الاطلاع عليها، ولأن بريدي مندرجاً في القسم الثاني، فكان لا يمكن أن يصلني أي برقية قبل أسبوع، ولا يمكن أن يصل أي برقياتي إلى كلكتا قبل أسبوع.

وهذا التلغراف الذي وصلني هنا في ٢٣ مارس قد كتب عليه رمز عسكري "code"، ولم يستطع المأمور أن يفتحه، فأخذه إلى المقر العسكري الرئيسي، ولكن بالمصادفة لم يكن هناك أحد، لهذا ضاع يوم كامل في محاولة فتحه، وفي المساء وصلني نسخة مفتوحة .

وفي اليوم التالي؛ جاءت الصحف بهذا الخبر أيضًا، وعلمت أن الأطباء يمكن اطلاعهم بما يتعلق بالمرضى يومياً، وكان المأمور يستمع إلى المذيع كل يوم ويخبر بعض الزملاء عن أخبارها.

وجاءني المأمور في اليوم التالي لليوم الذي تسلمت فيه التلغراف، وقال : لو ترغب فإنني أحدث بشأنها مع الحكومة ، فتبلغها إلى بومباي فوراً ، وهنا لن تعيقك أي لوائح أو قوانين، فقد تأثر بهذا الوضع وأراد مواساتي، لكنني قلت له بوضوح انني لا أريد طلب أي مساعدة من الحكومة، ثم ذهب جواهر لال نهرو وتحدث معه في هذا الأمر، وجاءني جواهر لال نهرو عنده العصر، وظل يتحدث عن هذا الأمر وقتاً طويلاً، وقلت له الكلام الذي قلته للمأمور، واتضح فيها بعد أن اقترح المأمور كان بإيعاز حكومة بومباي .

وعندما بلغني خبر حالتها الخطرة ، بدأت أتحمس قلبي، فحال النفس البشرية عجيب، فإننا نعيش طوال العمر نعتني بها، ومع ذلك لا يحل هذا اللغز، وحياتي من البداية مرت بمثل هذه الظروف التي تتيح الفرص المتواترة لضبط النفس وانقيادها فلم أقصر في استخدامها بقدر الإمكان ..

ما دامت أنها كانت قاعدة معهودة فقد مزقت الجيب،

فأنا لا أخجل من الخرقه الصوفية .

(حزين)

مع ذلك فقد أحسست أن كياني قد اهتز، واضطرت إلى أن أكافح للتغلب عليه، وهذا الجهد لا ينهك العقل فحسب ، بل و ينهك الجسد ويذيبه داخله.

لا أريد أن أخفي ما يدور في قلبي وعقلي في هذا الوقت، وحاولت أن أصبر على هذا الحال فنجحت في الظاهر ولكن ربما لا أستطيع أن أنجح في الباطن، وشعرت بأن القلب والعقل يؤديان دورًا في مسرحية نلعب فيها بكل أنواع المشاعر والأحاسيس، ولا تظهر ما تخفى صدورنا وأن أول اهتماماتي أن تستقر أعمال حياتي اليومية ولا تختل قواعدها، فهناك أربعة مواقيت للشاي والطعام أضطر أن أخرج منها من حجرتي وأذهب إلى الغرفة التي تقع في نهاية صف الحجرات، لأنني تعودت على حساب دقائق الوقت في أمور الحياة؛ لذا أبقيت على عادة الالتزام بالمواعيد هنا أيضًا، واضطر جميع الرفقاء إلى مسايرة هذا الوضع أيضًا، ووضعت قانونًا لعادتي في تلك الأيام، فكُنت أخرج من الحجرة في الميعاد تمامًا، وأجلس على مائدة الطعام، ومع أن الشعور بالجوع قد مات، لكنني أضع بضع لقيات في فمي، وبعد طعام العشاء أجرى مع بعض الزملاء في الفناء لفترة، ولم يحدث أي خلل في ذلك، فالجلوس وقتًا طويلًا والأحاديث على أي صورة كانت، والمناقشات أيا كان نوعها ظلت جميعها مستمرة وفقًا للعادة.

وتصل الجرائد هنا خلال الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة، ويقع مكتب المأمور في الجهة الأخرى أمام حجرتي، ويأخذ الحارس الجريدة من هناك ويحضرها إلى حجرتي مباشرة، وحالما يخرج من مكتبه ويبدأ صوت وقع أقدامه يبدأ قلبي يخفق، وليس معروفًا ماذا تحمله الجريدة اليوم من أخبار، ولكن بعد ذلك أنتبه على الفور حيث يكون ظهر كرسي مواجهًا للباب، فلا يمكن لأحد أن يرى وجهي حتى يدخل ويقف أمامي، وعندما كان يأتي أشير إليه مبتسما كالعادة بأن يضع الجريدة على المنضدة، ثم أنشغل بالكتابة، كأنني لست متعجلا لقراءة الجريدة، وأعترف بأن كل هذا الظاهر كان جزءًا من العرض الذي يؤديه الإحساس بالكبرياء، وكان الغرض من هذا هو ألا تقع بقعة القلق والاضطراب على أطراف الصبر والاطمئنان.

فيا رب هبني قلبًا فإنني لا أريد هذا القلب عديم الروح

(عربي)

وأخيرًا امتلأ الكأس هذا بسموم الحزن في ٩ أبريل

فإن ما تحذرين قد وقعا .

(أوس بن حجر)

ففي الساعة الثانية تسلم المأمور تلغرافًا من حكومة بومباي يحمل خبر الفاجعة، وعرفت بعد ذلك أن المأمور كان قد علم بهذا الخبر من المذيع صباحًا وأخبر به بعض الزملاء هنا أيضًا، لكن لم يخبرني به .

وأشكر الزملاء هنا على مساعدتهم في كل تلك الفترة، فمن البداية عندما بدأت أخبار المرضى تأتي إليّ أصابهم القلق بالفعل، وكانوا يرغبون في تقديم ما يستطيعون في هذا الشأن، لكن لما علموا أنني مصمم على موقفي ولا أرغب في تقديم أي التماس إلى الحكومة، التزموا الصمت جميعًا، ولذلك لم يتدخلوا بصورة ما في شئوني.

وهكذا انتهت حياتنا الزوجية التي استمرت لستة وعشرين عامًا، وحال بيننا جدار المنية، ويمكن لنا أن نرى بعضنا بعضًا حتى الآن أيضًا، ولكن من وراء هذا الجدار.

ومرت عليّ تلك الأيام القليلة كأنها سنوات، وصاحبتي إرادتي القوية فيها، إلا أنني أشعر بأن قدمي قد أصابها الشلل..

لست غافلا عن الطريق ولكن آه ما العمل

مع قُطَاع الطريق هؤلاء الذين يقطعون الطريق على القلب العارف .

(فيضي)

ويوجد هنا قبر جديد تحت السور المحيط بالفناء، ولا أحد يعرف من صاحبه؟ وقد وقع عليه بصري مئات المرات منذ حضوري إلى هنا، ولكنني أنظر إليه الآن

وأشعر بخلق نوع جديد من المؤانسة لنفسي، ومكثت عنده مدة طويلة مساء أمس
وتذكرت مرثية "متمم بن نويرة" والتي كان قد بكى فيها بوفاة أخيه مالك:
لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال: أتبكي كل قبر رأيته لقب ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له: إن الشجا يبحث الشجا فدعني فهذا كله قبر مالك.

والآن أقف عن الكتابة، ولو كنت تسمع فلتقل:
بالله عليك يا سودا اختصر قصتك فقد طار نومي من قصتك
أبو الكلام

خطاب - ٢١

قلعة أحمد نجر

١٤ يونيو سنة ١٩٤٣ م

صديقي المكرم

لقد مضت أيام ولم أستطع أن أكتب إليك عن حالي
وأين المؤمن على السر حتى أبعث إليك برسائلي .

(حافظ)

عندما جاءوا بنا إلى هنا في العام الماضي، كان موسم المطر قد مضى بسرعة،
وبدأت ليالى فصل الشتاء ثم ودعنا فصل الشتاء، وبدأ وقت الصيف يرفرف
بجناحيه، ثم عاد موسم المطر إلى نقطة البدء، وأوشك فصل الصيف أن يرحل أيضاً
وبدأت قوافل السحب تتدفق من كل جانب، وحدثت التغييرات كثيرة في الدنيا،
ولكن عندما أنظر إلى قلبي أرى عالماً آخر؛ حيث لم يتغير فيه موسم ولا يمكن أن
أنسي رباعية "سرمد" التي تعبر عن المشاعر نفسها:

ومرت حرارة الجو وهذا القلب الحزين كما الخلاصة أن كل برودة وحرارة العالم
قد مرت علينا وهذا القلب الحزين كما هو مرت برودة الجو وهذا القلب الحزين كما هو هو

(سرمد)

وتوجد هنا شجرة "نيم" في الناحية الشمالية من الفناء، وذات يوم قطع أحد
الحراس غصناً ورماه تحت غصن الشجرة نفسها، وعندما أمطرت السماء صار الفناء
كله أخضر وقد أُلقت أغصان شجرة "النيم" ملابسه الصفراء، وارتدت لباساً
جديداً لفصل الربيع، وعندما تنظر إلى أي غصن ترى الأوراق الخضراء والأزهار
البيضاء تملأها، ولكن إذا نظرت إلى الغصن المقطوع ترى أنه لم يحدث له أي تغيير بل
ظل على حاله جافاً ويقول بلسان حاله:

لم يكن لى رداء سوى الوسم مثل السمكة

كان عندى نفس هذا الثوب الوحيد حتى وقت الكفن .

(كليم همداني)

وهذا الغصن من تلك الشجرة أيضًا وقد ألبسته المطار رداءً جديداً من الحياة والخضرة ؛ حيث يكون مع الأغصان الأخرى اليوم أيضًا لاستقبال الربيع، إلا أنه لا علاقة له بتغيير موسم الدنيا، لأن الربيع والخريف، والصيف والشتاء، والجاف والرطوبة كلها سواء عنده، وكُنت أمر من تلك الناحية ظهر أمس فجأة اصطدمت قديمي بهذا الغصن المقطوع فتوقفت وظللت أنظر إليه؛ وتذكرت تلقائياً تعبيراً للشاعر كان قد أبدع ما يعبر عما بداخلي:

لقد قطع الأمل ولا يريد نعيم الدهر

فالفرع المقطوع لا ينظر إلى الربيع .

(كليم همداني)

وأخذت أفكر أن هذا هو حال حديقة قلب الإنسان نفسها ، ففي هذه الحديقة يتبت العديد من أشجار الأمل والرجاء منتظرا قدوم الربيع، ولكن جذور تلك الأغصان التي استؤصلت من قبل لم يؤثر عليها التغيير بالربيع أو الخريف، ولم يستطع أي موسم أن يرسل لها رسالة الاخضرار..

ما الخريف ؟ أي موسم هذا ؟ وعلى من يطلقون فصل الربيع ؟

ونحن أنفسنا في القفص في حالة حداد على الريش والجناح.

أما الأزهار الموسمية التي كنا قد زرعناها هنا في شهر أكتوبر؛ فقد نبتت في نهاية شهر أبريل ولكنها قد تركت مساكنها بعد ذلك، وفكرت في أننا لا بد أن نبدأ الاستعداد لموسم الأمطار في شهر مايو، لذلك فقد أحضرنا ألواحاً خشبية جديدة وبذوراً جديدة، ونزرع الآن نباتاً جديداً، وفي بضعة أيام ستنتب زهوراً جديدة،

وستصير حديقة منسقة، وهذا كله يحدث جديدًا، لكنني أتذكر شيئًا بين الحين والآخر، فأذكر كم كانت حديقة الدنيا ضيقة جدا لنمو أزهار فيها ؟ فلا تفتح زهور موسم حتى تذبل موسم زهور آخر، ولكنها لا يمكن أن تحصل على خزانة جديدة، وهذا هو السبب نفسه حيث لم يعجب "القديس" بفتح الزهور، لأنه كان متخوفًا إذا تفتحت أزهار حديقة تذبل أزهار قلبه..

إن محيط العيش في هذه الحديقة في حجم قلب ضيق
يا ليت الزهرة تصبح برعمًا حتى يتسع القلب .

(قدسي مشهدي)

وإذا أمنت التفكير، فتجد أن كل صناعة حديثة هي نتيجة لخراب ما، أو لك أن تقول إن لكل خراب صنع جديد..
لقد أدركه الخلل أيضًا وهو يعد صغيرته .

(آتش)

ففي الميادين عندما يحفر حفرة فإنهم يسدون مكانها بالطوب الأحمر، والأشجار التي تقطع بالمناشير تصنع بها السفن، ويفرغون مناجم الذهب مع أن خزانة البلاد مليئة بالعملات الذهبية، والعامل الذي اجتهد وتصيب عرقا من مفرق الرأس حتى أخمص القدم يوفر أسباب الراحة والرفاهية للأثرياء، وعندما نرى باقة زهور مع بائع الورد تعجب بها، ولكن لا يرد على الأذهان أن قطعة من حديقة قد دمرت، وهذا هو السبب نفسه الذي جعل الشاعر "عرفي" ينهض صارخًا تلقائيًا عندما رأى الزهور في طرف قميصه..

على روضة عيش من أغار الزمان
حتى تتبعنا الزهور جماعات جماعات .

(عرفي)

وقد أصبحت أحواض الزهور مصدرًا مسليًا من شهر أكتوبر حتى شهر أبريل، وكنا نقضي عدة ساعات من الصباح حتى المساء، للعناية بها ولكن عندما تغير الموسم انقلب حالها ثم جاء الوقت الذي لم يعتن بها أحد مثلما كان يحدث من قبل؛ فأهملت أحواض الزهور، واليد التي كانت ترعاها وتسقيها بالماء، أصبحت هي الآن التي تهدمها وترميها بقسوة، ونباتات الأشجار التي كانت أوراقها بديعة وفاتنة صارت الآن، أكواما من الحشائش المحروقة والمداسة والشائقة الملقاة في كل ناحية من الفناء وأصبحت مواد للاستخدام فقط، فقد استخدموها في الإشعال إذا لم يتيسر لهم خشبًا، واستخدموها أيضًا موقدًا لتسخين قدور الطعام عليها..

إنه يحياك الوردي وليس لون الحناء
أيها القلب الدامي أنك لم تقم بأي عمل مفيد

(شائق)

فعندما تنظر إلى الكون تدرك القدرة الإلهية في كل مكان كما قال الشاعر:
في حديقة الدهر الربيع والخريف متعان قان
والزمان الكأس في يده والجنائز على كتفه .

(طلب الأملي)

هذا هو حال حياة الإنسان ، فشجرة السعي والعمل التي تأتي بالأزهار و الثمار
هي التي نرعاها، والتي تضيع هذه الثمار سدى لا ننتقبها، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً
وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].^(١)

(أبو الكلام)

(١) الرعد: ١٧.

خطاب - ٢٢

١٥ يونيو سنة ١٩٤٣ م

صديقي المكرم

لقد جمع فيلسوف العرب "أبو العلاء المعري" امتداد الزمان كله في ثلاثة أيام:
الأمس الذي مضى، واليوم الذي يمر، والغد المقبل، يقول:

ثلاثة أيام هي الدهر كله وما هن إلا الأمس واليوم والغد
والقمر إلا واحد غير أنه يغيب ويأتي بالضياء المجدد

ولكن كان في تقسيم الأزمنة الثلاثة هذه نقص، وهو الذي نطلق عليه (الحال)
فأين هو في الواقع؟ الوقت الذي نشعر به هنا يصنف في الماضي أو المستقبل، وهناك
تسلسل إضافي لكل الزمنين نطلق عليه "الحال" وهذه هي الحقيقة، أن هناك نوعاً
ثالثاً للوقت الذي يمر أمامنا علاوة على الماضي والمستقبل، ولكنه يأتي ويمضي بسرعة،
بحيث لا نستطيع أن ندركه، ونحن نطارده، ولكن حالما فكرنا في مطاردته من
ناحيته، ويتحول نوعه من ناحية أخرى والآن إما أن يبقى لنا الماضي الذي انقضى،
وإما المستقبل الذي لم يأت بعد، ولكن لا نرى علامة "الحال" نفسه، فالوقت الذي
كنا قد أردنا مطاردته كان هو "الحال" والذي أدركناه هو الماضي:

لقد خرج وابتعد مسافة الأميال عن ديار الحرمان

(سوادا)

ولعل هذا هو السبب الذي جعل الشاعر "أبو طالب كليم" لا تبدو له مدة
حياة الإنسان كلها أكثر من يومين..

لا تدور فضيحة الحياة عن يومين

فاشرح لك يا كليم كيف مضت

يوم تعلقت فيه بهذا وذاك

ويوم تخلصت فيه من هذا وذاك^(١).

(كليم همداني)

(١) هذان البيتان ترجمة محمد علاء الدين منصور: تاريخ الأدب في إيران، ج ٤، المركز القومي للترجمة،
٢٠٠٢ م، ص: ١٩٩. (المترجم)

وقد عبر شاعر عربي عن هذا المفهوم بإيجاز أكثر بلاغة:

ومتى يساعدنا الوصال ودهرنا

يوماً أن، يوم نوى ويوم صدود

(البحري)

ولو نتأمل حقيقة الحال عن قرب، فإن مدة الإنسان بأكملها ليست أكثر من صباح ومساء، ففي الصباح تفتح العيون، ويمضي وقت الظهيرة في الأمل، وحينما يأتي الليل تكون العيون قد أغلقت، ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا تَرَبُّثُوا إِلَى الْعَشِيِّ أَوُمُّحْنَهَا﴾ النازعات: ٤٦ "لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها" (١).

حدثت ثورة وفتحنا أعيننا من نوم العدم

فرأينا أن ليلة الفتنة ما زالت باقية فنمنا .

(غزالي المشهدي)

ولكن عندما نفكر بعد ذلك، كم من مجهودات نقوم بها لقضاء صباح ومساء فقط؟ وكم من صحراء نتخطى؟ وكم من بحار نعبر، وكم من قمم نبلغها؟ ثم تترتب قصة النار والقطن، وحكاية البرق ومخزن الجيوب:

في هذه الروضة حيث إن الهواء هو الوسم المزين للندى

يمجدون التسلية بألف اضطراب .

(بيدل)

أبو الكلام

(١) النازعات: ٤٦. (المترجم)

خطاب - ٢٣

قلعة أحمد نجر

١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٣ م

صديقي الكريم

الأطفال يسعدون أيا سعادة بالبالونات المطاطية الملونة، أنا أيضًا كنت متشوقًا لها في الطفولة، وكان هناك رجل من بين مريدي والدي المرحوم يدعى غلام رحمان كان يمتهن مهنة صناعة القلائس الإنجليزية، فأحضر لي هذه البالونات فارتجفت منها كثيرا وكانت هذه البالونات تنفخ بالفم، لكنها مُلئت بالغاز وكانت تطير إلى أعلى، وذات مرة فكرتني أنني يجب أن أشاهدها بعد أن أنقبها وماذا يخرج من داخلها، وكان فييتنا مغولي من سهسرام يسمى "أمانى" يقوم بأعمال الخياطة؛ فأخرجت إبرة من صندوق خياطة أمانى وثقبت بها البالون، وقد مر على هذه الواقعة سبعة وأربعون سنة لكنني ما زالت أتذكرها حتى الآن، وشعرت بأثر هيبته بوضوح في عقلي، وفي ذلك الوقت خرج الغاز فجأة وبدأ يحدث صوتًا طويلاً فاعتراني الرعب، وكان الغاز لا يقر له قرار من أجل الخروج، وصار ثقب الإبرة الصغير مثل فتحة النافورة المضطربة ولم يكد يمر نحو دقيقتين أو ثلاث دقائق حتى خلت البالونة وانكشمت وسقطت على الأرض.

تيقنت أنني الآن أشعر في صدري بهذه الحالة نفسها، وأن صدري مثل البالونة امتلاً بمادة ما شديدة الحرارة وأنا مضطرب من أجل خروجها، وأنا متأكد أن في داخلي المادة نفسها التي سوف تقفز وتتدفق مثلما كانت تقفز بصوت مضطرب من البالونة..

فلقد انقضى ذلك العهد حينما كان بنزوى أهل النظر
وفي أفواههم آلاف من ألوان الحديث وشفاههم صامته تنتظر
فلنقل الآن هذه الحكايات الطوال على صوت القيثارة
فقد ضاق بإخفائها صدري واضطرب بما فيه من نار حارة .

(حافظ)

لقد اعترتني حالة عجيبة أمس، وبدأت أشعر بها لفترة متأخرة من الوقت، وظلمت أواخر الإبرة، ولعل بخار القلب بدأ يتصبب بعد أن صار ماء.. ولكن هذه كانت مجرد خاطرة جاءت ثم مضت، وطبيعتي مغلقة، فالتقدير يغلى ولكن لا يقدر على الانفجار..

لقد صار النفس باردا من بكاء الضعف
حتى تأكد أن ماءنا صار هواء .

(غالب)

كان معي جهاز لاسلكي محمول يلزماني في السفر، وقد أحضرته معي بعد اعتقالي في بومباي، وقد جاء أيضًا مع أمتعتي، لكن عندما أدخلوا الأمتعة داخل القلعة لم يكن هذا الجهاز من بينها وعلمت أنه منع في الخارج وقد سألت مدير السجن عنه فأخبرني بأنه منع بأمر من الرئيس السجن والآن سوف يستفسر من الحكومة عنه، على كل حال لما كان يمنعون دخول الصحف، فهل كان من الطبيعي أن يسمحوا بجهاز اللاسلكي؟ وقد سمحوا بدخول الصحف بعد ثلاثة أسابيع لكنهم لم يسمحوا بدخول جهاز اللاسلكي وظل مغلقًا في مكتب "جيتا خان" كي يثبت في منزله ويعمل؛ لأن البيت الذي انتقل إليه ليس فيه جهاز لاسلكي.

ولكن في الوقت الحاضر رابط أحد ضابط الجيش في القلعة بالقرب من سورنا؛ وكان معه جهاز لاسلكي، وكان الصوت يصل إلينا أحيانًا وأمس أنبعث صوته عاليًا بوضوح شديد وكان في الغالب برنامج الإذاعة البريطانية (B.B.C).

وكان أحد العازفين على الكمان يعرض مواهبه، وعندما وصلت إلى أسماعنا كانت كأنها المقطوعة الموسيقية المشهورة "أغاني بلا كلسات" لمندلسون "Mendelssohn":

وحديث العشق وهو في غنى عن الحروف والأصوات
كان يرتفع عن أنين الدف والنأي في صياح وولولة^(١).

(حافظ)

(١) الشواربي، ترجمة إبراهيم أمين: الأبيات الثلاثة ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٢٠٤، ١٧٢. (المترجم)

وفجأة انبعث صوت مؤثر لإحدى المغنيات تؤديه بطريقة جميلة، امتزج
بالأنغام الموسيقية وخلق ذلك العالم الذي أشار إليه حافظ الشيرازي:
كيف ينشد هذا المطرب العارف بالمقامات
وقد أورد قول الحبيب داخل الغزل .

(حافظ)

وقد أثرت هذه الأنغام تأثيرًا فوريًا منذ الوهلة الأولى على طبيعتي، وقد
شعرت بأن الجروح قد بدأت تندمل ولكن هذه الحالة لم تستمر سوى عدة لحظات؛
ثم رأيت أن انقباض خاطري قد عاد إليّ..

فهل قل تأثير مشرط الأهداب
أم أن الجرح نفسه لم يترك لي لذة الألم

(عرفي الشيرازي)

ولعلك لا تعلم أنني في وقت من الأوقات ظلت لدى الرغبة والشوق لدراسة فن
الموسيقى والتدرب عليه، واستمر انشغالي به عدة سنوات، وكانت بداية هذا الأمر في سنة
١٩٠٥م عندما انتهيت من التعليم، وكان الطلاب مشغولين بالقراءة والدراسة وقد
أخذني الشوق إلى الكتب إلى بائع الكتب "خدا بخش"، وكان دكانه يتخذ مكانا أمام
المدرسة الكلية في الشارع (ولزلي) وكان في الغالب يعمل في البيع وشراء المخطوطات
العربية والفارسية، وعرض علي ذات يوم نسخة مصورة ويخط جميل لكتاب "راك درين"
أي (مرآة الأنغام) لفقر الله سيف خان وقال هذا الكتاب في فن الموسيقى الهندية علما وعملا
وترجم كتابا في الموسيقى السنسكريتية إلى الفارسية وهو المعروف باسم (راك درين). وقد
حصل "خدا بخش" على هذه النسخة، وكان في مكتب ناصر جنج شهيد ابن آصف جاء
وقد ألفه باهتمام بالغ، وكنت لا أزال أطلع على مقدمة الكتاب عندما جاء السيد "دنس
راس" الذي كان في ذلك الوقت مديرا للمدرسة العالية وكان يحب الحديث بالفارسية
وباللهجة الإيرانية، وبعد أن رأى صبيًا صغيرا يطالع مخطوطًا فارسيًا يامعان وتدبر،
اندهش وسألني بالفارسية: من مؤلف هذا الكتاب؟ فأجبت بالفارسية قائلا: هذا الكتاب
لسيف خان، وهو في فن الموسيقى، وأخذ الكتاب من يدي، وحاول القراءة بنفسه ثم قال:

فن الموسيقى الهندي صعباً للغاية، فهل تستطيع أن تفهمني معاني هذا الكتاب؟ فقلت: إن هذا الكتاب ألف ليقرأه الناس ويفهموه وأنا أيضاً سأقرأه وأفهمه، فضحك ثم قال: أنت لم تستطع أن تفهمه، ولو استطعت أن تفهمه لأفهمتنى معاني هذه الصفحة، وكانت الصفحة التي أشار إليها تحتوي على بيان بعض أقسام مبادئ الموسيقى، فقرأت كلماتها ولكنني لم أفهم معاني بعضها، فصمت من خجل وفي النهاية قلت له: لا أستطيع بيان معانيها الآن، وسوف أستطيع بيان معانيها بعد قراءة متأنية ومتعمقة.

واصطحبت الكتاب معي وبعد أن وحمل إلى البيت قرأته من أوله إلى آخره، لكنني علمت أنه ما دمت لم أعرف مصطلحات الموسيقى ولم أفهم مبادئها على يد أحد علماء هذا الفن فإنني لا أستطيع فهم بعض معاني الكتاب وقد اعتادت طبيعتي على هذا الأمر منذ أن كنت في عهد طلب العلم فعندما يقع كتاب في يدي فإنني ألقى عليه نظرة وأفهم جميع معانيه، أما الآن فإنني أواجه عقبة في فهمه، وتعقيداته الشديدة وأرى أنه يجب أن يساعدني أحد الخبراء في هذا الفن ولكن ممن أحصل على هذا العون؟ وكانت أحوال حياتي السرية لا تلتقي مع أحد في هذا المجال بسهولة وفي النهاية فكرت في "مسيताخان" وكان رجلاً يحترف هذا المهنة، وكان قد مر علينا هنا. وسيرة حياة "مسيताخان" هذا جديرة بالذكر، وقد كان من سكان "أنبالا" في مركز "سوني بت"، وكانت هذه حرفة أسرته وقد توافر له الاستعداد الجيد في فن الغناء، وتعلم على يد أستاذه من دلهي وجيپور، وكان يدرس لأهل هذا الفن في كلكتا..

نريد أن نحتفل في كل لقاء

(غالب)

وحضر مسيتاخان في خدمة الوالد المرحوم من أجل البيعة، وكان منهجه ألا يكون مريداً مثل الناس، ولكنه كذلك لا يريد أيضاً أن يغلق باب التوبة والإصلاح، ويقول: تعالى بدون بيعة وانظر هل يقبل الله تعالى، وظل هكذا في أكثر أحواله وكان الناس يتوبون بعد أن يتركوا حرفتهم تلقائياً في حين رفض طلب مسيتاخان، وكان

الوالد المرحوم يحضر من المسجد الجامع إلى البيت بعد وعظ يوم الجمعة، فيجلس أولاً في غرفة الديوان ثم يدخل البيت وكان يسير معه في صحبته خواص المريدين ويطلبون الإذن في عرض قضاياهم، وكان مستأخا ن يجيبه: أنا أطلب نظرة كرم من حضر تكم، فيجيبه: حسناً، عليك أن تعلق قلبك بالحب، فيخر على أقدمه طواعية، ثم يذرف سيلاً من دموعه، وما أمل ما قاله ذوق:

لقد تبللت الأكمام وطرف الثوب من بكاء الندم بهذا القدر
حتى إن طرف ثوبي المبلل تطهر من العرق.

وكان مستأخا ن يلتمس أحياناً بالحضور في البلاط المسائي - أي في مجلس المساء الخاص الذي كان ينعقد مرة واحدة في الأسبوع من تعليم المريدين وإرشادهم، وكان الوالد المرحوم يتجنبه ويتهرب منه ولكن التهرب منه كانت له طريقة خاصة أيضاً ويقول له: حسناً، انظر إن جميع الأمور ستم في وقتها؛ فيدخل السرور على روحه المنهكة بين الأمل والخوف والرجاء ويجفف دموعه بالمنديل ويصطحبه معه إلى بيته، يقول خواجه حافظ بعد أن يفرق في مثل هذه المعلومات:

وقل للحاجب الذي يتولى باب خلوتك الخاصة :

" إن فلانا من بين المعتكفين بالأركان قد أصبح تراباً لأعتابنا " (١)

(حافظ)

ولكن في النهاية تغيرت الأمور بسبب عجزه وقلة حيلته وصدق طلبه، وضمه الوالد المرحوم إلى مريديه، وسمح له بالجلوس في حلقات علمه وقد ناله التوفيق أيضاً وتاب من تدريس الرقص لـ "العوالم" وقنع بالعمل في وظيفة لدى إقطاعي بنغالي، وسمعت الوالد يقول ذات مرة: رأيت حالة ميسيتاخا ن فتذكرت حكاية الشيخ عازف الصنج - أي الشيخ عازف الصنج عند مولانا جلال الدين الرومي ..

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي: ديوان حافظ الشيرازي، ص: ١٦٦. (المترجم)

فمتى يكون عازف الصنج الشيط من خواص الله ؟
فيا لك من سر، يا لك من سر عجيب^(١) .

(الرومي)

على كل حال توجهت بتفكيرى على مسيتاخان هذا لمناقشة هذه القضية معه؛ وكان في حيرة من أمره في بداية الأمر مندهشا، ولكنه عندما أدرك هذا الأمر بشكل كامل سعد أيما سعادة؛ لأن ابن المرشد قد اهتم به وتوجه إليه لكنه الآن واجه مشكلة تنفيذ هذا الاقتراح بشكل عملي، ولم يكن البيت الذى يجتمع فيه الدارسون للهداية والمشكاة مناسباً لتعلم الموسيقى والغناء، كما أن الالتزام بمكان آخر لا يخلو من الصعاب، على كل حال لقد تم العثور على حل لهذه المشكلة ووجد من يحافظ على هذا السر وتم ترتيب جلسات الحضور في ذلك البيت، وتقرر أن تكون ثلاثة أيام في الأسبوع الأول، ومن ثم بدأت الذهاب والحضور في وقت العصر وكان مسيتاخان موجوداً من قبل هناك، وتستمر الدروس العلمية والعملية الموسيقي لمدة ثلاث ساعات..

وها أنا ذا أغرس شجرة العشق، وبودى ألا يصبح هذا الفن الشريف
موجباً لحرمانى كبقية الفضائل^(٢) .

(حافظ)

وكان مسيتاخان حافظاً لتعليم فن الموسيقى فقط على الفج العام لأساتذة هذا الفن، وكان يريد أن يسير على النمط أيضاً، لكنني وقفت حائلاً دونه ومنعته واجتهدت في ترتيب المعلومات حسب طريقي، ومن بين الآلات الموسيقية كنت أميل إلى آلة الستار وتعرفت بسرعة كبيرة على أوتارها، والآن أنا أفكر وأتحسر على تلك الأيام وذلك الحماس على طبعي في ذلك الوقت حين لم يكن عمري يتعدى السابعة عشرة، ولكن كانت سجيتي متردية والخطوة التي أخطوها بشكل كامل، وعندما كنت

(١) هذا البيت ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا : مثنوى جلال الدين الرومي ، ج ١ ، المشروع القومي للترجمة،

١٩٩٦م ، ص : ٢١٠ . (المترجم)

(٢) هذا البيت ترجمة إبراهيم أمين الشواربي : ديوان حافظ الشيرازي ، ص : ١٦٦ . (المترجم)

أعثر على الطريقة كنت أمضي فيه قدماً بقدر الإمكان وكنت أقوم بأي عمل؛ لكن طبيعتي لم تكن راضية عنه بأي حال من الأحوال؛ فأتركه هو لم يكتمل بعد، والمجال الذي أخطو فيه خطوة أتخلى عنه بعد أن أتفحصه بشكل كامل، عندما أقترف الذنب لا أتركه ناقصاً أيضاً، وعندما أكون في حارة الرنود تجديني سباقاً عليهم أيضاً، ولما ألتمس طريق المجوس لا أكون متخلفاً عن أحد منهم، وتقضي طبيعتي أن أظل هكذا دائماً، فحيثما توجهت فإنني لا أفعل مثلاً يفعل الخاملون والناقصون، وأحافظ على العادات والتقاليد، وأبقى على معالم الطريق، وكان الشيخ على حزين يقول على لساني:

ما دامت أنها كانت قاعدة معهودة فقد مزقت الجيب

فأنا لا أخجل من الخرقه الصوفية

(حزين)

وهكذا فإنني عندما وضعت أقدامي في المضي قدما فيه، واستمر تدريس على آلة الستار نحو أربع أو خمس سنوات، ظلت أناملئ لا تعرف بعض المقامات الموسيقية ولكن لم يستطع قلبي أن يتعلق بها كثيراً، بعد ذلك جاء على حين من الوقت تركت فيه هذه الهواية تماماً، والآن لم يتبق منها تلك الوقت المنصرم سوى قصتها فقط، ولا شك أن آثار المضارب لم تحم مني على أصبعي لفترة الطويلة من الزمن ..

والآن فإن موضع الوسمة (الكي) يؤلمني مثل ما كان من قبل .

(مير)

والنخلة مثال على هذا في عالم الرواء والحركة والرونق؛ فهي عندما تجلس على العسل فإنها تجلس هكذا ولا تستطيع النهوض :

جلسوا بعد أن تحطمت أقدامهم، وتوقفت أرجلهم .

(مير)

أو مثل إحدى الخنافس التي تحط على كل وردة وتمتص الريق ثم تطير .
تعهدته بالرعاية والعناية فسرت قلبه وطابت نفسه ومضي

(مير)

وهكذا كانت هناك زهرة في حديقة الحياة متعددة الألوان، كانت قد منعت عني لفترة وجيزة من الوقت ثم امتصت رحيقها ومضت قدماً وكان الهدف من هذه الهواية فقط هو ألا تظل طبيعتي تجهل هذا المجال؛ لأنه لا يمكن أن يتوافر للنفس توازنها ولا للفكر لطافته دون الحصول على مرحلة الموسيقى، وعندما نحصل على حد خاص من هذا الهدف؛ فإنه ليس من الضروري الانهماك الكامل فيه بل يدخل هذا في حكم الموانع، ولا شك أن تذوق الموسيقى وتأثيرها يروق لكل خجلة من خجلات القلب ولا يمكن إخراجها منه وهي لم تخرج حتي اليوم..

ذهب كل صراع غم العشق
ولو ذهب القلب أيضًا لكان ألم القلب هو نفسه .

(غالب)

فالجمال سواء كان في الصوت أو الوجه، في تاج محل أو في حديقة "نشاط باغ" يبقى هو الجمال ويظل للجمال مطالبه الفطرية وللأسف فإن هذا الإنسان المحروم الأزلي الذي قلبه بلا إحساسي لم يتعلم الإجابة عن هذه المطالب والأمانى :

ليس لك صدر ساخن لزوم حديث العشق
ما دام ليس في مجمرتك نار فلا تشتري العود .

(عرفي)

وأخبرك بأمر ما؛ وهو أنني تفحصت طبيعتي مرارًا فوجدت أنني أستطيع العيش سعيدا بدون كل شيء من احتياجات الحياة، لكن لا أستطيع العيش بدون الموسيقى، فالصوت الجميل بمثابة الدعامة لحياتي، وهو المداد لجهودى الذهنية، والعلاج لجميع أمراض الجسم والقلب..

إن الوجه الحسن هو علاج العمر القصير
وقد كتبنا هذه الروشته من كتاب أدعية المسيح .

(نظيري)

فلو أردت حرمانى من متع حطام ثروة الحياة؛ يجب أن تحرمنى من شيء واحد فقط، وسوف تحقق أهدافك كاملة، فلو أنني فقدت أي شيء وأشعر به كل ليلة هنا في سجن أحمد نجر فهو فقدانى لجهاز الراديو..

لا تسأل عن لذة معصية العشق ستذكر هذا البلاء في الجنة أيضًا .

(داغ)

ففي الوقت الذي كنت أمارس فيه الاستماع إلى الموسيقى حدث لي بعض الأحداث غير القابلة للنسيان، حيث ذهلت عن نفسي وطبيعتي أصابها الشغف والوله، وعلى الرغم من أنني غبت عن نفسي لكن تركت طابعي على طرف الحياة إلى الأبد، وقد حدثت لي واقعة في ذلك الزمان ، فقد صادف أنني سافرت إلى أجلاه وكان ذلك في شهر أبريل وكانت الليالي المقمرة قد زالت، وعند بداية الهزيع الأخير من الليل بدأ القمر يسترق النظر فجأة بعد أن مزق حجب الليل، وقد حاولت بشكل خاص - أن أبقى على هذا الترتيب - أي إنني أتناول النجوم في الليل وأسير بها التاج وأجلس على سقفه ناحية نهر جمن، ثم يبدأ ضوء القمر في الانتشار، ويعزف أي أغنية على النجوم عندئذ أغيب عن الوعي، فماذا أقول؟ وبأي طريقة أقول؟ وكيف يتجلى خداع الخيال، وهو قد مروا أمام الأعين:

وأنا سائل على باب الحانة ولكن انظر إلي في وقت السكر والعريضة
فإنني أشمخ بأنفي على الأفلاك وأتحكم في النجوم والكواكب^(١)

(الحافظ)

إن سكون الليل، وظلال النجوم، وأضواء القمر الخافتة، وإحدى ليالي شهر أبريل المبتلة، ومنازل التاج في الأطراف الأربعة كلها كانت واقفة رافعة رأسها، وكانت القباب الصغيرة جالسة في حمق مطبق، وفي الأسفل جداول نهر جدمن كانت تجري بعد أن تتلوى وتتعوج، ومن فوقها النجوم يعيونها لا حدود لها، وهى فى عالم الحيرة، وفي هذه البيئة الممتزجة بالنور والظلمة نهضت وحجبت النجوم فجأة وهى باكية، وبدأت تسبح في أمواج الهواء، وكانت السماء تمطر نجومًا، وأصبحت تعزف الأنغام..

(١) الشواربي، إبراهيم أمين، ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٢٥٠. (المترجم)

إنني سأعزف بالريشة على وتر شريان الحياة
فهل يعلم أحد أي نغمة سأعزفها

(غالب)

وظلت هذه البيئة لفترة من الوقت، وكأني أستمع إليها بخشوع بعد أن ألفت إليها السمع، ثم بدأ مجيء كل المتزهين بحركة بطيئة، وبدأ القمر يزداد نموًا لدرجة أنه أصبح قريبًا من رءوسنا، بدأت النجوم المرئية تحدد وترقب بعد أن تمزقت، وجاءت أغصان الأشجار تتمايل وهي في حالة السكر، ونسمع نجوى العناصر بوضوح في حجب الليل السوداء، واهتزت قباب التاج من مكانها، ولم تستطع أكثر من مرة منع منائر من الحركة على أكتافها، وتؤكد أو لا تتأكد لكن الحكاية هي أنني تحدثت مع القباب مرارًا في هنا العالم، وعندما كنت أشخص ببصري أحيانًا ناحية قبة الصمت أجد أن شفاهها تهتز..

لا تظن أنني أحكي هذه القصة من خيالي
قرب أذنك من شفاهي فإنها أغنية .

(نظيري)

وذهبت إلى "لكناو" بعد فترة قصيرة من هذا الزمن، أذكر أنني أقمت في "لكناو" عدة شهور وحضرتك لا تنسى أنني كنت قد التقيت معكم للمرة الأولى هناك، وكنت قد اشتريت نسخة من كليات صائب من عبد الحسين تاجر المخطوطات، وقلت لي بعد أن عرضتها عليّ إن لديك بعض الشغف بالمخطوطات أيضًا..
أي جواب لهذا الكلام وأنت تعلم أيضًا .

(خرو)

وقد تعرفت في أثناء إقامتي في لكنا على المرحوم ميرزا محمد هادي، وكان لديه إلمام كاف بالموسيقى، ولأنه كان عالمًا بسبل العلم والفن؛ لهذا كان يفهم الطرق العلمية ويستطيع إفهامها، ولذا وجدت منه العون في تكميل معلوماتي الموسيقية وللأسف فقد فارق الدنيا..

أين ولد مثل هؤلاء الناس متشتى الطبع
للأسف لم تبقوا في صحبتي
(مير)

وفي ذلك الزمان استأجرت بيتاً بخمس روبيات أمام كلية "سجين"؛ فكانت
هي كل دنيائي، وكان شغفي بعلم الفلك قد عرفني بحرفة النجارة، وعندما أعود من
الكلية أنهمك في صنع المثلثات الخشبية والدوائر ذات القطر ونصف القطر على سطح
المنزل، وكذلك أدوات الرصد، وعندما تحطم سلم السطح قفزت ووصلت إلى
السطح وعشت قريباً للنجوم طوال الليل..

فإنني بالكأس والقدرح نديم للقمر والثريا في كل لحظة وساعة

(حافظ)

وبعد عدة سنوات صادف ذهابي إلى لكنا، ومرة ثانية فوجدت هناك عالماً آخر
حيث ورثت بعض الأملاك والعقارات بوفاة أحد الأقارب، فكان يجب الآن
الكفارة بمتع الشيخوخة عن حرمان الشباب..

ومضى العمر العزيز فتعال حتى نعوض
العمر الذي انقضى في غيبة الإبريق والجام .

(حافظ)

وفي هذا الحماس كان قد ظهر حجاب ذوق الموسيقى، لذا احتدمت المجالس
بحسناوات المغنين واستمرت المناقشات مع بعض أساتذة فن الموسيقى، ومع أن
إقامتي هذه المرة كانت قصيرة جداً لكن المناقشات الموسيقية استمرت عدة أيام، وقد
ساعدتني هذه الفترة القصيرة في ذلك الوقت في ترتيب الكتاب "معارف النغمات"
الذي طبع ونشر .

كانت أذناي في الطفولة متعودة على أصوات الترنم الحجازية، وقد قرأنا عن
أحوالها منذ القرن الأول في كتاب الأغاني والعقد الفريد وغيرهما، وقد ظل الذوق

الموسيقي للحجازيين دون تغيير حتى اليوم.. وهكذا كان هناك بعض الصلات بالذوق الأصلي لها، حتى صيغت أصوات الأذان متأثرة بهذه الموسيقي، لا أعرف أحوالها في الوقت الحاضر، لكن في ذلك الزمان كان هناك مؤذن معين على كل مأذنة في الحرم الشريف، وهناك شيخ المؤذنين فوقهم جميعا، وكان شيخ المؤذنين في ذلك الوقت الشيخ حسن، وكان صاحب صوت عذبا للغاية، وأنا أتذكره جيدا، وكانت أصوات ترحيمه^(١) تخلق جواً بديعاً في الهزيع الأخير من الليل، وكان منزلنا في الندوة عند باب السلام، وكانت قناديل المآذن تشاهد بوضوح من شرفات المنزل، وكنت أستمع إلى أذان الفجر كان أحدا ما يؤذن فوق سطح.

وعندما سافرت إلى العراق ومصر والشام بحثت في الموسيقى العربية المعاصرة، فأتضح لي أن الكثير من مصلحات القدماء التي وجدناها في كتاب الأغاني والخوارزمي وغيرها لا يعرف أحد عنها أي شيء الآن، وتغيرت وتبدلت أسماء ورموز التعبير والتقسيم تقريبا، وكانت المصطلحات العربية قد وصلت إلى إيران وارتدت ثوبا فارسيا قد عادت الآن مرة ثانية إلى العربية وصارت معربة، ولا غرو في أن الأصول والقواعد القديمة لفن الموسيقى لم تنزلز أقدامها حتى الآن، وما زالوا يستعملون حتى الآن أصول وقواعد الألحان الاثنى عشر نفسها التي تم وضعها تقليدا للموسيقى العربية، وهي منوبة حتى الآن إلى الأبراج السماوية الاثنى عشر مثلاً وضع القدماء أساسها، وعلى الرغم من أنه حدث تغييرات كثيرة في الآلات الموسيقية ولكن حجاب العود لم يبق صامتا حتى الآن، ويمكن سماع ألحان عزفها مثلاً كانت تعزف بمضرب إبراهيم بن المهدي وإسحاق الموصلي في ليالي طرب هارون الرشيد..

(١) الترحيم: كلمات أدعية مختلفة كانت تردد بلحن خاص قبل أذان الفجر، ويطلق عليها اسم ترحيم، واستمر هذا التقليد منذ أربعمئة سنة مضت على الأقل، وكان "ملاعي قارئ" وصاحب هذا البحث يعتبر أنه من البدع والمحدثات. (المؤلف)

ومن أين هذا المطرب الذي لعب نغمات "العراق"
ثم عزم على الرجوع بطريق "الحجاز"^(١).

(حافظ)

و"العراق" و"الحجاز" اسمان للحنان و"راه" بمعنى طريق..
إن المطرب ينظر إلى نفس الطريق الذي تسلكه.

(حافظ)

كانت فرقة الشيخ أحمد سلامة حجازي في مصر مشهورة جدا وذائعة الصيت في ذلك الوقت، وكلمة "جوق" أي جوقة هنا بمعنى فرقة أو جماعة، ونحن هنا نطلق كلمة "طائفة" أي جماعة على الجوقة ثم جاء جمعها "طوائف" بعد ذلك، وبالتدريج استعملت كلمة "طوائف بمعنى المفرد، وبدأ يطلق على المرأة الرقاصة والمغنية، وكانت فرقة الشيخ سلامة تعرض أكثر إبداعاتها في دار الأوبرا بالقاهرة، ولا يعتبر أي حفل طرب ذى رونق وبهاء في المدينة بدونها، وقد استمعت إليها مرارا، ولا شك في أن الموسيقى العربية المعاصرة مثلما كانت في الماضي أيضًا لها مهارة كاملة، وقد تعودت على سماعها عن طريق أحد الأصدقاء، وكانت هناك مناقشات حول الموسيقى العربية الحالية.

وكانت هناك في ذلك الوقت عالمة مشهورة في مصر من سكان طنطا اسمها "الطاهرة"، ويطلقون في مصر اسم "عالمة" على المغنية - أي إنها عالمة في الموسيقى حتى لا يسئ علماءنا الكرام فهم هذا المصطلح، وهذه الكلمة موجودة أيضًا في اللغات الأوروبية "Alume"، وكان الشيخ سلامة حجازي قد اعترف بفن هذه العالمة، وكان هو نفسه يدعوها ولكن صوتها كان أكثر منه فتنة وطلاوة وإيثارًا، وقد تيسر لي معرفتها واستمعت إلى إبداعاتها في الموسيقى العربية، فمن ذا الذي يبحث في الأزقة جيدًا عن متاع حلم الشوق..

خرج المنافس ألف من الباب يا ليتنه لم يعرف طريقك

(غالب)

(١) الشواربي، إبراهيم أمين، ديوان حافظ الشيرازي، ص: ٢٥٩، ٦٨، ٨٢، ٨٣. (المترجم)

وقبل عدة سنوات من ذلك الزمان الذي أكتب أحداثه نالت أم كلثوم الشهرة، ولا تزال هذه الشهرة قائمة حتى الآن وقد استمعت إلى تسجيلات عديدة لها، ولا تزال أصوات أغانيها تصدح حتى اليوم في محطات راديو سنغافورة وفلسطين وطرابلس الغرب والقاهرة، ولا غرو في أن من لم يستمع إلى صوت أم كلثوم لا يستطيع أن يقدر خلاصة الموسيقى العربية الحالية، ولأم كلثوم إنشادات مشهورة منها النشيد الشهير لعالية بنت المهدي:

وحب، فإن الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

ولا شك في أنه يعتقد أن الموسيقى العربية مثلها مثل الموسيقى اليونانية بسيطة نسبياً وتخلو من جهود التنظيم والترتيب، وقد أوصلت الهند هذه القضية إلى أعماقها، والحقيقة هي أن أي حضارة من الحضارات القديمة لا تستطيع أن تباريها في هذا الأمر، وظل حسن التقسيم ودقة الترتيب هنا الخصوصيات العامة لكل فرع من فروع الفن.

لكن فيما يتعلق بإبداعات هذا الفن؛ فليس في هذا شك أن فن الموسيقى الموجود حالياً في أوروبا كان قد وضع أساسه ونهضته الثانية أهل الجنوب أو المهويين وقد أوصلوه إلى منتهى الكمال، ومع إننا لم نستطع تقديره بشكل كامل لأن أذاننا تختلف في ذوق السماع لكن لا يمكن للعقل ألا يتأثر من عظمته، وفي الحقيقة إن مزاج الموسيقى تركيبي كذلك مثل الأمزجة المركبة بجميع الأشياء والمعاني، والأمر برمته يقبل تأليف الألحان والأصوات المفردة، إن تسوية وتناسب تركيب تلك الأجزاء المفردة ستكون دقيقة ورقيقة إلى هذا الحد، وسوف يزداد غموض الموسيقى إلى هذا القدر، ومن هذا الاعتبار نجد أن الموسيقى في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تعد نموذجاً غير عاد لبعد نظر الفكر الإنساني، وأن المهيين في هذا الفن من الألمان كانت لهم إسهامات رائعة في هذا الباب.

والحقيقة هي أن الموسيقى والشعر تجليان مختلفان لحقيقة واحدة، ويظهر أن أيضاً بطريقة واحدة متماثلة، كما أن أجزاء الألحان المؤلف منها الموسيقى تتركب

من الوزن والتناسب، وهكذا فإن الشعر أيضًا يتناسك بحسن تركيب أجزاء الألفاظ والمعاني..

أنت تخضبت بالحناء وأنا لونت المعاني

(غنى كشميري)

إن الحقائق التي ترتدي ثوب الألفاظ والمعاني في الشعر هي نفسها التي تختار زي الألحان والإيقاع في الموسيقى، واللحن عبارة عن بيت شعر، لكنه لا يرتدي زي الحروف والألفاظ بزي الأنغام من أجل روحه ومعناه..
والأذن تعشق قبل العين أحيانًا

(بشار بن برد)

فما هذا الأمر؟ إن بعض الألحان تثير عواطف الألم والشجن، وبعضها الآخر يتدفق من سماعها مشاعر السرور والسعادة، وبعضها يكون مثله مثل أن تقول إن الحياة وجميع ضجيج الحياة عبث، وبعض هذه الألحان تشعر منها كأنها تشير إلى أن :
يا أصدقائي إن الدعوة العمومية من أعمال قبة الصيف

(حافظ)

هذه هي المعاني نفسها التي تغص بها لغة الموسيقى التي لو ارتدت لباس هذا الشعر لصارت أحيانًا أغنية لحافظ وأحيانًا أنغام الخيام وأحيانًا نواح شيلي "Shelley"، وأحيانًا أخرى سرد الحقائق لورد سورت "Word Worth"
إن العلم حائر في هذا الميدان المليء بالنصب والاحتياال
فهناك إعداد وتجهيز للمسركة ومائة دولة تشاهد .

(نظيري)

والأمر العجيب هو أن العرب شغفوا بجميع علوم الهند وفنونها، لكنهم لم يستطيعوا النظر بتقدير خاطئ إلى الموسيقى الهندية، وقد ألقى أبو ريحان البيروني

نظرة على جميع علوم الهند وعقائدها في كتاب الهند، وكتب في باب "في كتبهم في سائر العلوم"، لكنه لم يذكر فيه أي شيء عن الموسيقى، وقد ذكر الدكتور إدوارد سخاو "Sachao" في مقدمة "الآثار الباقية" رسالة للبيروني تناول فيها جميع مؤلفاته بالتفصيل لكن لم يذكر فيها أي مؤلف في هذا الموضوع؛ مع أنه في ذلك العصر كان المسرح في الهند قد بدأ يعرض إبداعاته الفنية في بلاطي السلطان محمود والسلطان مسعود، وكانت طبول الهند وأدواتها الموسيقية تعزف في أزقة غرنة وحواريها، ولعل بعض أسباب هذا التجاهل في الغالب هو تشوقهم واشتغالهم بالعلوم العقلية التي منحتهم فرصة ضئيلة جدا للاهتمام بالفنون الجميلة، وهناك حقيقة أخرى هي أن ذوق سماع العرب يختلف عن ذوق سماع الهند إلى هذه الدرجة؛ حيث يصعب على الأذن سماع ألحان الآخرين.

ظل المؤلفون العرب لا يعرفون شيئاً عن المسرح الهندي مثل الموسيقى الهندية، وقد ذكر البيروني الشعر السنسكريتي وفن العروض بالتفصيل، لكنه لم يذكر المسرح قط، مع أن المسرح فن ممتاز وخاص في الأدب السنسكريتي مثله مثل الأدب اليوناني.

ولقد تجاهل العرب أيضاً الفنون الأدبية لليونان نفسها، فكانوا يعرفون القليل جداً عن المسرح والشعر اليوناني، وكانوا يعرفون أسماء هومر وسوفوكليس وغيرهما من خلال جمهورية أفلاطون ومقالات أرسطو؛ ولكنهم لم يستطيعوا معرفة أكثر من هذا، وقد عرف ابن الرشد المأساة (تراجيدي) والسخرية (كوميدي) في شرحه؛ ونستطيع أن نعرف منه إلى أي درجة كان عقله يجهل حقيقة المسرح اليوناني وكان يعبر بالمدح عن المأساة، والهجاء للسخرية.

وهذا الأمر لم يكن واضحاً، فإلى أي مدى تأثر أئمة بلاغة العرب بفن بلاغة اليونان؛ في الظاهر اعتبروه غير جدير بالاهتمام، وكانوا قد نقلوا أشعار ومقالات

أرسطو وخطبه وقد ضمها ابن رشد أيضًا إلى شرحه، لكن أئمة بلاغة العرب لم يستطيعوا فهم روحها، كما لم تمنحهم البلاغة العربية مهلة كي يحاولوا فهمها، وكان كل ما كتبه أرسطو في مقالته في الغالب مبنياً على نماذج من الخطابة والشعر اليوناني ولم يعرفها العقل العربي، ولعلك اطلعت على كتاب "نقد الشعر" لابن قدامة، وكان قد نشأ وترعرع في الحلقات العلمية في بغداد في القرن الرابع، وهورومي الأصل، مكث عدة سنوات في مكتبة الأسكوريال (إسبانيا) وعثر على كتاب كُتب على غلافه "نقد النثر"، ولكن اسم المؤلف كان مطموساً فأمكن فيه النظر كثيراً فوجدت أن حروفه تلتقي مع اسم أبو جعفر بن قدامة، وعندما بحث في فهرس مكتبات العلم عن اسم هذا الكتاب اتضح أنه لا يوجد أي نسخة أخرى له.

وعلى الأغلب فإن الكتب التي في مكتبة الأسكوريال هي نفسها الكتب التي نهب من سفيتين لسلطان المغرب في المغرب في القرن السابع واستولت على إسبانيا، ولأنه في ذلك العصر هدأت جهود المسيحيين في تحطيم الكنوز الإسلامية؛ لذلك لم يدمروا هذه الكتب واحتفظوا بها في خزانة الأسكوريال، ومن المؤكد أن هذه النسخة قد سرقت أيضًا وفي الآونة الأخيرة حصلت إدارة الجامعة المصرية على صورة ضوئية منها وقد طبعت ونشرت بعد تصحيح وتحقيق الدكتور طه حسين والدكتور منصور، وقد كتب غلافها مقدمة منفصلة عن الكتاب، وعلى ما يبدو فإن هناك شكوكًا في هذا بأن هناك سببًا ما غير معروف؛ لأن هذه الرسالة أيضًا من تأليف مؤلف "نقد الشعر"، ويتضح حاليًا من أسلوب بيان الرسالة الطريقة المنطقية في البحث والتحليل التي خيمت تمامًا على فن البلاغة فيما بعد، لكن أصول الفن ظلت عربية خالصة، ولا يبدو هناك أي مؤثرات على مؤثرات خارجية، ولا غرو أنهم عندما بحثوا في حقيقة البلاغة نقلوا بعض أقوال اليونان والهند نقلًا عن الجاحظ وقد نقل عنه الجميع.

لكن العرب الذين تجاهلوا الأدب اليوناني لم يستطيعوا تجاهل فن الموسيقى؛ لأن فن الموسيقى نفسه عند العرب لم يكن شيئًا، وكان كل ما يشيدونه من بناء في هذا الفن قد حصلوا على جميع مواده من أطلال الموسيقى الساسانية الإيرانية:

وبقيت أغاني باربد وقصصه

(شريف الجرجاني)

وهكذا توجد تصريحات عديدة يتضح منها أن هناك كتبًا ألّفت بالعربية عن فن الموسيقى اليونانية، وكانت تُقرأ بشكل عام على أنها فرع من الرياضيات، وقد قام اليونانيون بتقسيم الألحان الأساسية إلى اثني عشر لحناً نسبة إلى الأبراج السماوية الاثني عشر، فكان كل لحن منسوبًا إلى برج من الأبراج، وقد شيد العرب فن موسيقاهم على هذا الأساس، وكان الأرغون والقانون من الآلات الموسيقية اليونانية والرومانية الرائجة بشكل عام، وقد ألّف أبو نصر الفارابي رسالة مستقلة في القانون أيضًا، وقد اهتم مؤلفو إخوان الصفا بالموسيقى كذلك.

ومن المؤكد أن المستوطنين العرب الجدد للسند كانوا على علم بالموسيقى الهندية الرائجة في تلك المناطق، لكن وقائع العهد العربي للسند في التاريخ ضئيلة ونادرة عن هذا الحديث لا نستطيع أن نؤكد أي رأي منها، ولا شك أننا نستطيع أن نستخلص بسهولة نتائج ذوق المسلمين واشتغالهم بالموسيقى من سلسلة العهود الإسلامية الجديدة التي بدأت في شمال الهند والركن في القرن السادس الهجري، والآن لم تكن علوم الهند وفنونها أجنبية بالنسبة للمسلمين، بل صارت هي نفسها من ثروات بيتهم، ولهذا كان من المستحيل أن يتجاهلوا ذوق الموسيقى الهندية وعلمها، وهكذا فقد ولد في القرن السابع موسيقى فنان مثل أمير خسرو؛ وهو يثبت بوضوح حقيقة الأوضاع، ويتأكد من هذا أن الموسيقى الهندية أصبحت الآن موسيقى المسلمين، وأنهم بدءوا يعتبرون الموسيقى الفارسية موسيقى أجنبية، وأن ألحان "سازجري" و"يمن" و"خيال" من اختراعات أمير خسرو، وما دامت هناك نغمة في جروح "رس" و"تار" في أصوات آلات الهند فلن يستطيع العالم نسيان أسماؤها، ويقول مثنوى "قران السعدين" نفسه:

نغمة "سازكري" في العراق تتوافق مع لحن العراق

وصار غناء ألحان "قول" و"ترانه" و"سوهلا" من التقاليد الشائعة والعامّة وكانت تتردد على لسان كل مغنٍ مع أنها جميعًا من اختراعات هذا العهد؛ ولم تعرفها الموسيقى الكلاسيكية.

كانت هذه الألحان قد بدأت في الغالب تحت إشراف الصوفية المسلمين قبل مجيء الملوك المسلمين، وكانت حاضرة في كامل أوجهها في خان قاوات دلهي، والمثلان، وأيوذهن، وجورا، وكان الصوفية يقدمون إبداعاتهم ومواهبهم جلبا للبركة والقبول، وفيما يتعلق بسلاطين الهند فإن التاريخ يذكر أحداث تقدير الموسيقى الهندية وقبولها في بلاطات الدولة الجلجية ودولة آل تغلق، ولكن الأسرة الملكية التي اعتنت بالموسيقى الهندية من حيث كونها فنًا خاصًا كانت الأسرة الشرقية في جونبور وكان لحن "خيال" مقبولا في ذلك العهد بشكل عام، وبدأ أهل الفن يعتنون به بدلا من لحن "دهربد" (أحد الألحان الهندية)، وفي أثناء ذلك العهد ظهر ذوق الموسيقى والولع به بين الأسرة الملكية البهمنية وأسر نظام حيدر آباد في الركن ومن بعدهم ملوك بيجابور، ولأن علم الموسيقى والعمل بها أصبح من اختصاص البلاط في الركن ومالوه في ذلك العصر لهذا كان من الأمور الطبيعية أن تنال وصاية الملوك المسلمين، وكان إبراهيم عادل شاه علما فذاً على حد قول ظهوري في هذا المجال، وما أجمل ما قاله ظهوري في مدحه:

إن المروءة تلزمك بأن تتجول ليلاً
فإن بيوت المساكين ليست لها مصابيح .

(ظهوري ترشبندي)

ونجد في التاريخ أحداثًا كثيرة عن ذوق ملوك مالوه، والبنغال، والكجرات وأعمالهم الشخصية في الموسيقى، وقد اهتم سلاطين "جور" باللغة القومية والموسيقى القومية كليهما، وهكذا نما الشعر القديم في اللغة البنغالية وترعرع تحت إشرافهم جميعا، وفي مالوه كان عشق "باز بهادر" لـ "روب متي" قد جعل منه شاعرا هنديا، وكان موسيقيا بارعا أيضا، ويمكن سماع أنغام شعره الهندي "دوها" في بيوت مالوه حتى اليوم.

كان لتقدير الملك جلال الدين أكبر للموسيقى دور في تقديم هذا الفن وأحواله معروفة بشكل عام، وقد ذكر أبو الفضل جميع أولئك المبدعين الذين تجمعوا في "فتح بور" وفي "أجرا" وكان من بينهم عدد كبير من المسلمين وقد أشار إليهم الملك جهان جير في أكثر من موضوع في مذكراته "ترك جهان جيري" ما يؤكد ذوقهم الشخصي وامتثالهم للموسيقى، وكان هذا نتيجة عظمة طبيعتهم المحبة للجمال فكانوا يقدرون الفنون الجميلة؛ ولهذا شغفوا بالفنون الثلاثة: الشعر والتصوير والموسيقى، وكانت لديهم معرفة تامة بها، وأن هذا الجمع من الشعراء والمصورين والمغنين والذي تجمع في بلاطهم لم يجتمع قط في تاريخ الهند، وكان هناك أحد المصورين في بلاطهم أدهش سفير إليزابيث صيمس^(١) الأول بفته ونبوغه، وهذا البيت يكفي للدلالة على ذوقه الشعري:

لا تعرض عني فإنني بدونك لا أساوي شيئا
إن تحطيمك لقلب واحد بمائة دم .

(فرسي الشيرازي)

وفي ذلك العهد دخل فن الموسيقى ضمن فنون الحكمة، وبدءوا يعتبرون أن تحصيل العلم وتكميله يعد ناقصا ما لم يحصل فن الموسيقى، وكان يعتني بتحصيل الموسيقى في المدارس من أجل تربية أولاد الأمراء والأشراف وتعليمهم مثلها مثل

(١) هو السفير توماس رو. (المؤلف)

جميع العلوم والفنون وكذلك اهتموا أيضًا بتحصيل الموسيقى، وكانوا يطلبون البارعين والمهرة في الموسيقى من جميع مناطق الهند، وكان المغول من دلهي، وأجرا، ولاهور، وأحمد آباد يعينون موظفين في بيوت الأمراء والأشراف برواتب كبيرة جدا، وكان الشباب الذين يأتون إلى المدن الكبرى من أجل التعلم كانوا يبحثون عن أساتذة فن الموسيقى، وينخرطون في حلقات تعليمهم هناك جنبًا إلى جنب حلقات العلماء والمدرسين وكان أساتذة فن الموسيقى مشهورين في الركن: في أحمد نجر، وبيجابور، وبرهان بور، وكذلك في دواة في دلهي، وأجرا، وفي البنجاب في لاهور، وسيالكوت وجهنك.

وفي ذلك العهد كان العلماء والفضلاء الذين يأتون من إيران وتركيا يشعرون فورًا بضرورة فهم موسيقى الهند وملائمتها لهم، ولم تكن تمر عليهم عدة سنوات حتى يصبحون من العارفين بها، وكان والد محمد قاسم فرشته صاحب تاريخ فرشته قد قدم من مازندران وأقام في أحمد نجر، وكانت ولادة فرشته في مازندران لكنه شغف بالموسيقى الهندية إلى هذا الحد الذي جعله يؤلف كتابًا كاملاً في هذا الموضوع، وهذا الكتاب موجود في مكتبتني، وكان "علماء الملك توني" الذي جاء إلى الهند في العام السابع لجلوي الملك شاه جهان على العرش ويخاطب بلقب فاضل خان ثم ظفر بمنصب الوزارة في عهد أورنجزيب؛ يعتبر من البارعين في الموسيقى الهندية وكان الأساتذة في عصره يغبون من فيضه.

وعندما نقرأ سير العديد من العلماء المحترمين في ذلك العهد يتضح لنا أنهم على الرغم من أنهم لا ذوا بأنفسهم من الاشتغال بالموسيقى؛ لكنهم كانوا ماهرين في فن الموسيقى ونقدها، ففي سيرة ملا مبارك نجد هذا التصريح رغم خصوصيتها بأنه كان عالمًا في الموسيقى الهندية، وكان الملك أكبر قد ألقى على مسامعه أغنية "تان سين" فأثنى عليها.

وكان الملا عبد القادر البدايوني عالمًا متشددًا ومتدينًا، يمتلك مهارة فذة في العزف على الناي، وكان فيضى قد أدرك بالضرورة أن يشفع له في وظيفة عند الملك أكبر، ويذكر له مهارته، وكان العلامة سعد الله شاهجهاني الذي اعترف معاصروه عامة بفضله وعلمه؛ يعتني بكل فروع الموسيقى والغناء، وكان يستطيع أن يدلى

بدلوه فيها باحتراف ومهنية، وكان أستاذه ملا عبد السلام اللاهوري، وكانت حلقة دراسة تضم علماء حتى سمرقندي وبخاري، وعندما بحث شاهجهاني في جميع أنحاء المملكة عن علماء لتعليم الأمراء ووقع اختياره على توصيته، وكان حال ذوقه الموسيقي يمكن في أنه كان يحل مقامات الهداية و"بزوردي" مثل يحل المشكلات الموسيقية، وكان الشيخ معالي خان الذي ينتمي إلى أسرة ملا طاهر البتني المحدث الكجراتي- وحفيد قاضي القضاة الشيخ عبد الوهاب الكجراتي قد كتب صاحب مآثر الأمراء أحواله فيقول: كان مولعًا بالموسيقى وعالمًا بدقائق تفاصيلها.

وكان ملا شفيعائي اليزدي الملقب بـ"دان شمند خان" يأتي على رأس علماء عصره، وكانت مناقشاته مع الملا عبد الحكيم السالكوتي في بلاط شاهجهان معروفة ومشهورة، فعندما ورد إلى الهند أصبح خبيرًا في الموسيقى الهندية واعترف بفضلته وكماله ومهارته ودقته في هذا الفن.

وكان حكيم برنير الفرنسي ساوي صاحب كتاب "سفرنامه هند" موظفًا في حكومة دان شمند خان، وفي الغالب فإنه ألف "حكمًا فرنج" على شاكلته؛ نتيجة لصحبته والشيخ علاء الدين الذي كان صوفيا كبيرًا في عهده والذي يتغنى بغزلية له بكثرة في مجالس السماع هي..

لا أعلم أي لون ورائحة لتلك الزهرة الجذابة،

فإن طائر كل حديقة له معها حديث

إن سعادة مد مني الخمر وسرورهم قد وصلت إلى المنتهى

وما زال ساقينا لديه خمر في القدح .

وقد كتب الجميع عن أحواله وأنه كان بارعًا في الموسيقى الهندية، وله دراية غير عادية في الآلات الموسيقية.

ومن المعروف تبحر الشيخ جمالي صاحب سير الأولياء وابنه الشيخ جدائي في فن الموسيقى، وفي العهد الأخير كان مرزا مظهر جان جانان وخواجة مير دردبارعين في فن الموسيقى، وكان من كبار الفنانين في ذلك الوقت وقد وصل إلى القمة في كمال فنه، وكان الشيخ عبد الواحد البلجرامي من كبار علماء عهد شیرشاهي، وكتابه "سنابيل" مشهور في التصوف والسلوك، وقد كتب البدايوني سيرة حياته كانت له لمسات في الموسيقى الهندية وكان يحتدم بها المجالس الوجد والحال.

كان بيرم خان يقدر الموسيقى الهندية حق قدرها، وقد وصل تقدير عبد الرحيم خان للموسيقى إلى هذه الدرجة التي لم يستطع الكرم الملكي للملك أكبر وجهان جبر أن يوفيه حقه، وقد ذكر عبد الباقي النهاوندي في خاتمة كتاب "مآثر رحيمي" اسمها ضمن العلماء والشعراء الذين ارتبطوا بحكومة خان خانان وأنها من البارعين في الموسيقى، وكان من بينهم الإيراني والهندي، والمسلم والهندوسي.

وقد كتب صاحب مآثر الأمراء عند ذكر شاه نواز خان الصفوى أنه كان مفتوحا بالموسيقى والمطربين العازفين الذين كان قد جمعهم عنده ولم يكن لهم نظير، ومحفور في ذاكرتي هذه الكلمات نفسها أو قريب منها، وقد انقضت سنوات طويلة على مطالعتي لهذا الكتاب، وكان زين خان كوكة معروفا بشغفه بالعلوم الدراسية، وكان قد ألزم نفسه بالاستمرار في العمل بالدرس والتدريس حتى في أيام حكمه للبنجاب وقد كتب الجميع في سيرته أيضًا أنه كان لديه شغف بالأوتار والألحان وكان يعزف الأنغام بكمال وجهال، وكان ابنه مغل خان قد ورث والده في فن الموسيقى وخلفه فيه، ويعتبر خان كلان مير محمد أخا شمس الدين أنجة متميزا في موسيقى الهند وفي علمها ويتسب لمرزا غازي خان ابن جاني حاكم السند وقندهار قوله: كان لا نظير له في عزف جميع الألحان والعزف على الطنبور، وكان ملا مرشد بروجردي قد نظم هذا الرباعي في مدحه:

إذا سكت عازفك عن العزف
فهذا رمز، لأقل لك كيف يحدث هذا
من كثرة ما يدور اللحن حول جرحك
فإنه يخرج من الطنبور ملتويا .

كان "خليل زمان مير خليل" صهر يمين الدولة آصف خان تتوافر له مهارة في هذا الفن، وكان الناس يأتون ليقفوا أمامه ليفصل لهم في خلافاتهم، وكانت سرس بائي معشوقة الأمير مراد بخش لديها موهبة لا مثيل لها في عزف لحن "خيال" وغناؤه، بينما كان الأمير نفسه يتمتع بمرتبة سامية في فن الموسيقى، ويفتخر بالتلمذ على فنها، وعندما اعتقل أورانجزيب الأمير مراد استعدت "سرس بائي" لقبول صعوبات السجن والاعتقال معه، وهكذا ظلت محبوسة في قلعة جواليار مع مراد فترة من الوقت.

وكان ميرزا عيسى خان ترخان قد أثار الفتن وأحدث اضطرابات كبيرة في السند بعد وفاة جاني بيك، ولم يكن له مثيل في العزف وتلحين الأنغام.

والآن بدأت فتح مغاليتي ذاكرتي في ذلك الوقت؛ فوجدت أمامي أحداثاً لا تحصى، فقد كانت "مان متي" أم الأمير خرم ابنة راجا أودي سنج عندما حضرت إلى قصر جهان جير لاقت أغانيها شهرة في القصر، ولأن جهان جير كان ماهراً في فن الموسيقى؛ لذا امتحنها وعندما رأى أنها اجتازت الامتحان بنجاح تملكه السرور وأسند إليها جماعة من أصحاب الصوت الجميل، فاجتهدت في تعليمهم وتربيتهم، وكان لخرم نفسه - أي شاه جهان - علاقة وتذوق لهذا الفن لكنه تاب عنه بعد أن سمي "لال خان" خليفة لـ "تأن سين"، ويذكر المؤرخون خصوصية شاه جهان وذوقه ونفوذه على لحن "دهربد".

كان شوق "ناصر جنك شهيد" ابن نظام الملك آصف جاه إلى الموسيقى رغبة في تعلم اللغة السنسكريتية، فكان يستطيع قراءة الكتب القديمة للموسيقى

الكلاسيكية، ويذكر صاحب كتاب "شهادت نامه" أنه كان ضليعا للغة السنسكريتية وماهرا في الموسيقى والغناء.

وكان كرم كل أمير في ذلك العهد من أجل ترقى فن الموسيقى لا يقل بحال عن كرم الملوك، وعندما كان إسلام خان حفيد الشيخ سليم جشتي حاكما على البنغال في عهد جهان نجير كانت حكومته تنفق ثمانين ألف روبية شهريا على طوائف الرقص والغناء، ويذكر صاحب مآثر الأمراء أن مآثدته كانت تعد مرتين في اليوم وعلى كل منها ألف وعاء ملء بالطعام باهتمام وتكلف، لكنه هو نفسه كان يأكل القديد من خبز الشعير والبقول والأرز المغلى ولا يمد يده إلى أي طعام آخر، وكتب أيضًا أنه ظل يرتدي طوال حياته قميصًا غليظًا تحت ملابسه الرسمية ويلبس طاقية سميكة تحت عمامته.

وعلى الرغم من أن الفنون الجميلة لم يكتب لها الرواج والازدهار في عهد أورنجزيب بسبب تشدده الفقهي؛ فإنها كانت محدودة بالبلاط الملكي فقط، وكان الرى في الماضي يتم من خلال الأنهار الجارية في جميع أنحاء البلاد ولم يكن محدودا إلى هذه الدرجة لكنه بدأ في الجفاف عندما تجاهلته الرعاية الملكية، ولا غرو فإن المصانع قد أغلقت في عهد الحكم الملكي لعالمجير ولكن من ذا الذي استطاع -إغلاق ملايين المصانع في البيوت في طول البلاد وعرضها، وقد ذكرت في بداية هذه الرسالة الكتاب الفارسي "راج دربن" - أي مرآة الألمان أن مؤلف هذا الكتاب هو فقير الله سيف خان وكان أميراً في عهد عالمجير وعمدوح الشاعر ناصر على السرهندي، وكان شير خان اللودهي مؤلف كتاب "مرآة الخيال" يعيش في هذا العهد أيضًا وكان قد أبدى مهارة فائقة في كل من الموسيقى الإيرانية والموسيقى الهندية، وألف كتابًا ضخمًا في كليهما، وكتب فصلا في الموسيقى أيضًا في تذكرة "مرآة الخيال" وذكر ذوقه الفني،

وقد اطلعت على كتابه في الموسيقى وتوجد له نسخة بخط جميل في مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية في البنغال.

وهناك في هذا الصدد واقعة جديرة بالذكر في حياة أورنجزيب نفسه؛ كانت هناك قرية باسم زين آباد في ضواحي برهان بور، وكانت هناك مغنية من سكان آباد مشهورة باسم "زين آبادي" جرحت سهام جماها وغنائها أورنجزيب أيام إمارته؛ ويذكر صاحب مآثر الأمراء هذه الواقعة وما أجمل هذا البيت الذي ذكره:

عجبًا لممسك الشبكة من أجل خطف العشاق
والنظرة تعرف الحبيب قبل المعروف .

(عالي الثيرازي)

كانت قصة عشق أورنجزيب جذابة جدًا ويتضح منها أنه على الرغم في استدعاء أولى العزم كان يصنع الحديد والأحجار وقوة البأس؛ ولكن في زمن ما كان يظل الإنسان بكامل أعضائه ويستطيع أن يقول:

مر فصل الربيع هذا علينا .

(رنجين الدهلوي)

والآن وبعد فترة وجيزة نتذكر مير خليل خان زمان صهر يمين الدولة، وكانت زوجة خان زمان هذا خالة أورنجزيب، وذات يوم كان أورنجزيب يتمشى في حديقة "آهو خان" في برهان بور وكانت زوجة خان زمان - أي خالته - قد جاءت أيضًا للتنزه مع رفاقها، وكانت "زين آبادي" بين وصيفاتها وكان عزف ألحانها الساحر والرائع والجذاب لا مثيل له، وأخذوا ينتزهون ويرضون ثم جلس هذا الجمع بأكمله تحت ظل شجرة، وكانت ثمار المانجو لا تزال معلقة في أغصانها، وعندما وصل الجمع تحت الشجرة رأت "زين آبادي" أنه لا الأمير موجود كي يهتم بها، ولا خالته، فقفزت بجرأة على غصن مرتفع وقطفت ثمرة مانجو، فنظرت إليها

زوجة خان زمان نظرة وقحة بلا حياء ولا متهى، فألقت "زين آبادي" على الأمير نظرة ذات انطباع خاطئ وأمسكت بملابس الرقص وانصرفت، وكانت هذه النظرة الجريئة منها مثل القيامة وأنجزت المهمة مع الأمير تماما وقال الصبر والسكون وداعاً:

إن حبيبي الماهر الماكر صاحب القامة الرفيعة والنظرات الجميلة

قد جعلني أقصر قصة زهدي الطويلة .

قال صاحب مآثر الأمراء: حصل الأمير (أورنجزيب) على "زين آبادي" من حالته بعد تضرع وإلحاح، وعلى الرغم من الزهد والتقشف والتفقه الخالص الذي كان يشتهر به ذلك العهد؛ فقد أحبها وهام بها إلى درجة أصبح فيها فاقداً للسيطرة على نفسه وأعصابه؛ لدرجة أنه أخذ يقدم لها كئوس الخمر بيده الواحدة تلى الأخرى، وشاهد فتنة عالم النشوة والسرور وخلايته، يقولون إنه ذات يوم ملأت زين آبادي الكأس بيدها وأعطته لأورنجزيب وأصررت على أن يحتسيها.

انظر لقد نظم عرفي بيتا ذكرني بهذه المناسبة وكم هو ينطبق عليها:

أنت الساقى فأنظر إلى سداجة واعظ المدينة

فإنه لا يصدق أن الملاك قد أصبح مدمنا للخمر

وتضرع لها الأمير بكل حيل الضعف والانكسار قائلاً: لا تجعلى امتحان عشقي وشوقي رهنا باحتساء هذا الكأس:

لا أحتاج للخمر كي أسكر

طالما الخمار موجوداً في عينيك .

(خسرو)

لكن هذه المحتالة لم ترحمه أو ترفق به:

ما زال الإيمان والقلب يستحقان الإغارة عليهما بشدة

فقم بتعليم الإسلام لهاتين العينين غير المسلمتين .

(خسرو)

وأذعن الأمير مرغما لرغبتها وقرب الكأس من فمه، وكأنه واجه هذا التقرير كاملاً "ولقد همت به وهم بها" :

لقد أجبر عشقه عن عالم السكر والاندھاش
فجذب أهل الصلاح إلى شرب الأقداح .

(خسرو)

لكن عندما رأت بمكرها وخداعها أن الأمير لا حيلة له ولا قوة وأنه قد تهيأ للشراب، انتزعت الكأس فوراً من بين شفتيه وقالت له: كان هذا في امتحان لعشق ولم يكن لإهانتك والإساءة إليك:

والأسلوب الآخر هو أنهم لا يؤذون
العشاق كثيراً حتى لا تطبعون على الإيذاء .

(شفای آملی)

وتدريجياً وصل الأمير إلى أن بدأت الأخبار تصل إلى "شاهجهان" وأخذ كُتَّاب الوقائع والأحداث يدونون تفاصيلها، وبدأ "دار شكوه" ينسج هذه الحكاية بوشايته ونميمته ويسترعى انتباه الوالد مراراً قائلًا: "انظر هل يصنع هذا الرياء التقوى والصلاح؟" وما أجمل ما قال فيضی:

كيف تعتدى يا سيف العشق فهل هذا عدل
اقطع لسان الملامة ولو لزلخا .

(فيضی)

وليس معروفًا لماذا تفتح رغم هذه القضية، لكن الحكم كان للقضاء والقدر نفسه - أي ماتت زين آبادي وهي في أوج ازدهار شبابها، وما زال قبرها موجودًا على شاطئ بحيرة كبيرة في "أورنج آباد" ..

لقد ذهبنا بأنفسنا وأخذنا ركن أحد المزارات
حتى لا تحمل عظاما على كتف أحد .

(صلابة البدخشانی)

ولعلك قرأت هذه الواقعة في سيرة عاقل خان الرازي أن أورنجزيب كان قد حلت به مأساة فادحة بسبب موت حبيب خاص به في عهد إمارته، لكنه كان قد أمر بالاستعداد للصيد في ذلك اليوم؛ وتعجب رجال الدولة من هذا الأمر فأبيح مناسبة بين حالة الحداد والنزعة والصيد، وعندما خرج أورنجزيب من قصره للصيد كان عاقل خان أمير العسكر فقال له بعد أن سنحت فرصة الانفراد به، أي حكمة استندت إليها عند خروجك للصيد في هذه الحالة من الغم والحزن؟ ولم يستطع أن تصل إليها أعيننا نحن أهل الظاهر، فأنشده أورنجزيب هذا البيت مجيباً إياه:

إن الأناث المنزلية لا تواسى القلب

أما في الصحراء فيمكن إطلاق صرخات مريحة للقلب .

(قدسي الشهيد)

وبناء على ذلك أن شد عاقل خان هذا البيت مرتجلاً:

العشق، كم كان يبدو سهلاً، ولكن آه، كم كان صعباً

الهجر، كم كان صعباً، ولكن الحبيب استهان به .

فطرات على أورنجزيب حالة من الوجد وأدركته رقة وسأل لمن هذا البيت؟ فقال عاقل خان : إنه لشخص لا يريد أن يكون هو نفسه محسوباً في زمرة شعرائك فأدرك أورنجزيب أن هذا البيت لعاقل خان نفسه، فأثنى عليه كثيراً وأودع له الوصاية والإشراف عليه منذ ذلك اليوم؛ فالحبيب الخاص الذي ورد ذكره في هذه الحكاية المقصود به "زين آبادي" نفسها.

وكتب صاحب مآثر الأمراء في سيرة "خان زمان" أنه كانت له مهارة فذة في فن الموسيقى، وأنه على الرغم من انشغاله بمهام منصبه؛ فإن اهتمامه بالموسيقى والألحان ظل مستمراً وظلت المغنيات الحسنات والجميلات من حسناوات الصوت يجتمعن في بلاطه، وكانت زين آبادي من بينهن، ويقال بالنسبة لها إنها كانت مخظيته.

ولم يكن أورنجزيب نفسه جاهلاً بفن الموسيقى؛ لأنه درسها مثل بقية الأمراء جميعاً، ولا غرو في أن طبيعته فيما بعد اختارت طريقاً آخر؛ ومن أجل هذا اعتزل تذوقها والاشتغال بها، وبعد أن استولى الحكم أوقف جميع أنشطة الموسيقى، وقد ألمات المطربون الموسيقى فقال لهم أورنجزيب: ادفنوها هكذا حيث لا تستطيع النهوض من القبر مرة ثانية.

ولكن مزاج الزهد في الدولة لم يستطع الاستمرار والصمود طويلاً مثله مثل بقية خطط أورنجزيب، وانتهى مع حياته مثلاً انتهى العهد البيوريتيني "Puritan" الجاف الزاهد في إنجلترا، وهكذا فقد ارتد مزاج الدولة على عقبيه هنا أيضاً بعد موت أورنجزيب، وكان عهد فرخ سير ومحمد شاه أكثر انفتاحاً وتسامحاً وكان في الحقيقة رد فعل للزهد والتقص في عهد أورنجزيب، ونستطيع أن نقدر مزاج اللهو والترف في هذا العهد من خلال المثنوي الذي نظمه سيد عبد الجليل المحدث البلجرامي لتهنئة سير بمناسبة زواجه.

وقد قرر قدماء فن الموسيقى في الهند أن الموسيقى والرقص قسم خاص، وكانوا يعتقدون أنه فيما يتعلق بالموسيقى أنها مؤثرة بشكل خاص وتسخر حيوانات الصحراء بعد أن تذهل عن نفسها، وكان هذا النوع من الرقص والغناء داخل ضمن الاستعداد للصيد، وكانت هذه الطائفة تستعد بكامل أدواتها الفنية تحت إشرافه، وقد كتب آندرام في كتابه "مرآة المصطلحات" بعض التفاصيل الممتعة لطريقة الصيد؛ هذه، فيذكر أنه عندما كانت الاستعدادات تجري للصيد كانت هذه الطائفة ترسل إلى مكان الصيد وتبدأ في الرقص والغناء وبعد فترة وجيزة من الوقت تبدأ الغزلان في الظهور تدريجياً من الجوانب الأربعة وتنهمك مع الرقص والغناء؛ وتصل بالقرب من هذه الطائفة تماماً، وذات مرة توجه جهان جير لصيد الحيوانات فنصب لها هذا الفخ من الرقص والغناء، وعندما خرجت أسراب الغزلان من كل صوب وحذب ووقفت أمامه طراً لسان نوجهان هذا البيت لأمر خسرو فقالت مرتجلة:

إن كل غزلان الصحراء قد وضعوا رءوسهم على كفوفهم
أملأ في أنك ستصطادهم ذات يوم .

(خسرو)

وبعد أن استمع جهان جبر لهذا البيت لم تستسغ غيرة الرجولة عنده هذه المرة
ورفع يده عن الصيد وقفل راجعا مكتئبا، إن فكرة تأثر الحيوان بالغناء روايات قديمة
لدى جميع شعوب العالم، وقد ورد في التوراة أن ألحان سيدنا داود كانت تجعل الطير
فاقدًا للوعى وفي حالة طرب، وفي الروايات اليونانية تأكيد لهذه الظاهرة عند العديد
من الأشخاص، ويعتقد بهذه الحقيقة المسلمة عند قدماء فن الموسيقى في الهند،
وكانت هذه العقيدة قد رسخت مثل هذه العقيدة على أساس ما لا يحصى من
التجارب ويسلم بشكل عام بتأثر كل من الثعبان والحصان والحمل بالموسيقى فلو
توقف الحدى لتثاقل خطى المحمل:

إذا رأيت المحمل يتثاقل فأسرع خطى الحدى .

· (عرفي) .

وقد ذكر البيروني في كتاب الهند طرق الصيد عن طريق الموسيقى وقد شاهدها
بنفسه فيقول: "إن الصياد كان يمسك الغزال بيده، ولم يبق هناك أي قوة لدى الغزال
للهرب" وينقل هذه المقولة للهندوس وهي لو أن شخصا ما لديه مهارة كاملة في هذا
العمل (الموسيقى) لن تدعه الحاجة لرفع يده والإمساك بالغزال، ويكفيه فقط قوة
موسيقاه في المكان الذي يريد الذهاب إليه للصيد، ثم يقول: يعتبر العوام أن تسخير
الحيوانات وذهولها من تأثير السحر والتعاويذ مع أن هذا التأثير يأتي من الغناء فقط،
وفي موضع آخر يقول عند ذكر جزيرة سرنديب: القروود هنا كثيرة، ومشهور عند
الهندوس أنه لو أن أي مسافر وقع في ورطة معهم وبدأ في قراءة تلك الأشعار
الموجودة في: الرامايانا" في مدح القرد "هنومان" فإن القروود يطيعونه ولا يعتريه أي

ضرر من جانبهم، ثم يقول: لو أن هذه الرواية صحيحة فإن المعنى الباطن لها أيضًا أن هذا تأثير عمل الغناء - أي إن معاني أشعار "الراماينا" ليس له أثر وأن التأثير هو تأثير الموسيقى، والتصريح الأول غالباً في باب بعنوان "في ذكر علومهم" كأسرة الأجنحة على أفق أجمل، وسوف تجد الرأي الثاني بعده مكتوباً في باب بعنوان: "في معارف شتى في بلادهم وأنهارهم".

ولكن الأمر العجيب هو أن علم الحيوان في عصرنا الحاضر لم يسلم بواقعية هذه الفكرة ويحمل مشاهدات التأثير هذه على أسباب أخرى، ويقال فيها يتعلق بالثعبان إنه لا يوجد لديه أي خاصية للسمع.

وكان والده الداغستاني صاحب كتاب "رياض الشعراء"، وقرلباش خان أميد، ومير معظرت موسى، ومؤمن الدولة إسحاق خان الشوستري جميعاً قد قدموا من إيران ولكن عندما تعرفوا على مجالس الهند شعروا أنهم لن يستطيعوا الوقوف على موسيقى الهند دون أن يستندوا إلى تحصيل علومها؛ ولهذا لم يكن لديهم مفر من دراستها، وقد ذكر القاضي محمد خان اختر أحوال مجالس طرب قرلباش خان أميد في رسائله، ويمكن لنا أن نستشف منها أن درجة من التمكن والتضلع قد نالها في هذا الفن، وكان الشيخ على حزين خبير بشكل كامل بالموسيقى الإيرانية لكنه درس الموسيقى الهندية في الهند، وكان من عاداته أثناء إقامته في بتة أن يخصص يومين في الأسبوع من أجل مجالس الموسيقى، ويحضرها صفوة المدينة ويقدمون نماذج من فنونهم الرفيعة.

وفي عهد أمراء أودة (لكناو) كان العلامة تفضل حسين خان معروفاً جداً بفضل عمله، وكان قد التقى الشوستري صاحب "تحفة العالم" في كلكتا، وعندما تولى منصب سفارة أودة يقول: لقد بلغت درجة الاجتهاد في الموسيقى إلى جانب جميع العلوم العقلية، وقد بلغت حالة شوقه وولفه بالموسيقى مبلغاً لا تعرف عينيه النوم ما

لم تعزف الألحان الموسيقية وكان هناك ماهر في فن العزف موظفا من أجل هذا العمل فقط وفي الليل يعزف الألحان الموسيقية للنائم في مضجعه.

وينسب للعالم بحر العلوم من علماء "فرنجي محل" بلكناو؛ أن بعض معاصريه قد ذكروا أن تضلعه في فن الموسيقى ورسوخه كان مسلماً به بشكل عام.

ولا شك أن الموسيقى سبب في تهذيب الطباع والاشتغال بتحسين التفكير في زمان تطوير الشعوب وازدهاره وصارت في نفسها مهلكة للطبائع والسجاياء، وآفة للفكر في عصور الانحطاط، فشيء واحد يزينه الفضل والكمال في اعتدال العمل وحسن الاستعمال، ولهذا فإن سوء الأخلاق من أعمال الإفراط والتفريط ويقدر فيه بمئة عيب، وكان الشوق إلى الموسيقى في الغرفة العلوية للإمبراطور جلال الدين أكبر وعندما كان يفتح الغرفة بعد هجومه وغاراته؛ فإن مجلس الموسيقى واللهو كان يزيل تبعه، وبعد ذلك كان الشوق إلى الموسيقى في قصر محمد شاه رنجيلي، فبعد أن تدفعه نساء عنها لا يخرج من الخيمة ولا يذهب إلى الديوان، وكان "صفدر جنج" يلوذ بمهرة الموسيقى عندما يتعب من أعمال الديوان، وكان واجد على شاه من نسله ووتيرته وكان عندما يتعب من الضرب على الطبلية يحظى بشرف المثول بين يدي وزيرة "على نقى" ليستجم ويجدد قواه، وكان لكليهما شوق إلى الموسيقى ولكن الفرق الذي كان بين خالتيهما لا يحتاج وصف:

سارت مشرقة وسبرت مغرب شتان بين مشرق ومغرب

لقد اشتهرت هذه القضية بشكل عام، وهى أن المزاج الديني للإسلام مخالفًا للفنون الجميلة، وأن الموسيقى تدخل في المحرمات الشرعية مع أن حقيقتها لا تزيد على أن الفقهاء تشددوا في هذه القضية من باب سد الوسائل وكان هذا التشدد أيضًا من باب القضاء وليس من باب التشريع، لأن ميدان القضاء واسع جدًا، وأن كل شيء من جهة الاستخدام يصبح وسيلة لأي مفسد ويستطيع القضاء رده، لكن

الحكم الأصلي للتشريع لا يمكن أن يتزحزح من مكانه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف: ٣٢ ، لكنني لا أريد أن أثير هذا البحث هنا لأن النظرة التي ألقياها هنا من هذه الزاوية نظرة أخرى..

يا ليت كل شيء جاز في الحب يا مؤمن، فلا تثير المزامير والصهباء والحسرة والحرمة.

انظر إلى الكلام الذي كنت أريد قوله وأين هو، والآن بعد أن كُتبت أرقام الصفحات - فعلمت أنني انتهيت من كتابة ست وعشرين صفحة، على كل حال لقد توقف القلم الآن ..

كلام القلب غير المرئي هو كلام كثير فحسب

أما المعنى الذي يريده القلب فهو قليل حتى لو كان مئة نسخة (ببديل عظيم آبادي).

أبو الكلام

المؤلف فى سطور:

أبو الكلام آزاد

(١٣٠٥هـ - ١٨٨٨م) - (١٣٧٥هـ - ١٩٥٨م)

ابن مكة ومفسر الهند، من أبرز علماء الهند الذين صار لهم شأن عظيم بعد عودته إليها، حيث قضى طفولته الأولى بين أرجاء مكة وتعلم فى الحرم المكى، وتركت هذه التربية أثرها فيه وأسهمت فى تكوينه الفكرى والعلمى وقد انعكس ذلك على حياته العملية بعد ذلك حتى أطلق عليه صاحب الإمامتين: الإمامة فى الدين، والإمامة فى السياسة.

لقد كان مولانا أبو الكلام آزاد ابن مكة شخصية ثرية متعددة الجوانب، فهو سياسى محنك ومجاهد فى سبيل تحرير الهند، وعالم دين، ومفكر، وفيلسوف، وعالم فى علوم الحديث، ومفسر للقرآن، ومؤرخ فى تاريخ العرب والعجم، وهو خطيب مفوه وكاتب بارع، وخبير تعليم وأديب، وصاحب أسلوب مميز فى العربية والأردية، وصحفى له مدرسة صحفية متميزة، وثورى ورئيس أكبر حزب سياسى هو حزب "المؤتمر" الهندى الذى ظل يحكم الهند قرابة خمسين عامًا، وساهم فى استقلال الهند عام ١٩٤٧ م وظل وزيرًا للثقافة حتى وفاته عام ١٩٥٨ م.

المترجم فى سطور:

جلال السعيد الحفناوى

أستاذ اللغة الأردية والدراسات والحضارة الهندية- قسم اللغات الشرقية، كلية الآداب جامعة القاهرة - مصر.

المؤلفات :

- فن السيرة فى الأدب الأردى . دار النشر للجامعات . القاهرة ١٩٩٨ .
- نقد الشعر الأردى عند أطفاف حسين حالى . دار النشر للجامعات . القاهرة ١٩٩٩ .
- المسلمون فى الهند: قراءة من الداخل . مكتبة الملك عبد العزيز . الرياض ٢٠٠٥ م.

الترجمات عن الأردية:

- ١- سيرة الفاروق: تأليف شلبى النعمانى . المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٠ م.
- ٢- الشعر والشاعرية: تأليف أطفاف حسين حالى . المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠ م.
- ٣- الفردوس الأعلى: تأليف عبد الحليم شرر . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ٢٠١٠ م.
- ٤- رحالة هندی فى بلاد الشرق العربى: تأليف شلبى النعمانى . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ٢٠٠٢ م.
- ٥- قصص قصيرة من الهند: تأليف قرة العين حيدر وآخرين . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ٢٠٠٢ م.

- ٦- ديوان صلصلة الجرس: تأليف محمد إقبال. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ٢٠٠٢م.
- ٧- ديوان جناح جبريل: تأليف محمد إقبال. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ٢٠٠٢م.
- ٨- ديوان ضرب كلیم: تأليف محمد إقبال. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ٢٠٠٣م.
- ٩- مرآة العروس: تأليف نذیر أحمد. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ٢٠٠٣م.
- ١٠- النثر الأردی: تأليف سيد محمد. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ٢٠٠٤م.
- ١١- جلیل قولو زادة كاتب أذربيجان الوطنی: تأليف عيسى حبيب بايلي. دار الثقافة العربية. القاهرة ٢٠٠٨م.
- ١٢- علم الكلام الجديد: تأليف شلبي النعمانی. المركز القومي للترجمة. القاهرة ٢٠١٣م.
- ١٣- شعر العجم: تأليف شلبي النعمانی - ٣ مجلدات - المركز القومي للترجمة القاهرة ٢٠١٥م

ترجمات عن الإنجليزية

- تراث الهند: تأليف جاريت. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ٢٠٠٤م.
- الأوسمة: وسام الصداقة بين الشعوب من جمهورية أذربيجان ٢٠٠٨م.
- الأوراق البحثية: نشر له العديد من البحوث باللغتين الأردية والعربية في كل من الهند وباكستان وإيران وأوزبكستان وقازاقستان والأردن والسودان والسعودية ومال و أذربيجان.

التصحيح اللغوي: كريمان البدرى

الإشراف الفنى: حسن كامل

أبو الكلام آزاد- 1888-1958

سياسي ومفكر وأديب ومفسر ومترجم للقرآن ومنظر اجتماعي هندي مسلم، ولد في محلة قدوة باب السلام بمكة المكرمة، لأب هندي وأم عربية من المدينة المنورة، رجع مع والده إلى كلكتا بالهند للعلاج، واستقر هناك، وشارك آزاد غاندي في معركة الاستقلال وكان صنوا له، وتعرض للسجن من قبل الإنجليز أكثر من مرة حتى استقلت الهند عام 1947. وكان من أنصار بقاء المسلمين في الهند وطنهم على العكس من رؤية محمد علي جناح مؤسس باكستان. عين آزاد أول وزير ثقافة هندي حتى وفاته، وقد أصدر عدة صحف ومجلات باللغة العربية والأردية مثل: البلاغ والهلل والجامعة وثقافة الهند، والأخيرة ما زالت تصدر من نيودلهي حتى الآن، وقد امتلك ناصية اللغة العربية وله الكثير من المقالات الافتتاحية في الصحف والمجلات الأردنية باللغة العربية إلى جانب إتقانه للغات الهندية والأردية والفارسية والإنجليزية.

زار أبو الكلام مصر عام 1908، والتقى بشيخ الأزهر ومحمد رشيد رضا، ثم استقبل رشيد رضا في الهند عام 1912، وترجم خطبته الأردنية إلى العربية ترجمة فورية، ويعد كتابه " غبار الخاطر " تحفة أدبية، وهو عبارة عن خواطر دونها في رسائل أثناء وجوده في السجن وطبعت بعد خروجه من السجن، وتناول فيها موضوعات سياسية وأدبية وفنية وثقافية وتحدث عن الموسيقى العربية والغناء العربي وأشاد بكوكب الشرق أم كلثوم، (ترجم غبار خاطر إلى الإنجليزية والفرنسية والتركية والهندية وهذه الترجمة العربية الأولى لهذا الكتاب القيم).